اطلالة على التراث

تأليف

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ / ١٩٩٣م

إطلالة على التراث

الجزء الأول

تأليف

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

الرياض - الطبعة الأولى
١٤١٤هـ / ١٩٩٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ

٨١٠,٨ الخـويـطــر، عبدالعزيز بن عبد الله.
٦٣٦خ إطـلالة على التراث / عبدالعـزيز بن عبدالله بن علي الخـويطـر.
– ط ١. – الرياض: ع. ع. الخويطر، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
٤٠٠ ص؛ ١٤,٥ × ٢١ سم.
ردمك: ١ – ٩٨ – ٧٣٨ – ٩٩٦٠
١ – الأدب العربي – مجموعات ٢ – الحكايات العربية
٣ – السعودية – المقالات العربية
أ – العنـــوان..

ردمك: ١ – ٩٨ – ٧٣٨ – ٩٩٦٠
رقم الإيداع: /١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الكتاب هو مجموعة مقالات لي ظهر بعضها في المجلة العربية وبعضها في صحيفة عكاظ، وسيشار عند بدء كل مقالة عن مكانها من النشر، والعدد وتاريخه إن شاء الله.

كان الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ بصفته وزيراً للتعليم العالي مشرفاً على المجلة، وباقتراح من رئاسة المجلة كتب إلى عدد من زملائه يستنهضهم للمساهمة في الكتابة في المجلة، وكنت من بينهم، ولم أتمكن حينئذ من الاستجابة لطلبه - رحمه الله - لأنه لم يكن في ذهني خطة لكتابة منتظمة تسير وفق النهج الذي تتبعه المجلة. ولم أرد أن أكتب أشتاتاً من الكتابة، تخضع للفرصة، وتسير مع الحظِّ.

وبعد وفاته - رحمه الله - وعملي وزيراً للتعليم العالي بالنيابة، بدأ الأخ الأستاذ حمد بن عبدالله

القــاضي ، رئيس تحريـر المجلة ، يلح عليّ في أن أكتب في المجلة ، لأن هذا سوف يعضدنا في متابعة طلب المساهمة في الكتابة من بعض الأخوان الكتاب ، سيراً على النهج الذي اتبعه معالي الشيخ حسن - رحمه الله - واستمر في موالاته حتى وفاته .

وهكذا وجدت أنه لا بد لي أن أكتب ، وأن أتبع نهجـاً واحـداً ، له سمـة معينـة ، يخدم حقـلا من الحقول بعينه ، وهو ما اتبعته في كتابي «أي بني» ، وإذا كان «أي بني» ركز على التراث السعودي في بعض مناطق المملكة فإن ما هداني الله إلى اختياره هنا جاء عن التراث الإسلامي والعربي عامة ، في أي قطر من أقطاره ، أو زمن من أزمانه ؛ لامساً بعض السـمات الـواضحة فيه ، مقارناً بعض أجزائه مع بعض ، أو بعض ما فيـه مع بعض ما أصـادفـه في الآداب الأخــرى ، مما يصلح للمقـارنـة ، ويـأتي ببعض الفائدة .

وبـدأت معـالم الخطة تتضح ، وكتبت للمجلة

العربية نزولاً على الرغبة الأخوية من الأستاذ حمد ، وما إن صدرت الاعداد الأولى حتى أبدى الأخ الدكتور هاشم عبده هاشم - رئيس تحرير عكاظ - رغبة في نشر مقالة المجلة العربية في عكاظ ، ثم بعد مدة رغب في أن يكون لعكاظ مقالة أسبوعية خاصة بها ، فاستجبت لهذه الرغبة مقدراً هذا الطلب الأخوي .

وبدأ الإلتزام للمجلة ولعكاظ يتوالى ، والإلتزام وعد ، والوعد عهد ، والعهد يتبعه الوفاء ، والوفاء يعني التحضير ، وهذا يعني اقتطاع شيء من وقت الراحة . واستمر هذا ، يحدوني فيه ما شعرت به من أن الإلتزام يساعدني على نفسي ، ويشجعني ما لقيته من اهتمام المجلة وعكاظ ، واهتمام بعض قرائها داخل المملكة وخارجها ، ممن أعرفهم أو لا أعرفهم ، فقد كان لدفء كلماتهم ما قاوم برودة التعب ، وهجر الراحة .

لقد تكونت حتى الآن حصيلة من هذه المقالات

التي حملتها صفحات المجلة العربية أو عكاظ ، فرأيت أن أجمع شملها في كتاب ، أملاً في أن تعم الفائدة التي توسمتها فيها ، وأن يُسهِّل جمعها رجوع من يود أن يرجع إلى شيء منها فاته ، مع ما قد عنّ لي من ملاحظات فيما بعد ، أو بدا لغيري مما جعلته مستدركا يضيف فائدة ، أو يزيل خللاً .

والتراث ، وما دون فيه في عصور الإسلام المختلفة هو لحمة هذه المقالات وسداها ، وهو عمادها ومرتكزها ، ومنه الانطلاق وإليه العودة ، ولقد شدني إليه ما فيه من ثروات فكرية ، وذخائر علمية ، وصور اجتماعية ، ورسوم ناطقة ، وما أشعر به من حاجة جيلنا والجيل المقبل إلى معرفته ، والغوص إلى درره ، والإرتواء من معينه ، وتفيؤ ظلال شجره ، وتنسم عبق زهره ووروده ، ففيه ما يملأ النفس ، وينير الفكر ، ويبهج القلب ، ويهدي إلى الطريق المستقيم ، والتربية الحسنة ، ما لا نجده في أيٍّ مما دون حديثاً ، مما جاء نتاجاً لفكر

معاصرينا ، أو اقتباساً من لغة أخرى ، أو قياساً على آداب ثانية .

وقد حاولت أن أقارن حاضراً بماض إن كان للمقارنة مجال ، وإن أظهر ما قد يكون خفي مما تبين لي من نص آخر ، وقد أعرض لفضيلة ، أود أن تشيع فتكون وسيلتي ذكر نص يقنع بما أرمي إليه ، وأحرص إذا أمكن أن أتبعه بما يثبت الفكرة ويقويها . ولم يخيّب التراث أملي في هذا المجال ولا في غيره ، فالمدون ثرّ ، وهو عام في كل مجال ، ويأتي بطرق متعددة .

وبمتابعة التراث تبيّن لي أن بعض ما بهرنا من الغرب في عصرنا الحديث إنما هو بضاعتنا ردت إلينا ، وأننا السابقون إلى هذا ، سواء كان ما نجد ، مما يجلبونه لنا من أفكار مأخوذاً منا مباشرة منذ زمن طويل ، أو كان تلاقي أفكار نحن السابقون إليها قبل قرون . وهذا يعطينا الثقة في تراثنا وفي أنفسنا ، ويحثنا على أن نفليه فليًا ، لنعرف ما تحت ما لبسه من

غبار ، أو ما بنى عليه الزمن من طبقات صدأٍ أخفت درره وجواهره ، ومن يبدأ في سلوك هذا الطريق فإنه يجد نفسه تدريجيا مشدوداً إليه ، ولن تبعده - بعد أن يتوغل - قوة إغراء الأدب الحديث إلا فيما يتصل فيه نفع للحياة والمعيشة ، وتصبح متابعة التراث عادة متسلطة ، وأكرم بها من عادة ، وأكرم به من تسلط .

وحرصت ، زيادة في الجذب والامتاع ، أن أنوع المصادر ، فلا أكتفي بأمهات الكتب التي قد يجد الشاب المستجد أنها مملة ، أو يعسر عليه أن يحوزها بسهولة ، أو يجدها في أي مكتبة ، وفي أي وقت . وحاولت أن يكون هناك من الكتب ما تسهل قراءته ، وفيه من الجاذبية ما يؤدي إلى مصادقته ومؤاخاته ؛ فقد أترك الإشارة إلى العقد الفريد ، أو العمدة ، أو عيون الأخبار إلى الكشكول والمستطرف إذا كان النص فيها كلها واحداً لم يتغير ؛ لأن الكشكول والمستطرف بتوافرهما في المكتبات

والأسواق، وللنهج الذي اتبعه مؤلفاهما، يسرعان بالفائدة للقارئ المبتدئ، ويسعفان المتمكن في تحرير النص وإتقانه عند الحاجة إلى العودة إلى النص، لدقة نقلهما النصوص، ولا تنقص حداثة تأليفهما من قيمتهما، ما دام ماينقلانه ثابتاً وصحيحاً. ولا أنسى أن أول ما قدمني وجيلي إلى عالم تراثنا كان كتاب «إعلام الناس»؛ لأنه كان الكتاب الوحيد المتوافر لنا في ذلك الوقت، وأرجو أن يسمح لي الوقت بالعودة إليه مرة أخرى، لأستعيد عن طريقه شيئاً من ذكريات الصغر.

وفي تنويع المصادر لمن اجتذبه التراث، وصار من قرائه، فرصة ليعرف خطط المؤلفين، وطرق التأليف عندهم، والنسق الذي يسير عليه كل واحد منهم، ومَنْ من بينهم المبتكر وما هو ابتكاره، ومن هو المقلد ومَن قلّد. ويعرف من الإحاطة بالكتب والمصادر مدى الاهتمام بالتراث وطبعه وإخراجه، ومن هي الهيئات الطابعة، ودور النشر والتوزيع،

ومن هم الأشخاص الذين لهم الفضل - بعد الله - في الالتفات إلى تراثنا ، وما هي العصور التي وجدوا طريقهم إلى مادون فيها ، ولماذا هذه العصور بعينها دون غيرها ، وما هي القوة في تلك الفترة ، والضعف في فترة أخرى ، وما هي المؤثرات في كل عصر على ما فيه من تراث ، والعناصر التي وجهته وجهته أيًّا كانت .

ووجدت أن في بعض مراجع التراث الغث والسمين ، والصحيح والمكذوب ، والمزاد فيه ، والمنقوص منه ، والمحرَّف لصالح فئة ، أو ضرر أخرى ، ولمحت معارك عنصرية ، وأحقاداً شعوبية ، ومكائد قبلية ، وتِرَاتاً عشائرية . وميدان هذه الحروب هو في هذه القصص والحوادث التي تروى وتدون ، وتسود بها صفحات التراث ، وتصبح شغل الورّاقين الشاغل ، ومصدر رزقهم . وهكذا اختلط الصحيح بالهجين ، والصادق بالكاذب ، والمزيف بالأصيل ، والمنير بالمظلم ،

فحاولت أن آخذ بعض النماذج حسب اجتهادي، فأعرضها، دون تعمق، على بوتقة النقد، وأملت أن هذا يلقى ضوءاً يستفيد منه من لم يكن لديه أداة لهذا.

والسبب في هذا أنى لاحظت أن من بين المؤرخين من سعى منفرداً، أو مع مجموعة، لإعادة كتابة التاريخ، إنطلاقا من حرص وغيرة على تاريخنا، ولكن تبين أن «اللقمة أكبر من الحلق»، وأن من حاول ذلك من المخلصين نجح نجاحا محدوداً في نطاق جهده وعمره وظروفه، ولكن لم يرض بما وصل إليه مقارنا بها أمله. فاستهديت بالمبدأ الذي يقول: «علم ابنك السباحة ففي هذا أمان أكثر من أن تضع على الماء سياجاً وأبواباً مغلقة». وعلى هذا وجدت أن عليّ، ومن يرى رأيي، أن نعطي القارئ المَلَكة في أن يفرق بين الصحيح والسقيم، بإعطائه نماذج للفحص والتدقيق، والأمل أن يأتي من يغطي على هذا

المجهـود المحدود ، ويبرزه بمجهود أكبر ، في مجال أوسع ، ونقطع بهذا سبيلا طويلا إلى هدفنا .

وطـول المقـالة وقصرها خضع للحيّز المتاح في المجلة أو الجريدة ، وهو حيّز مرضٍ لي ، ويتفق مع ما في ذهني لمثـــل هذه المقـــالات ، حتى لا يمـــل القارئ. وأنا اعتبر أن الملل هو عدو القارئ الأول ، وقـد أبـديت هذه المـلاحظة في كتابي «أي بني» ، وراعيت ذلك هناك وهنا ، ولهذا جاءت النصوص قليلة ، وتقتصر على تمثيل نماذج لِمَا رَمَت إليه المقالة ، دون استقصـاء أو إحـاطة ، وقد أجد فيها بعد أنه لا بد من العودة إلى موضوع بعينه ، فآخذه من زاوية أخرى تحكمها النصوص الجديدة المتجمعة .

وقد فكرت ، عند جمع المقالات في كتاب ، أن أضع كل نوع منها يعالج موضوعا بعينه متتاليا في باب واحـد ، فمثلا المقالات التي تخص أشخاصا مثـــل الجـاحظ أو الحجـاج تأتي متتـاليـة في باب الأشخاص ، وما يخص اللغة يأتي في باب ، وما يخص

التاريخ في باب، وما يخص الدين في باب، وما يخص الفكر في باب وهكذا، فوجدت أن هذا لا يصلح لمقالات لا تزال تكتب ولم تكتمل، ورأيت لهذا أن من الأفضل أن أضعها متتالية حسب ظهورها، وفي هذا فائدة انتقال القارئ من موضوع إلى موضوع آخر مختلف، وهذا يجعلها تتماشى مع طبيعة نشرها في المجلة والصحيفة، وهذا أيضا يجعلها غير مملّة، ولا يخرجها عن العفوية التي أريد لها أن تتسم بها، وإذا مد الله في الأجل - في طاعته إن شاء الله - فستتوالى أجزاء الكتاب.

وهذه المقدمة كان بالامكان أن تكون أطول من هذا كثيراً، إلا إني شعرت أني سوف أكرر فيها إذا أطلت ما قد جاء في بعض المقالات مما هو عادة من طبيعة المقدمة، إلا أنه دخل أيضا في طبيعة بعض المقالات، مثل حديثي عن الانتحال، ووضع القصص، وتلبيسها للمشهورين، وقد جاء هناك مفصلا، ومكرراً أيضا والهدف من ذلك أن يكون

التّكرار وسيلة للقبول والتبنى على طريقة : الطرق على الأبواب يفتحها ، وعلى هذا فمن قرأ الكتاب بأكمله ، فســوف لا تنقصــه معـرفـة ما لم يرد في المقدمة .

جمال وفطنة أم دمامة وغباء(*)

يروون عن «برناردشو» الكاتب الأيرلندي الساخر (خاصة من الانجليز) ان إحدى الممثلات الجميلات قالت له يوماً في حفلة، وهي تجاذبه أطراف الحديث: ما رأيك لو تزوجتني، فيأتي ولدنا بجمالي واكتمال عقلك؟ فرد عليها «شو» قائلاً: من يضمن ألا يأتي بقبحي ونقص عقلك؟.

هذا القول، الذي قاله «برناردشو» على البديهة، أعجب الناس، وبهرهم، فرددوه، ولاكته ألسنتهم، فشرق وغرب، وجملت به الصحف والمجلات صفحاتها، وزين به الناس مجالسهم، يستدلون به على عمق السخرية، وسرعة البديهة، وحدة الرد، ودقة إصابة المرمى، والصراحة المتناهية.

وهذا القول تبين: إن «شو» ليس أول من وقع

(*) المجلة العربية، شوال ١٤١١هـ.

على التعبير به ، وأن هذا القول ليس جديداً على التراث الفكري للإنسان ، فقد عرفه قارئ التراث العربي قبل قرون ، كما ورد في كتب الأدب ومنها نزهة الألباء[1] .

قال عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير : «كنت امرءًا دميماً داهية ، فتزوجت امرأة حسناء رعناء ، ليكون أولادي في جمالها ودهائي ، فجاءوا في رعونتها ودمامتي» .

ترى ، إذا صح أن «برناردشو» حقيقة قد قال ما قال في هذا المعنى ، هل سبق له أن اطلع على قول عمارة بن عقيل ، أو على معنى مأخوذ منه ؟ إن هذا لا يستغرب من كاتب مبرز مثله ، لا بد أنه لم يصل إلى ما وصل إليه من فكر ناضج إلا بإدمان القراءة ، والاطلاع على تراث الحضارات السابقة ، وقد يكون شيء من تراثنا قد تسلل إلى الآداب الأخرى ، فاستقر هذا المعنى في ذهن «برناردشو» ، فأسعفه

(١) «١٣٦» «تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي» ، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

عنـد الحاجة ، أو لعل الفكر النيّر في ذهن الرجل المثقف سواء كان عربيـاً مثل عمارة بن عقيل ، أو ايـرلنـديـاً مثـل «برنـاردشو» ، يسير مع غيره من المفكرين على قضيب قطار ذهني واحد ، يلتقي في نهايته هذا المفكر أياً كان مع الآخرين ، الله وحده يعلم ، وما لنا إلا أن نتساءل ، ونحيل اعجابنا من «برناردشو» إلى عمارة[1] .

(١) راجع أيضاً نصاً مماثلاً عن أعرابي طويل قبيح خطب امرأة جميلة . تحفة العروس ١٦٦ .

ينسى كنيته[*]

رحمك الله يا جاحظ ، وغفر لك ، فكم تعزِّيني أنا وأمثـــالي ممن بدأت تتقـــدم بهم السّنّ ، وبــدأت ذاكـرتهم تبهت ، وأصبحوا كما يقول المثل العامي «ينسون عشاءهم البارحة» .

لقد قرأت ما رويته عن نفسك ، سواء أكان ذلك حدث فعلاً ، أو أنها مغالاة استطرفتها ، ولم تجدها بعيدة عن الواقع ، عندما بدأت ذاكرتك تتخلى عن نجدتك أحياناً ، خاصة عندما تكون في أشد الحاجة إليها .

إن كان النسيان قد زاد عندك ، فسوف أذكِّرك هنـا بما قلت عن نفسـك ، روى عنـك أبـو بكر العمري ، ونقلها عنه صاحب كتاب «نزهة الألباء» قال : [1]

(*) المجلة العربية ، ذو الحجة ١٤١١هـ .

(١) «١٤٩» «تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي» ، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

« إنـه سمعـك تقـول : نسيت كنيتي ثلاثة أيام فأتيت أهلي ، فقلت بِمَ أكنّى ؟ قالوا : بأبي عثمان » .

إننـا ننـافسـك في هذا ، اليـوم ، وهي منـافسة نتـائجها الحسنة ليست في صالحنا ، يمسك أحدنا بسماعة الهاتف ، ليتحدث مع صديق ، وبمجرد أن يرفع سماعة الجهاز ينسى لماذا رفعها ؟ ومن المقصود بالمهـاتفـة ؟! ، وقـد يذكـر أحيـانـاً ، ويذكر اسم الصديق ، ولكنه ينسى الهدف والقصد من المكالمة ، فيخـرج ويلجـأ إلى السؤال عن صحـة الصـديق وأهله ، ويترك للصديق أن يندهش فيما بعد ، لأن المحادثة الهاتفية عن الصحة لم تكن العادة التي يسير عليها الصديقان ، خاصة إذا كانا لم يفترقا إلا منذ ساعات .

لا تقل - رحمك الله - لماذا لم يخبره بالحقيقة ؟ وأنه نسي الهدف الذي من أجله هاتفه ، ولا تقس أمورنا في هذا الـزمن بأموركم ، ولا تصرفنا بتصرفكم ، فمكامن الضعف الإنساني تخيفنا ، نرتعب من فكرة

تقدم السن فنخفي علاماته، ونعتقد، مع شيء من الحق، أن هذا يرفع من معنوياتنا، نغالط الناس أولاً، ثم نغالط أنفسنا حتى نعتقد ما أخفينا حقيقته. وإن كان يذكرنا واقع الحال عند الحاجة مثلما حدث في المحادثة الهاتفية.

يا أبا عثمان، وأقول كنيتك هنا حتى لا تنسى، ليتك التفت إلى النسيان، وأموره، وما يوقع فيه من مواقف مؤلمة أو طريفة فكتبت فيه، وفيمن ينسى، كما كتبت فأحسنت في كتبك «البخلاء» و «البرصان والعرجان والعميان».

لو كنت مزامناً لك، ورأيت عزمك على هذا، لاقترحت عليك أن تسمي الكتابة في هذا الموضوع: «التطرين والمطرنون»، وأنت تعرف أن هذه الكلمة تعني الذين ينسون، ولكنت أضفت إلى معلومات جيلنا كلمة قديمة مهجورة «المطرنون» تستحق أن تعرف.

نم هنيئاً إن شاء الله، يرحمك الله ففيما كتبت من

الفـائدة ما يجعلك مذكوراً في أذهان الأدباء ، ولن ينسوك ، على الأقل ، لأنك خدمت اللغة وآدابها بما دونت ، ولأنك سلكت طريقاً في أسلوبك المبتكر جعل ما تكتب ممتعاً لا يمل .

المائدة الرئيسية(*)

نُعجب بقول بعض الغربيين، حكماء وسياسيين وكتاب وفلاسفة، سواء أكانوا في هذا القرن أو في قرن قبله. وننقل أقوالهم المدهشة، ونروّج لها، ونستفيد منها في أقوالنا وكتاباتنا ومناقشاتنا وجدلنا، ونجعل غيرنا من أجيالنا اللاحقة يعجبون بها، ويتبنّونها، ونأخذها، نحن وهُم، على أنها من نِتاج فكر الغربيين، وأنها نتيجة حضارتهم وثقافتهم وعلمهم، ولا يخطر ببالنا أن غيرهم من قومنا قد سبقهم إليها، وأن هؤلاء الغربيين قد يكونون اطّلعوا على ما نطق به قومنا من قبل، أو أن قدم الفكر وطئت على مواطىء قدم الأوّلين دون قصد، وساروا معهم على جادة فكر واحدة دون أن يتعمدوا ذلك.

كنّا نسمع عن بسمارك، السياسي رئيس وزراء

(*) المجلة العربية، محرم ١٤١٢هـ.

ألمانيا المشهور، ودهائه، وتميّزه في حقل السياسة في زمنه، وماكسبه لبلاده، وماكان يبديه من آراء، ويقوله من عبارات، تدل على عقلية غير عادية، تتسم بالفطنة والذكاء، وسرعة البديهة، وحسن التصرف. مما يروى عنه أن ملكاً كان بسمارك من بين مدعويه، في حفلة رسمية، قصد أن يُهين بسمارك، فرتّب جلوس المدعوين بطريقة لا تسمح بأن يكون لبسمارك مكان على المائدة الرئيسية. وزيادة في الإهانة، وإمعاناً في السخرية، قال الملك لبسمارك إنه يعتذر عن عدم إمكان وضعه على المائدة الرئيسية. فردّ بسمارك بقوله: إن المائدة الرئيسية هي حيث يجلس بسمارك.

يفاجأ المرء أن يجد أن هذا القول سُبق إليه بسمارك، فقد قاله أحد العرب قبل بسمارك بقرون طويلة، وقاله شعراً: فوهب الهمداني - كما يروي الراغب الأصبهاني في «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء»[1] يقول مادحاً:

(١) ص ٦٦، طبعة دار الآثار، اختصار إبراهيم زيدان.

صـدر المجالس حـيث كا
ن لأنّه صـدر المجالس[1]

جمال القـول الـذي قاله وهب أنه جاء سابقاً، وسـابقـاً بقرون، وأنه جاء شعراً. تُرى لو تتبعنا ما يدهشنـا أحيـاناً من أقوال أصحاب الحضارات الحديثة هل نجد أن بضاعتنا ردّت إلينا؟

والاختلاف هو أن البضاعة ثوب لنا قديم نسيناه في خزانـة ملابس الـزمن، وأخـذه غيرنـا فصقله وعرضه من جديد، أو تراه حاكه دون أن يعرف عما سبق أن فصّلناه ولبسناه فترة من الزمن، ثم طويناه ونسيناه.

(١) لما وُلّي الحجاج بن أرطأة القضاء جاء وعليه سواد إلى حلقة البتي، فقيل له: «ارتفع أيها القاضي إلى الصدر فقال أنا صدر حيث كنت». وكيع ٢/٥

خلف النقد(*)

كنت أعجب من إقبال الناس على قراءة قصائد الهجاء، وشغفهم بمتابعة التهاجي، وحرصهم على ألا يفوتهم شيء من النقد، وحدبهم ودقّتهم في متابعة الملاسنات في الصحف والمجلات وفي الكتب، حتى لا يكاد يفوتهم من ذلك شيء، ولو فاتهم لحاولوا تداركه بالبحث والتنقيب عما فاتهم. ويتحزب الناس أحزاباً في مجالسهم، يناقشون ما قرؤا، فيجانب أحدهم مع طرف من طرفي النزاع، ويحادّ آخر مع طرف آخر، وقد تنقل المعركة من الصحف إلى المجالس، أو من المجالس إلى الصحف، وتحرص الصحف على إلحام المعارك ابتداءً، أو تنتهز بارقة سخط في إحدى المقالات تتخذها شرارة ترمي فوقها من الحطب الجزل الجاف ما يجعلها سعيراً متقداً، والصحف بعد هذا هي الرابحة إلى حين.

(*) المجلة العربية، صفر ١٤١٢هـ.

كان هذا يمر بذهني مثل كثير من القراء، وأعلّله تعليلاً له جوانب متعددة، تبعد وتقترب، تنأى وتدنو، وتأخذ أحياناً اتجاهات مختلفة في تلمس الأسباب. ولم أكن متأكداً من رجحان أحد تعليلاتي، وقد تكون كلها مجتمعة تمثل السبب الحقيقي. وقد لفت نظري جملة قرأتها في كتاب «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» للراغب الأصبهاني.[1] تقول:

«قيل: إذا مدحتم فاقصروا، وإذا هجوتم فأطيلوا، فالشر لا يمل».

فعرفت أن هناك من كان الأمر يشغل باله مثلي، تجاه حب بعض الناس للشر، وقد وجد صاحب هذا القول مرتكزاً يقف عنده، واستراحة يلجأ إليها ليريح ذهناً مشغولاً، وفكراً كدّه تقليب هذا الأمر.

أما بعد، فما دام للشر جاذبية، فلنحذر هذه الجاذبية، ما دام قد حذرنا من خبر الأمر من أحد أجدادنا الذين عركوا الحياة، وعرفوا خباياها.

(١) ص ٤٤، اختصار إبراهيم زيدان، طبعة دار الآثار.

تراث وإرث نعتز به(*)

رجل مثل الملك عبدالعزيز من الصعب أن يحاط بجوانب عبقريته، أما أن يختار جانب فينظر فيه، ويلقى عليه الضوء، فهذا ممكن. فالملك عبدالعزيز - رحمه الله - خرق كل القواعد التي اعتاد المؤرخون أن يضعوها أسساً يبنون أحكامهم عليها. فهو ليس خريج كلية عسكرية، ليقال إن إنجازاته في الميدان العسكري نتيجة علم عميق درسه، وتابع ما قيل فيه، وطبّقه خير تطبيق. وليس خريج كلية سياسية أحاطته بما تفتق عنه ذهن الساسة من مقدرة وحيل، ومناورات ومحاورات. وليس خريج كلية من الكليات التي تعلم علم الاجتماع، فيقال إن ما حققه من أعمال باهرة، وتطور ملموس، على قلة الإمكانات، وشدة الظروف، كان حصيلة ما درسه فيها، وما اطلع عليه خلال دراسته فيها من نتائج التجارب، وثمرة

(*) المجلة العربية، ربيع الأول ١٤١٢هـ.

المتابعة . الرجل لم يدرس في كلية حربية ، ولم يدخل كليــة سيــاسيــة ، ولم يتخـرج من معهـد لعلوم الاجتماع ، بل إنه لم يتعد حدود بلاده إلا خطوات إلى بلدان لا يختلف ما فيها عما في بلاده ، فمن أين له - يا ترى - هذا النجاح ؟

الاستعـداد الفـطري ، بتـوفيق الله ، كان وراء ذلــك ، كان يرتكــز عليــه في مراقبـة الأمـور ، ومـلاحـظتهـا والتـدبـر في مظاهـرهـا ومضـامينها واستيعاب ما توحي به إليه ، من صدق في حقائقها أو زيـف ، لا يشوب ذلك عاطفة عمياء ، ولا هوى مدمّر ، بل تجرد مدهش ، ووزن للأمور عميق ، بذهن صاف وعقــل واع . كان يخزن في ضمـيره ما نفعه عندما حزبه الأمر ، وقابل مواقف تحتاج إلى البت السريع أو المتأني ، فكان هذا المخزون طريقه إلى المــواقف الصــائبـة السليمـة ، نتيجـة حسن القياس ، واستعمال المخزون .

وكـان استعـداده الفـطري ، وطبعـه السليم ،

وحسن قصده، وسلامة نيته، تجعله يحسن مقارنة الأشباه في الحوادث، ويتقن قياس النظائر، فيما يجري حوله، أو ما يقابله من أمور تحتاج إلى المعالجة والمقابلة.

وكان استعداده الفطري، وطبعه السليم، يبعدانه عن الجمود، والوقوف عند طريقة واحدة، يعالج بها كل أمر يقابله، وكل قضية يبت فيها. لأن لكل حادث عنده حديثاً، ولكل واقعة ما يناسبها من التصرف، حتى أذهل معاصريه، وأدهش المتصلين به، فلا يتنبؤون بما سوف يفعله في أمر قابله، وقد يشككون في صواب أمر اتخذه وقرر فيه، في أول الأمر، ولكنهم لا يفتؤون أن يدركوا صحة قراره، ويتأكدوا من صواب رأيه، ويروا نجاح عمله، ويدركوا أنهم كانوا في واد من الخطأ، وهو في واد فسيح من الصواب، وأن الأسس التي بنى عليها تصرفه، لا تخطر إلا على بال عبقري مثله.

وكـان استعـداده الفـطري ، وطبعه السليم مما يجعله يقظاً ، حذراً ، خاصة إبان تكوين المملكة ، وبناء الكيان ، فلم يكن يتراخى أو يغفل ، أو يتكل على أحد ، كان اهتمامه بالأمر الصغير يتساوى في الجهـد والالتفـات مع الأمـر الجلل ، همته قعساء واحدة ، صبغتها طبيعته ، ولونها ما اعتاد عليه .

وهذا الباب - في المجلة العربية - عن التراث وإطلالته على جيلنا ، والملك عبدالعزيز وأعماله لها صلة بالتراث الذي نعتز به ، ونسير في هديه ، فعمله - رحمه الله - في حدود نصوص الدين ، وهو تراثنا المجيـد ، وفخرنا الثابت التليد ، فلم يخرج الملك عبدالعزيز عما رسم القرآن ، وهدت إليه السنة .

وبجـانب هذا كانت أعماله تتطابق مع ما سار عليه الحكام الناجحون ، وما قاله الحكماء العارفون وحثوا عليه في ازدهار الحكم والملك ، فكان ما يفعله يتـماشى مع ما نصحـوا به ، ويتـطابق مع ما قالـوا بنجاحه ، فالحكماء قالوا : إمام عادل خير من مطر

وابل ، وكان رحمه الله عادلا ، يضرب بعدله المثل ، في وقت ندر فيه من يحكم بالعدل ، والعدل أساس الملك . وجـاء حكمه العادل بعد فترة ذاق الناس فيها الويل والعنت من حكام متفرقين ، وسبل غير آمنة ، وفتن متتالية ، وأطماع لا تنتهي ، وحروب لا تني ، فكان عهده مطراً بعد جدب ، وخصبا بعد جفاف .

وقـالت الحكـماء : مما يجب على السلطان أن يلتـزمـه : العـدل في ظاهـر أفعـالـه ، لإقامة أمر سـلطانه ، وفي باطـن ضميرهِ لإقـامة دينه . وكان الملك عبد العزيز عادلا في ظاهره وباطنه ، ولم يكن - وهـو الشجـاع - مايظهـره غير مايبـطنـه ، والشجـاعـة في هذا الميـدان أشرف منها في ميدان القتال . فلِمَ يخفي غير مايظهر ، وهو الواثق من تصرفه ؟ .

وقال أردشير لابنه :

يابني إن الملك والعدل أخوان لا غنى بأحدهما

عن الآخر ، فالملك أسٌّ ، والعدل حارس ، والبناء مالم يكن له أسٌّ فمهدوم ، والملك مالم يكن له حارس فضائع . يابني اجعل حديثك مع أهل المراتب ، وعطيتك لأهل الجهاد ، وبشرك لأهل الدين ، وسرّك لمن عناه ماعناك من ذوي العقول .

وكأن أردشير يأخذ أقواله من أفعال الملك عبدالعزيز ، فهو ملتزم للعدل ، وله مستشارون على مستوى مشرف ، ويقدر المجاهد في أي حقل ، ويعلي مكان حملة الشرع ، وليس سره مباحاً لكل أحد .

وعبقرية الملك عبدالعزيز ليست فقط في أنه وضع أسساً للمُلْك الناجح ، والحكم الراسخ الأساس ، ولكنه أوجد مدرسة تخرج منها أبناؤه الذين حكموا مثل حكمه ، وساروا على طريقته ، وتفاعلوا مع مستجد الأحداث بالمَلَكَة التي أكسبهم إياها . أدام الله عليهم وعلينا نعمه ، ووفقهم في خطوهم إلى النفع العميم .

ما تطاول إلا لوهن(*)

العقد النفسية تحتل دراستها اليوم كتباً ضخمة، وتتصدر البحوث عنها عناوين كبيرة في الصحف والمجلات، ويعرض العلماء لحلها نظريات، وتخصص لها المستشفيات أطباء وعيادات. وبعض المفكرين يجعلها تدخل في كل أمر يدخله الخلل، وتكوّن جذراً لكل عيب، وهي أسٌّ لكل علة أو نقص، وهي سبب لكل انحراف. هي خطيرة لأن معرفة كنهها تصعب إلا على من أوتي حكمة معرفتها، وقدرة على الكشف عما تعمّق منها وخفي. والأطباء تجاه العقدة الواحدة يختلفون في أصلها ومنشئها وأسبابها، ويتفاوتون في علاجها ودوائها. والجانب المادي في العلاج يكاد لا يذكر عند المعالجة النفسية.

ويعتبر بعض علماء هذا الداء أن أشد العقد

(*) المجلة العربية، ربيع الآخر ١٤١٢هـ.

النفسيـة هو شعـور المـرء بنقص يحاول أن يعالجه بإظهار خلافه، فيظهر افتعالاً من الكمال ما يحاول أن يملأ به الوعاء الناقص، ويوهم الناس أن عنده ما هو في الحقيقـة يفتقـده، وقد يفقد المرء المعقد بسبب هذا كثيراً مما هو ضروري له، وأساس لحياته وراحته، ولكن ضغط هذه العقدة لا يجعله يفكر، أو يفتح لذهنه منفذاً للتدبر، بل يفقد إرادة المقاومة وسلوك الطريق الأصوب.

إن محاولة اكتشاف العقد النفسية لم يكن جديداً على حضـارة العـرب، وكـان يتناسب مع مرحلة التقـدم الذي وصلوا إليه. كانت مظاهر إدراكهم لذلك تظهر في جمل من الحكمة ينطقون بها، تدل على فكر عميق في هذا الأمر، وعلى أنه قد همهم في يوم من الأيام ماهمنا، وشغلهم ماشغلنا، فبحثوا فعرفوا كنهه، فنبهوا إليه، علّ في هذا علاجاً يأتي من هذا.

يقول الخليفة المأمون: «ماتكبّر أحد إلا لنقص

وجده في نفسه، ولا تطاول إلا لوهن أحس من نفسه» .

قول صادق مارواه هنا عن المأمون صاحب محاضرات الأدباء[1]، فالمأمون يفسر مايكمن من أسباب النقص خلف رذيلة الكبر، وتصعير الخد، ويغوص على مايكمن تحت نقيصة التطاول . وقس على هذا غير هذا مما يظهر عند الناس من نقائص .

ومن كثرة النصوص التي نجدها في كتب التراث نجد أن هذه النقيصة معروفة جيداً لدى كثيرين من أجدادنا في مسارات الحياة المختلفة، وقد حاولوا أن ينبهوا إليها في كل حالة من الحالات التي وجدوا أن ذلك يفيد فيها فهذا مثلا صاحب كتاب «تأديب الناشئين»[2] يقول :

«قالوا ليس الفقه بالتفقه، ولا الفصاحة بالتفصح، لأنه لا يزيد متزيد في كلامه إلا لنقص يجده في نفسه» .

---

(١) ص ١٠٩ .

(٢) ص ١٧٩ .

فهـو هنـا ينبـه إلى العقدة تشد في حقلي الفقه والحديث الشفوي ، والتزيد إكمال لنقص .

والأحنف ينبـه إلى أن الكِـبْر يدخـل في العقد النفسية ، فيقول :

«ماتكـبر أحد إلا من ذِلة يجدها في نفسه ، ولم تزل الحكماء تتحامى الكبر»[1] .

وقبل الأحنف تخطت قدما عمر بن الخطاب هذه الجادة ، وقال في الكبر مايبدو أنه أمر مسلم به في مجتمعهم . قال صاحب البيان والتبين :[2]

قال عمـــر بن الخـــطارب - رضي الله عنـه - «ماوجد أحد في نفسه كبراً إلا من مهانة يجدها في نفسه» .

ومعاوية تطرق إلى هذه الحكمة ، وكشفها لهذه النقيصة ، فاستفاد منها في تأنيبه محمد بن الأشعث عنـدما تقدم على الأحنف ، في المجلس ، رغم أن

(١) سراج الملوك ١٨٠ .

(٢) ص ٤/٧٥ .

معاوية قد أذن للأحنف قبله ، إلا أنه أسرع الخطا حتى يحتل مكانا يتقدم به الأحنف .

«ما رأيت أحداً يرفعِ نفسه فوق قدرها إلا من ذلة ، يجدها ، وقد فعلتَ فعل من أحس من نفسه ذلة وضعة» . [1]

---

(١) البيان والتبيين : ٤/ ٧١ .

المخبر عن ضوء النهار(*)

يُسدَى إليك معروف ، بأن تفرج عنك كربة ، أو يوسّع ضيق ، أو يزاح حمل ، أو يخفّف ثقل ، أو يُتسبب لك بمكسب ، أو تقدم فائدة ، ويكون ذلك بطريقة وافية ضافية ، نبيلة كريمة ، فتشعر معها بأن كلمات الشكر التي تعرفها ، والتي حوتها القواميس ، لا تفي بحق المسدي ، ولا تردّ بعض ما قدمته لك يده ، ولا تساوي في الميزان في نظرك مِنّته فيما أعطى ، ولا جميلهُ فيما دفع عنك . وتجد في نهاية الأمر أن عجزك هو أوفى تعبير رغم أنه صمت ، وتقول كما يقول العامة : «أنا عاجز عن الشكر» أو «عاجز عن التعبير» . ولكن هناك من أجدادك أصحاب البلاغة ، وأهل الفصاحة ، في زمن مضى ، من لم يعجز عن التعبير في موقف من هذه المواقف . لقد عبر بكلمات ، لعلك تجد معي أنها أوفت الأمر حقه ، فسبحان من يهب الفصاحة والحكمة ،

(*) المجلة العربية ، جمادي الأولي ١٤١٢هـ .

وسبحان من ينطق اللسان بناصع البيان .

كتب رجل إلى أبي عبد الله بن يحيى يقول :

« رأيتني فيما أتعاطاه من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر ، والقمر المضيء الزاهر ، الذي لا يخفى على ناظر ، وأيقنت أني حيث أنتهي من القول منسوب إلى العجز ، مقصر عن الغاية ، فانصرفت عن إثنائي عليك إلى الدعاء لك ، ووكلت الإخبار عنك إلى علم الناس بك »[1] .

أرأيت كيف ترك مدحه عند شعوره بالعجز ليدعو له ، وليطلب ممن لا يعجزه شيء - سبحانه وتعالى - إلى التكفل - وهو الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء - بمجازاته مكافأة وثواباً . ثُم أرأيت كيف كال له المدح في آخر جملة ؟ فلم يثن عليه عند الناس لأنه لن يأتي للناس بجديد ، فهم يعرفونه .

---

(١) هذا الخبر أتحفنا به البيهقي في المحاسن والمساوئ (٤٤٨) طبع دار صادر ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م .

عمر .. وشروط الوظيفة(*)

تضع دواوين الخدمة المدنية في عصرنا الحديث شروطاً توجب أن تتوافر في الشخص الذي يتقدم ليشغل وظيفة ما، وأساس هذه الشروط الشهادة، وهي أول صمام أمان للكفاءة في نظر هذه الدواوين لهذا التوظيف، ثم تأتي معها الخبرة إن كان عند الشخص خبرة سابقة، ثم يُتوّج هذا ويُختم بالمقابلة الشخصية، وقد ينجح الموظف في العمل، وقد يخفق، وقد يغوص وقد يطفو، وقد يُرضي أو يُخَيّب الأمل، وقد يحقق ما ادعته شهادته ويصدّقه، وقد يجانب ويجافي ذلك، لأن من ينجح في الدراسة قد لا ينجح في العمل، وما يسر في المقابلة - وهي تشبه فترة خطبة النكاح، يظهر في أثنائها الشاب والشابة بأجمل الصفات، وقد تبقى هذه الصفات، وقد يثبت بعد الزواج أنها كانت ثياباً عارية، تتبين حقيقتها سريعاً - ربما لا يسر فيما بعد.

(*) المجلة العربية، جمادي الآخرة ١٤١٢هـ.

أما عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فكانت له شروط في الوظيفة المهمة - التي أراد أن يعيّن فيها من يشفي ويكفي - تختلف عن شروط زمننا . إليك مايوضح الأمر :

قال عمـر بن الخـطاب، رضي الله عنـه ، لأصحابه : «دلّوني على رجل استعمله على أمر قد أهمني ! قالـوا : فلان . قال : لا حاجـة لنـا فيه . قالوا : فمن تريد ؟ قال أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم . قالوا : ما نعرف هذه الصفة إلا في الربيع بن زياد الحارثي . قال : صدقتم . فولّاه» .

يروي هذه القصـة البيهقي صاحب المحـاسن والمساوئ.[1] وليس فيها طلب عمر معرفة بالقراءة ولا الكتابة - فقط - ولكن كمال الرجولة ، وحسن التصرف ، وقوة الشخصية ، والحيوية . لقد اختصر

(١) ص ٢٧١ ، دار صادر، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م .

القول ، ولكن قوله جمع الحكمة وفصل الخطاب ، وبيّن الطريق إلى النجاح . رضي الله عن عمر ، وعن الذين عرفوا قصده ، ودلّوه على مطلوبه .

ديوان العرب(*)

تمر بنا أحياناً عبارات لا نُولي مدلولها ما يستحقه من تفكير عميق، وتدبر متأنٍ، ولا نغوص إلى عمق معناها، ونكتفي بأقل فهم لظاهر العبارة، وأقرب إدراك لمعناها وإن كان ضحلاً. نسمع في مراحلنا الدراسية أن الشعر ديوان العرب، فلا يأتي في ذهننا إلّا أن ما وصل إلينا من الشعر هو سجل لعادات العرب وتقاليدهم، وما كان بينهم من أمور تعارفوا عليها، ورضوها نظماً وقوانين لهم، وأنه ينطوي على أخبار ما قام بينهم من تطاحن وثأر تطول سلسلة عراكه أو تقصر، تفنى معه قبائل أو عشائر أو أفخاذ.

نجد فيما بعد أن كثيراً من العلماء في شتى المذاهب الإسلامية - تقديراً لمقدرة الشعر على حفظ النصوص، وسهولة استظهار الناس له - نظموا

(*) المجلة العربية، رجب ١٤١٢هـ.

أحكام الفقه، وأصول العقيدة، وأمور الفرائض، وقواعد النحو، ووصلوا إلى هدفهم في سهولة حفظ هذه الأحكام والقواعد من قِبَل الناشىء والشادي والمتبحر، وقد نجحوا في هذا وتفننوا فأحسنوا، ووصلوا إلى هدفهم ببراعة وإتقان، وتعددت طرقهم في هذا - جزاهم الله خيرا، وأجزل لهم الجزاء - وقد أصبح ما عملوا ديوانا وسجلاً محفوظاً لما أرادوا أن يحفظوه ويحموه.

ولقد جرّني إلى التفكير في عمق أهمية الشعر في تدوين أفكار العرب، وعاداتهم وتقاليدهم وحكمهم وأمثالهم ورصين أقوالهم ما قرأته يوماً في كتاب (المحاسن والمساوئ) للبيهقي:[1]

زعموا أن «حرقة بنت النعمان بن المنذر» قالت لزياد - وقد أنعم عليها -: «أطعمتك يد شبعى جاعت، ولا أطعمتك يد جوعى ثم شبعت، فسر زياد بكلامها. وقال لشاعر: قيّد هذا الكلام لا

(١) دار صادر، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

يدرس . قال :

سل الخير أهل الخير قِدماً ولا تسل
فتى ذاق طعم الخير منذ قريب

حقاً سجل الشعر هذا الفكر النيّر العميق في سجل ديوان العرب ، وهذا يؤكد أن من أهم أغراض الشعر المعترف بها الحفاظ على القول الثمين ، والخبر المهم في الماضي حتى وقت متأخر عندما أصبح هناك دفاتر وأقلام وكتب .

الحاسة الزائدة(*)

يعدّ بعض الناس الحواس فيقول إنها خمس، ولا يتعدى هذا العدد، ويذهب آخرون إلى أن هناك حاسة سادسة يحمّلونها كل ما لا يندرج في الحواس الخمس، ويجادل آخرون بأن الحواس أكثر من ست، ويبرهنون على قولهم بلمحات روحية تومض في حياة الفرد فتنير له طريقاً لم تستطع الحواس المعروفة أن تجدي فيه نفعاً، ويعوّل أصحاب هذا الرأي على هذه الحواس الإضافية، لأن لها صلة بالنفس والروح، وهما الأمران اللذان لم يحدد كنههما.

في حياة كل فرد أمور غريبة لا يستطيع لها تفسيراً، منها ما يجعل المرء - دون سبب - يقبل على أمر قد يري غيره وجوب الابتعاد عنه، وقد يكون الأمر خلاف ذلك فينفر المرء من أمر دون داع ظاهر

(*) المجلة العربية، شعبان ١٤١٢هـ.

لذلك . وتبيّن الأيام أن هذا الإقبال كان في محله ، وهـذا النفور كان مصيباً ، ولا تفسير إلا أن هناك حاسة مختبئة منزوية غير معروفة ، وضعها الله لتقوم بدورها على الوجه الأكمل ، ولم يُرَ إلا نتيجة فعلها ، وهي نتيجة مدهشة المظهر ، محيرة السبب .

يغيب عنك شخص سنوات ، ولا يخطر ببالك ، ثم فجأة تتذكره ، وتتساءل أين هو؟ وماذا فعل الله به؟ فتراه في ذلك اليوم ، أو في اليوم الذي بعده ، هذا إذا لم يدخـل عليـك قبل أن يتلاشى تفكيرك المفاجىء فيه .

تغيب عنـك معـاملة سنـوات ، ثم تتـذكرها ، وتتســاءل ماذا تم فيهـا؟ وهل انتهت؟ أو لا تزال دائرة بين الدوائر طوال هذه السنين؟ ثم تفتح في الصباح في مكتبك أول إضبارة فتجدها أول ورقة فيهـا ، فتدهش ولا تعرف سبباً لطروئها على بالك الليلة البارحة .

صديق شعرت بأنك في حاجة أن تسأل عنه لأنه

يبرز في مخيلتـك ويغيب بطريقة لا تريحك فيجبرك هذا على أن تتصل به ، أو تسأل عنه ، فتجده مريضاً يحتاج إلى رعايتك .

أمٌّ تبتعـد عن رضيعها ، ثم فجأة تشعر بأنه في حاجة إليها لأن ثديها درّ ، فتسرع فتجده يصرخ ، ويرجف بقدميه الغضتين ماحوله من فراش وأغطية .

وأمّ يخرج ابنها منها مثلما يفعل كل يوم ، إلا إنها في هذا اليوم تشعر بكآبة لخروجه ، ولا تستطيع أن تصرف ذهنها عن التفكير فيه ، فيأتيها بعد قليل خبر يزعجها عنه ، والحقيقة واضحة ، وسببها غير معروف .

تريد أن تحدث زميلك في أمر شغلك في اليومين الماضيين ، فتجد أنه مثلك كان يدير الفكر في ذلك الموضوع نفسه منذ يومين ، وكان ينوي أن يفاتحك به ، فتجد أن تفاصيله عنده تتطابق مع ما في ذهنك عن الموضوع من تفاصيل .

يحيى بن خالد لا بد أنه فكر فيها نفكر فيه، فأصدر حكماً في هذا يليق بأديب حكيم مجرب مثله: «إذا كرهتم الرجل من غير سوء أتاه إليكم فاحذروه، وإذا أحببتم الرجل من غير خير سبق منه إليكم فارجوه».

هذا ما رواه الراغب الاصبهاني عنه في كتابه «محاضرات الأدباء». [1]

---

(١) ص ٢٥٧، اختصار إبراهيم زيدان، دار الآثار - بيروت.

الثقة بالنفس(*)

قليل من الناس يجرؤ أن يحدث الناس عن نقائصه وعيوبه أو المواقف الضعيفة التي وقفها، أو يقص مايَصِمه بالغفلة وبطء الإدراك والفهم، أو يكشف عن نقص في الذكاء عنده، أو قصوره عن إدراك ماتدل عليه الظواهر، فالضعف البشري يوجب نفور صاحبه منه، ومحاولة إخفائه والتعمية عليه، ومحاولة إظهار قوة ليست فيه، لعلها تغطي على الضعف الأصلي، وتخفي مايتصف به من قصور. فالمرء من هذه الفئة إن خسر معركة حقيقية ادعى انتصاراً فيها، ودلّس الحقائق ليعضد ما ادعاه، وإن كانت المعركة معركة جدل وملاسنة ونقاش أضاف فيما بعد - عند رواية ماحدث - أنه قال وقال محبّراً قولاً لم يقله، وشارحاً رأياً لم يبده وقت الجدل.

(*) المجلة العربية، رمضان ١٤١٢هـ.

وإذا وجُد من الناس من يقول الحقيقة دون أن يضيف إليها لباساً غير ما كانت تلبسه فهذا من العزم والإرادة ومقاومة ضعف النفس، واجتناب تدني الثقة فيها، مما يميزه عن كثير من الناس. ومظهر القوة هذا هو بلا شك شجاعة تعدّ في مقدمة أنواع الشجاعة، لأن مقاومة تغلب النفس أشد من مقاومة الحسام المهند، ويبدو أن الشعبي من هذه الفئة الشجاعة المتميزة، فقد أقرّ بعد جلسة في مجلس الخليفة بأربع هفوات في قصة متتابعة الأجزاء كان موقفه فيها ضعيفاً لا يليق بعالم في درجته من العلم والثقافة، فهو أمام المواقف التي وقفها لم يعتبر مما ظهر من نقصه أمام الخليفة وفي مجلسه، ولم يرعو أو يأخذ درسا منذ الهفوة الأولى، وإنما استمر يكرر الخطأ بعد الخطأ، ويظهر من عدم النباهة ما لا يليق به.

روى صاحب مجالس العلماء[1] أن الشعبي قال:

---

(١) ص ٢٠٨.

«دخلت على عبد الملك بن مروان، فصادفته في سِرار مع بعض من يقــرب منــه، فوقفت ساعـة لا يرفع إليّ طرفه، فقلت: يا أمير المؤمنين، عامر الشعبي، فقال: لم نأذن لك حتى عرفنا اسمك. فقلت: نَقْدة والله من أمير المؤمنين.

فلما فرغ مما كان فيه، وأقبل على الناس، رأيت في المجلس رجلاً ذا رواءٍ وهيئة لم أعرفه، فقلت من هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: الخلفاء تَسأَل ولا تُسأل، هذا الأخطل الشاعر. قلت في نفسي: هذه أخرى.

قال: وخضنــا في الحـديث، فمـر له شيء لم أعـرفـه، فقلت: أكتبنيه يا أمير المؤمنين، فقال: الخلفاء تَستَكْتِب ولا تُستَكْتَب، فقلت: هذه ثالثة.

وذهبت لاقـوم، فأشـار إلي بالقعود، فقعدت حتى خفّ من كان عنده، ثم دعا بالطعام، فقُدّمت إليه المائدة، فرأيت عليها صحْفَة فيها مخ - وكذا كانت عادتـه أن يقـدم إليـه المخ قبل كل شيء -

فقلت : هذا يا أمير المؤمنين كما قال الله ، جل وعز : ﴿ وجِفانٍ كالجواب وقدور راسيات ﴾[1] . فقال : يا شعبي ، مازحتَ من لم يمازحك . فقلت : هذه والله رابعة .

فلما فرغ من الطعام ، وقعد في مجلسه ، واندفعنا في الحديث ، وذهبت لأتكلم ، فما ابتدأت بشيء من الحديث إلا استلبه مني فحدث الناس به ، وربما زاد فيه على ماعندي ، ولا أنشدته شعراً إلا فعل مثل ذلك ، فغمني ذلك ، وانكسر بالي له ، فمازلنا على ذلك بقية نهارنا . فلما كان آخر وقتنا التفت إليّ ، فقال : يا شعبي ، قد والله تبيّنت الكراهة في وجهك لما فعلتُ ، وتدري أي شيء حملني على ذلك ؟ قلت : لا يا أمير المؤمنين . قال : لئلا تقول : لئن فازوا بالملك أولاً لقد فزنا نحن بالعلم ، فأردت أن أعرّفك أنّا فزنا بالملك ، وشاركناك فيما أنت فيه ، ثم أمر لي بمال ، فقمت من عنده ، وقد زللت أربع زلات» .

---

(١) القرآن الكريم ، سورة سبأ ١٣ .

قولا له قولا لينا(*)

هارون الرشيد ملء سمع التاريخ وبصره، حظى بتدوين أخباره، فهي تملأ مجلدات ومجلدات، ومن أحاديثها المنير والمظلم، والصادق والكاذب، والحق والافتراء. منها المنقول المقبول، ومنها المدسوس المرفوض. تصدت له الشعوبية فحمّلت تاريخه ما لا يتحمل، وملأته بما يرفضه العقل والذوق عند إعمال أبسط قوانينهما، وحاول مقدّروه أن يعدلوا الكفة بكيل المدح له، وبذلوا جهدهم في تدوين ما ينير صورته التي سوّد أديمها أعداء العرب وأعداؤه، وأكسف قمر ليلها الحاقدون والناقمون والمنافسون. وتحمس للدفاع عنه محبوه أمام هذا، فجاءوا بما قد يقصر عن قبوله العقل أو المنطق، مثل ادعاء بعضهم بقيامه ببعض مظاهر الطاعة من الالتزام بأداء مئة تسليمة كل ليلة قبل النوم طوال حياته، مما لا يتوقع إمكان الوفاء به

(*) المجلة العربية، شوال ١٤١٢هـ. (سورة طه / ٤٤).

في ظل أعمال الدولة المتشعبة، والمملكة المترامية الأطراف.

وجاء من المتأخرين من تصدى للحقيقة فبحث عنها، وجرى خلفها، ومحّص المعلومات من أجل الوصول إليها، وقام بالبحث والاستقصاء في تاريخ هذه الفترة ليجلو وجهها، فتبينت أمور كانت خافية، وصفت أمور كانت معكرة، فلعب ما ظهر دوراً في تغيير صورة الخليفة المشوهة إلى ما أنار جوانبها، وأزال الغشاوة عنها.

هذا الخليفة يشدك كل خبر كتب عنه في كتب التراث، سواء كان ما فيه له أو عليه، ولا تكاد تتخطى الخبر دون أن تُجري عليه من الاختبار ما يقوم على القواعد والأسس التي تكوّنت عندك مما قرأت وتابعت، فتقبله أو ترفضه، أو تقف منه موقف الحذر.

لنقف معاً قليلا لتفحّص أحد هذه الأخبار التي أوردها الراغب الأصبهاني في كتابه: محاضرات

الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء[1] :

«تصدى رجل للرشيد، فقال : إني أريد أن أغلظ عليك في المقال، فهل أنت محتمل؟ قال : لا، لأن الله تعالى أرسل من هو خير منك إلى من كان أشرَّ مني، فقال : ﴿فقولا له قولا ليّناً لعله يتذكر أو يخشى﴾[2]» .

إن خليفة يفكر بمثل هذه الطريقة، ويستشهد بداهة بهذه الآية الكريمة، لحريّ أن يُظن فيه الخير، والبعد عن الرذائل التي يُرمى بها، لأن النور إذا حل في قلب قضى على ما قد يكون فيه من ظلمة أو عتمة، والخير إذا دخل قلباً طرد منه الشرَّ، والعِفّة إذا تغلغلت في الفؤاد لم تُبق للفسق والفجور موضع قدم، أُتي للمأمون برجل متهم بالزندقة، ومُدّ النطع لقتلَه، فصادف أن المأمون عطس، فشمّته الحاضرون إلا هذا المتهم، فوبخه الخليفة على عدم تشميته إياه، مثلما فعل الحاضرون، فقال

---

(١) ص ٥٩، اختصار إبراهيم زيدان، طبعة دار الآثار.
(٢) القرآن الكريم، طه ٤٤.

المتهم : أنا تمسكت بالسنة وهم خالفوها ، فقال الخليفة : وكيف؟ فقال الرجل : السنة أن يُشمَّت العاطس بعد أن يحمد الله ، وهم شمّتوك بمجرد أن عطست ، قبل أن تحمد الله . فالتفت الخليفة إلى الموكلين بالرجل ، وقال : فكوا قيده ، ثم قال له : اذهب حراً طليقاً فوالله لا يجتمع في القلب فقه وإلحاد .

وأحسب أن قول المأمون بن هارون الرشيد ينطبق على أبيه رحمهما الله ورحمنا .

والشيء بالشيء يذكر ما دمنا في حديث جرنا إلى ذكر العفو في آخر لحظة قبل الإعدام ، فهناك شخص أنقذه الله في آخر لحظة بسبب ما بدا منه من حب الخير للناس أيا كانوا ، ولو كانوا أرادوا له الأذى ، تمسكاً بتعاليم الدين ، حتى في المواقف الحرجة ، ولكنها قوة الإيمان .

يروي صاحب محاضرات الأدباء[1] أن رجلاً من

---

(١) ص ٢٨٩ .

الخارجين على عبد الملك قُدّم أمامه ليقتل جزاء شقه عصا الطاعة ، فدخل على عبد الملك ولد له صغير ، وهو يبكي ، لضرب معلمه له ، فقال المقدَّم للقتل : دعوه يبكي فهو أفتح لحزمه ، وأنفع لبصره . فقال له عبد الملك : ما شغلك ما أنت فيه عن هذا ؟ فقال الرجل : ينبغي للمرء ألا يشغله عن الخير شيء . فعفا عبد الملك عنه لروض الخير المزهر في قلبه .

نتيجة الاختبار(*)

لا يكاد شخص عاش في هذه الدنيا يجهل ما يقدم عليه بعض الناس من التظاهر بغير الحقيقة ، فليس هناك مجتمع يخلو من أمثال هؤلاء : هذا يثني وهو في الغيبة يذم ، وهذا يتقرب وهو في الحقيقة يبتعد ، وهذا يمدح في الوجه ، وهو في الخلف يقدح ، وهذا يظهر الصداقة وهو في الواقع عدو لدود .

والناس تجاه المتظاهر يختلفون : منهم من لا يعير الأمر كبير أهمية ، ومنهم من يعرف حقيقته ويتظاهر بأنه لا يعرفها ، ويقبل منه ظاهراً ما يأتي منه ، وباطنا لا يحترمه ، ويترفع عن مفاتحته ومجابهته ، ومنهم من يصارحه شجاعة ، ويرمي كلماته أو افعاله في وجهه صراحة ، ولا يهتم بجرجه .

ومنهم من يستجره تدريجيا حتى يجعله يفضح نفسه ، ومن هؤلاء خليفة ذكي ، عرك الحياة ،

(*) المجلة العربية ، ذو القعدة ١٤١٢هـ .

وعرف الناس ، تصرف مع متقرب كاذب بما فضح تظاهره بغير ما يبطنه ، ولعل الخليفة أعطاه هو وغيره درساً ، وإن كان هذا المتظاهر قد لوّن تقرّبه بهزل ومزح ، وخرج من الموقف كأنه لم يهزم :

قال الأصمعي - كما رواه صاحب العقد الفريد[1] :

«دخل أبو بكر الهجري على المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين ، فُضَّ فمي (أي سقطت أسناني) ، وأنتم أهل بيت بركة ، فلو أذنت لي فقبّلت رأسك ، لعل الله يمسك عليّ ما بقي من أسناني» . قال المنصور : «اختر بينها وبين الجائزة» . فقال الهجري : «يا أمير المؤمنين إن أهون عليّ من ذهاب درهم من الجائزة ألا تبقى في فمي حاكّة» . فضحك المنصور ، وأمر له بجائزة .

وللمنصور أكثر من حادثة من هذا النوع سجلتها كتب الأدب ، ويبدو أن هذا منهج له تبلور من معرفته الدقيقة بنفوس الناس .

---

(١) ص ٢/٤٤٧ .

عمق الحضارة(*)

الحضارة الحقة هي التي تعطي للإنسان نوراً يمشي به بين الناس، ونوراً يتعامل به مع الناس، ونوراً على هديه يتطلع إلى حقه عند الناس، ونوراً في ضوئه يعطي من نفسه الحق للناس، والحضارة الحقة هي اللجام الذي يمنعه من عمل الخطأ، وهي الدافع الذي يقوده إلى الخير والنفع، فهي توصله إلى الفائدة، وتمنع عنه الضرر. معاملة المتحضر الحق لأخيه الإنسان كريمة، وللحيوان رحيمة، ولممتلكات غيره رقيقة.

ليست الحضارة الحقة في بيت فخم يبنى، ولا في مركب وثير يقتنى، ولا في لباس زاهٍ يلبس، ولا في غذاء شهي يؤكل، ولا في آلة تستعمل، ولا في وسيلة راحة توفرها التقنية الحديثة، ولا في معمل متقدم يقام، هذه الإنجازات هي مظهر من مظاهر

(*) المجلة العربية، ذو الحجة ١٤١٢هـ.

الحضـارة ، وتمثل جانباً من جوانبها المادية ، ولكن ما فائدة كل ذلك إذا لم يصاحب هذه المادة الجانب الحضـاري الحق ؟! ما فائدة وسائل الراحة إذا كنا لا نتقن الاستفادة منها ، ولا نتقن صيانتها والعناية بها ؟! ما فائدتها إذا كان الأمن مع وجودها مهدداً ، وسلامة الإنسان غير مضمونة ؟! ما فائدة بيت فخم فيــه من المنغصـات ما يجلب القـرحـة ، وتصلب الشرايين ، وتليف الكبد ، أو إذا كان المركب الوثير قد يصبـــح مصـدر شقـاء لأنــه صار وسيلة تهور ومجازفة ؟! ما فائدة اللباس الزاهي البراق في الخارج والنفس داخله شريرة ؟! ما فائدة السيارة أو الطيارة أو التليفون أو التليفزيون أو الفيديو إذا كان معها من المضار ما يغطي على المنافع ؟!

الحضارة حضارة النفس والداخل قبل أن تكون حضــارة الأعضـاء والخـارج ، وليست الحضـارة مقصـورة على المدن ، بل إن في الصحراء حضارة تتضاءل وتخجل أمامها حضارة المدن : ينزل قطين

من البادية في شتاء سنة مخصبة أو ربيعها ، في موقع في الصحـراء ثلاثة أشهر ، ثم يرحلون فلا تجد في مكانهم ما يدل على أنه كان هناك إقامة أو مقيمون ، لا نفايات ولا بقايا تلوث المكان ، ولولا أثر الأغنام أو الإبل لما علمت أنه كان هناك أحد . وتخرج عائلة متحضرة من المدينة إلى الصحراء ليوم أو يومين فإذا تركـوا المكان رأيت عجباً ، وخيل إليك أن مدينة كاملة قد أقـامت شهـراً في هذا المكـان : منـاديل الـورق مبعثـرة ، وبقـايـا الأكـل منثـورة ، وجلد الذبيحة وفرثها قد تجمع عليها الذباب ، وإن كانوا قريباً من شجرة قاومت الزمن ، وجاهدت الأهواء والشمس والرياح سنين عديدة ، وجدتهم قد فعلوا في أوراقها وأغصانها في يوم أو يومين ما لم تفعله تلك السنون .

وقس على هذا ساكني المدن إذا ذهبوا مع أطفالهم إلى الحدائق والمنتزهات وحدائق الحيوان ، فإنك تجد بعدهم ما وجدت منهم في الصحراء أو أكثر ، لكثرة ما يمكن إيذاؤه أو إتلافه .

حضارة الصحراء إن اعتبرها قوم بدائية ومتأخرة يجب ألا نسلم لهم بهذا ، بل يجب أن ننصفها ونعطيها حقها . إن كانت وسائلها المادية متواضعة ، ففي روح أهلها من التقدم والرقي ما يجعلها الحضارة الحقة ، إنها تساعدهم على العيش في هذه الحضارة غير منافسين في حسن التصرف ، والمعرفة بأصول الحياة . ولن أضرب مثلاً ببدوي اليوم ، ولكن بأعرابي الأمس ، وهو أصل بدوي اليوم ، يعطي صورة لمدى معرفتهم بأصول الحياة ، وحسن التعامل بصورة متناهية في الكمال ، استمع إليه وهو يضع الأسس الراقية الناضجة لمجالسة الملوك ، واسأل المتقدم هل يخطر بباله مثل هذا ؟

دخل الأحنف بن قيس على معاوية ، فأشار إلى وسادة ، فلم يجلس عليها الأحنف ، فقال له معاوية : ما منعك يا أحنف أن تجلس على الوسادة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن فيما أوصى به قيس بن عاصم ولده أن قال : لا تسع للسلطان حتى يحثك ،

ولا تقطعه حتى ينساك ، ولا تجلس له على فراش ولا وسادة ، واجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلين» .

هذا ما رواه الهيثم بن عدي عن عامر الشعبي ، وأورده صاحب العقد الفريد[1] .

---

(١) ص ٢/٣٢٩ .

من أمور النفس(*)

يروي صاحب الكشكول[1] عن الشيخ عز الدين أنه إذا قرأ القارئ عليه من كتاب وانتهى إلى آخر باب من أبوابه لا يقف عليه، بل يأمره أن يقرأ من الباب الذي بعده ولو سطراً، ويقول: «ما اشتهى أن يكون (يعني تلميذه) ممن يقف على الأبواب».

هذا أمر يحتاج إلى وقفة، فليس الأمر كما يبدو، أمر لعب بالألفاظ، لتسجيل طريفة من الطرائف، أوجبها التلاعب بالألفاظ، وخلط أبواب الكتاب التي تقرن بأبواب المتصدقين على المتسولين، وإنما أمر شعور نفسي يقلق المرء تجاهله، وفي هذه الحياة يقابل المرء شيئاً مثل هذا:

زارنا ونحن طلاب في مصر في الستينيات الهجرية صديق، وكنت له دليله وقت إقامته في

(*) المجلة العربية، محرم ١٤١٣هـ.

(١) ص ١/٣٨٥.

القــاهــرة ، أصحبــه إلى الأطبــاء ، وإلى الأمــاكن السياحية من متاحف وغيرها ، وكان لا بد من أن نستفيـد من المـواصـلات المختلفة من قطار وترام وأوتـوبيس وتـاكسي . وهـو رجـل ناضج الفكر ، يفاجئني أحياناً بالتساؤل عن أمر مستقر بين الناس ، لا يشككون في صحته ، لأن العادة جعلتهم يقبلونه دون نقـاش ، وكنت أفاجأ بها لا جواب له أحياناً عنـدي ، فنجـد الجـواب معـاً متعاونين ، أو يبقى الشـك مسيـطراً علينـا معـاً . ويفـاجئني أحيـانـا بملاحظة على نحو آخر ، على نحو يماثل الملاحظة في أول حديثي هذا . قال لي يومـاً : يا عبد العزيز أرجوك عندما يحين نزولنا من الأوتوبيس أو الترام أنزلنا قبل المحطة التي قبل مكان سكننا ، ولو سرنا إليـه نصف كيلو ، فهذا يريحني أكثر من أن تنزلني بعـد بيتنـا بخمسة أمتار ، فارجع إلى الخلف هذه المسـافة ، إنني لا أطيق العودة إلى الخلف ، هكذا خلقني الله . ووجـدت أن في ملاحـظتـه شيئا من المنطق ، إذا أعطيت الجانب النفسي اعتباراً ، تُرى

هل لهذا الشعور جذور ليست منظورة له ولا لي ؟ وهل سيأتي يوم توضع قواعد لمثل هذا يعاد فيها كل صنف إلى قواعد ثابتة له ؟ على أي حال ، لا بد أن هناك شيئا يشترك فيه صديقي مع الشيخ عز الدين ، لأنهما كما يبدو يسيران على نهج واحد .

فضل الفتى(*)

قالت لي امرأة إنجليزية مُسنّة، وهي تشير إلى باقات من الزهور موضوعة على القبور في مناسبة تعوّد الناس أن يذكروا موتاهم فيها بوضع الزهور على قبورهم: «بودّي لو أعطاني، من يريد أن يضع على قبري زهوراً بعد أن أموت، هذه الزهور في يدي في حياتي، فهي لا تفيدني بعد مماتي، وهي إضاعة للمال دون مردود». ولو كان الحديث مع غيري لربما رد عليها بأنها وضعت ليراها الأحياء فيتعزّون بها، ويطمئنون أن أقرباءهم سوف لا ينسونهم بعد موتهم على الأقل في مثل هذه المناسبات، وهذا لا يزيد عن أن يكون في الحقيقة شعور الحي نحو نفسه.

أما أنا فأخذني التفكير، عند قولها، وجال بي في مجالات مختلفة، ووضعت بعض أفكاري في بوتقة

(*) المجلة العربية، صفر ١٤١٣هـ.

الاعـتراض الـذي أثـارته هذه المرأة، وقلت : إن كثـيرين ممن يستحقـون التكـريم أو الإشـادة أو المكافأة قد لا ينالون حقهم في هذا إلا بعد وفاتهم، تأبيناً، أو تكريماً، أو تذكراً عاماً. وربما استفاد من ذلك أبناؤهم أو أقاربهم، وبعض الناس يبقى منسياً هو وإنجازه، وبعد سنين، أو عقود من السنين أو قرون يكتشف الناس فضله، أو جهده، أو إنتاجه، فيـبرز اسمـه فجـأة، ويصبـح ذكره ملء السمع والبصر. وقد يقسو الناس على شخص، ويجورون عليه في حكمهم على مهنته في حياته، ثم يتوفاه الله، فيتبارى الناس في إبراز صفاته الحميدة، متجاهلين ماكانـوا يبرزونـه من نقـائص، وينسـون هذه أو يتنـاسونها، ويكون الموت شافعاً له عندهم، فلا تذكـر إلا حسنـاتـه فقط، وقـد يزاد عليها ما قد لا يكون فيه أو له.

مرّ شاعر من شعرائنا الأقدمين بهذه المواقف، يلحظها ويقلقه تكررها، فقال في ذلك شعراً :

ترى الفتى ينكر فضل الفتى
ما دام حـــيّا فـإذا مـا ذهـــب
جــدّ بـه الحـرص عـلى نكـتة
يكتـبها عنـه بمـــاء الذهــب[1]

(١) الكشكول ٢٠/٢ .

عاقل أم مجنون ؟(*)

أقرأ أحياناً شيئاً في كتب الغربيين ، أو فيما يرويه المحدثون من العرب عنهم ، ولا ألبث أن أكتشف أن هذه بضاعتنا رُدّت إلينا ، أو أننا سبق أن أنتجنا مثلها مما لا يستدعي أخذ ما عندهم وترك ما عندنا ، فيزيد إعجابي بقومي ، وأكبر فيهم ما وصلوا إليه من فكر ، وما تركوه لنا ولغيرنا من التراث الذهني . وهذا يجعلني أخفّف من كفّة الإعجاب بالغربيين ، وأبدأ - رغماً عنّي - أتردّد في بعض ما يبهر من فكرهم ، ويجعلني أيضاً أتمنّى أن يعود أبناء جلدتي إلى تراثهم ، وإلى ما سجّل منه في العصور المختلفة ، ليروا اللؤلؤ المكنون في أعماق بحاره ، والمعدن الثمين في مناجمه ، والدّر المنظوم في سلكه . وأحاول في كلّ مناسبة تمرّ ، وفرصة تعرض ، أن أبيّن شيئاً ما في تراثنا ، علّ أحداً يسمع أو يقرأ ،

(*) المجلة العربية ، ربيع الأول ١٤١٣هـ .

فينجذب إلى ما أبيّنه، فيكسبه التراث إلى روضه اليانع.

قرأت في المرحلة الثانوية - ونحن ندرس علم النّفس المستقى من الغرب حيرة العلماء المختصين هناك في متى يجد النائم لذة النوم، فهو كما هو محقق لا يجدها في نومه، لأنه فاقد الوعي عندما ينام، ولا لذة مع انعدام الوعي، ولا يجدها قبله، لأنها لم تبدأ بعد، ولا يجدها بعده، لأنها إن كانت موجودة فقد انتهت، وتبقى الحيرة، ويبقى التساؤل، ويتعذر الحل، ويُدرج الأمر ضمن باب من أبواب علم النفس، يتناسب مع الحيرة وتعليق الحل.

وكنت أقرأ في أحد الأيام في كتاب الكشكول، فوجدت أن صاحبه قد ساق خبراً عن هذا الأمر سبق به من قرأت لهم من الغربيين بقرون يقول فيه: (١)

زار ثمامة بن أشرس دار المجانين، فسأله مجنون

---

(١) ص ١/٥٢.

عن عدة مسائل، إحداها: متى يجد النائم لذة النوم؟ إن قلت إذا استيقظ فالمعدوم لا يوجد له لذة، وإن قلت قبل النوم، فلا شعور له. قال ثمامة: فبُهِتُّ، ولم أحر جواباً.. وكان جواب المجنون: أنها محال، لأن النوم داء، ولا لذة مع وجود الداء.

وبهذا اعتبر المجنون العاقل أن أساس الادعاء باطل، فليس هناك لذة أساساً، وقد ختل السائل المسؤول، وأوهمه ان هناك لذة، وهي في رأيه لا وجود لها. وكثيراً ما يفاجأ شخص بدعوى يهتم بتفاصيلها دون أن يتنبه إلى مجملها وكنهها، وكثيراً ما غرق أناس في جدل لو فكّروا قبل الدخول فيه، في أعماقه، لوجدوا الحل في عدم الدخول فيه أصلاً، وفي رفضه منذ البدء.

رجولة(*)

العاقل الرّزين، الذي عقله ورزانته طبيعة فيه، وليست تصنّعاً ولا تكلّفاً، تبقى هذه الصفة فيه ثابتة، ولا تهزّها الأهواء والعواصف، ولا تتغيّر بتغيّر الأيّام والأحوال، والعقل ميزة يهبها الله لمن يشاء من عباده، ونعمة من أكبر نعم الله، وإذا أراد الله له زيادة الخير، أضاف إليها من الصفات المكتسبة ما يزيدها عمقاً، وثباتاً، وجعله يرفل بين النعمتين.

يمّر بي وأنا أقرأ التراث شيء من هذا، أقف عنده متأملاً متبصراً، معجباً بهؤلاء الذين يحسنون التصرّف عندما يحاول أحد أن يخرجهم عن طبيعتهم لسبب أو آخر. وأشعر بالفخر أيضاً لأن هذا مظهر من مظاهر حضارة أنتمي إليها، وأعتزّ بها، وأرى بقاياها في بعض المسنّين، ومن وهبه الله الحكمة من الشباب.

(*) المجلة العربية، ربيع الآخر ١٤١٣هـ.

هناك قصّتان تتجلّى فيهما هذه الميزات : الرزّانة والعقل وحسن التصرّف والتدبير، وضبط الأعصاب، وسعة الصّدر، وكما سيرى القارئ، كلاهما فيه من الاستثارة والإغضاب ما يزلزل أركان حلم بعض الناس، وإن كانت طبيعة مجرى كل واحدة تختلف عن الأخرى :

يقول صاحب محاضرات الأدباء[1] إن الرشيد قال يوماً لجلسائه : إن عمارة قد ذهب في التِّيه كل مذهب، وأُحِبّ أن أضع منه، فقيل له : لا شيء أوضع للرجال من منازعة الرّجالِ الرّجالَ، والرأي أن يؤمر رجل ليدّعي أفضل ضيعة له أنه غصبه إياها. ففعل ذلك، فلما جاء عمارة قام الرجل فتظلّم منه، وشنّع عليه. فقال الرشيد (لعمارة) : أما تسمع ما يقول الرجل؟ فقال (عمارة) : من يعني؟ فقال الرشيد : يعنيك، إنّك غصبته كذا، فقم واجلس معه مجلس الحكم، قال (عمارة) : إن

---

(١) ص ١١٢.

كانت هذه الضّيعة له فلست أنازعه فيها ، وإن كانت لي فقد جعلتها له . فانقطع كلام الرجل ، فلمّا انصرف ، قال عمارة لرجل كان معه : من هذا المدّعي ؟ فأذاع أنه لم يملأ عينه منه ، فأخبر الرشيد بذلك ، فقال سوّغنا له تيهه بعد ذلك .

والقصة الثانية يرويها صاحب الكشكول[1] يقول : قصد بعض الشعراء أبا دلف ، فسأله أبو دلف : ممن أنت ؟ فقال من تميم ، فقال :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا
ولو سلكت سبل المكارم ضلّت

فقال الرجل : نعم ، بتلك الهداية جئت إليك ، فخجل وأسكته وأجازه .

كم من كلمة قالت لصاحبها دعني ، والاثنان كانا في مستوى الرجولة ، هذا مازح واستثار ، وهذا رد الصاع صاعين بهدوء ورزانة ، وبمنطق القول العادل ، وأعطى من الصاع الذي كيل له به . والأول قبل الهزيمة بإقرارٍ بالحق لأهله .

---

(١) ص ٢/٧٣ .

أقعد أو أجلس(*)

اللغـة العربية لغة حيّة ودقيقة ، لها ميزاتها عن اللغـات الأخـرى ، وهي بحـر متلاطم الأمواج ، لا يحيط بأطرافها أحد ، معاجمها تشهد على ذلك ، وقواعدها تؤكده ، وآدابها تبسط ذلك . يجد متعلّمها والمنقـطع لها لذة لا تعـدلهـا لذلة عندما يتعمق في رياضها . ويحاول أن يسبر غورها : لغة وشعراً ونثراً وتاريخ أدب . عندما يفتح أحدنا معجماً من معاجمها ليتـأكد من معنى كلمة تجده ينساق للإغراء في أن يطلع على تصريف الكلمة ، وصلتها بأخريات ، ثم تقـوده هذه إلى أخـرى ثم أخرى ثم أخرى ، فلا يقف إلا عند نهاية ما سُطِّر تحت ذلك الحرف .

والمفـاجـآت في اللغـة تأتي لمن يحاول أن يلتـذ بمتـابعـة بعض الجوانب فيها ، خاصة إذا نوّع في المعاجم ، لأن كل معجم له طبيعة ينفرد بها ، فلقد

(*) المجلة العربية ، جمادي الأولي ١٤١٣هـ .

ألّفها مؤلفوها عندما شعروا بالحاجة إليها ، فليس بينها تماثل إلا في القليل منها عندما يحاول مؤلف ان يختصر ما أطـالـه غيره ، أو يطيـل ما اختصره الآخرون ، ولعـل اللغة العربية من بين اللغات القلائل التي خُدمت في هذا الجانب منذ القدم ، لأن المعـاجم في أغلب اللغـات الأخرى تعتبر نوعاً ما حديثة ، حسب علمي .

هذا كله دار في ذهني ، وأنا أُتابع بعض الكلمات التي تدور على ألسنة الناس ، وأحياناً يكون بينها من الفـروق ما لا يحسّـون به ، ومـع الزمن أصبحت كلمات مترادفـة ، يستعمـل أحـدها مكان الآخر ، خلافاً لما هي عليه في اللغة أصلاً . ولكن الاستعمال في ضوء الأصل نُسي ، وغطّى الزمن - مع سيطرة العـاميّـة - على جادة الصـواب فيـه ، أقـول هذا بمناسبة ما قرأته ، قبل أيام ، في كتاب «الكشكول»[1] .

(١) ص ٢/٩٢ ، انظر أيضا قصة بهذا المعنى في مجلس سيف الدولة . معجم الأدباء ٩/٢٠٢ .

يقول صاحب الكشكول :

« القُعُود : هو الانتقال من علو إلى سفل ، ولهذا يقـــال لمن أصيب برجليـــه مقعـد ، والجلوس هو الانتقال من سفل إلى علو ، والعرب تقول للقائم أقعد ، وللنائم اجلس » .

كم منّا اليوم يراعي الفرق بينهما عندما يتكلم عن الجلوس أو القعود ؟ !

السليقة السليمة(*)

لم أتمالك نفسي، وأنا أقرأ الخبر الآتي، إلا أن أشركك معي أيّها القارئ الكريم، إنه خبر يدلّ على صفاء ذهن ابن الصحراء، الذي يغوص على المخّ، ويترك القشر، إنّ سليقته خير هاد له في حكمه على الأمور. وسترى - وهو أمّي لا يقرأ ولا يكتب، ولم يسبق له أن سمع ما سمع - أنه يصحح للقارئ بسليقة وبديهة، ويعلّل لاعتراضه بما يدهش:

جاء في الكشكول[1] حكى الأصمعي قال: (كنت أقرأ: ﴿والسّارق والسّارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا، نكالاً من الله والله غفور رحيم﴾[2]. وبجنبي أعرابي،[3] فقال: كلامُ منْ

(*) المجلة العربية، جمادي الآخرة ١٤١٣هـ.

(١) ص ٢/١٥٢.

(٢) القرآن الكريم، المائدة ٣٨.

(٣) قارن هذا بما جاء في كتاب «سرح العيون» حيث ذكر الراوي أنه الفرزدق ويروى عن الاعراب مثل هذا كثير انظر «البيان والتبيين» ٢/٣٢٧ مثلا، وقارن ما جاء فيه في هذه الصفحة بما جاء فيه في ٢/٣٣٩.

هذا؟ فقلت : كلام الله . قال : فأعد ، فأعدت ، فقال : ليس هذا كلام الله . فانتبهت ، فقرأت : ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ . فقال : أصبت ، هذا كلام الله . فقلت : أتقرأ القرآن؟ قال : لا ، فقلت : من أين علمت؟ فقال : يا هذا ، عزّ فحكم ، فقطع ، ولو غفر ورحم لما قطع .

وليس بعيداً عن هذا ما لاحظه أعرابيّ آخر سمع قارئاً بجانبه في المسجد يوم الجمعة يقرأ - والأعرابي لم يقرأ القرآن - : ﴿ فخرّ عليهم السّقف من تحتهم ﴾ ، فاستعاد الأعرابي القارئ إلى خطئه فأصلحه ، وقرأها ثانية ﴿ فخرّ عليهم السقف من فوقهم ﴾[1] والأعرابي بفطرته أدرك أن السقف وهو فوق لا يخرّ من تحت وهو أسفل .

وكم يقع الإنسان أحياناً في أخطاء وهو ساه ، فيسعفه الله بمستمع يكون متنبهاً بحواسّه الجيّدة ، ويعيده إلى جادّة الصواب .

---

(١) القرآن الكريم ، النحل ٢٦ .

شروط الوفادة(*)

أزيد ثقة وإعجاباً بإبن الصحراء كلما قرأت خبراً يدل على عقل وصواب فكرٍ نطق به أحدهم ، سواء أكـان هذا من معـاصريـن منهم ، أو من أحـد أجـدادهم ممّن دوّن المؤرخون والأدباء ما نطقوا به من كلمات ذهبيـة تدل على أن هذه الصحراء بيئة لا يخرج منها إلا الأصيل في فكره ، وفي خلقه ، وفي طبعه ، وفي تعامله مع الحياة .

وابن الصحراء - وهو لا يقرأ ولا يكتب في زمن مضى - ضاع كثـير من تراثه لولا ما دوّنه في شعر رُوي وحفظ ، وتسلسلت روايته على مرّ العصور ، حتى قيّض الله في أزمـان لاحقة له من أهتم به في عصـور الحضارة الإسلامية الأولى ، فجمعه ، أو جمع شيئاً منه بالتلقي من أفواه الرواة ، استقبالاً لهم في المدن والقرى ، أو في البحث عنهم في الصحراء

(*) المجلة العربية ، رجـب ١٤١٣هـ .

والقفـار . قصد هؤلاء المدوّنون أن يخدموا اللغة ، ليجلوا أديمها ، ويحموا مفردات كلماتها ، وتركيب جملهـا ، ودقـة أفكـارهـا ومعانيها ، من العبث أو الضياع . بعض هذا التراث القيّم جُمع أيام الأمويين أو أيـام العباسيين ، بعضه جمعه مفكرون عرب ، وبعضـه جمعـه موالٍ ممن قدّروا قيمة هذه اللغة ، وِعـاء دينهم . وخزانة معتقدهم ، ذكرت ذلك هنا مقدمة لخبر قرأته فتدبرته ، يتصل بالوفادة ، وما يجب أن تكون عليه .

والوفادة أمر مهم في حياة الشعوب ، سواء أكان الرسول موفداً إلى ملك ، أو إلى رئيس عائلة ، سواء أكانت لغرض سياسي ، أو لخطبة نكاح ، أو لشراء ما لم يُرد المـوفِـد أن يبـاشر المفـاوضة فيه بنفسه . وعنـاصر الـوفادة مُهّمة ، ولهذا يعتني من يوفِد في اختيار من يوفَد، ويزنه في ضوء الرسالة ومن هو موفد إليه ، وحالة الوفادة وظرفها .

وللوفادة حالة نفسية تعتري الموفِد والموفَد والموفد

إليه . ولعل حالة الرسول الموفَد هي أهم الحالات النفسيـة ، لأنـه يحمل همّ حسن التبليغ ، وإتقان جوانب الـرسـالـة بطريقـة تضمن له النجـاح في مهمته ، والعود بالنتيجة المرجوّة ، وهو لا يدري عن حالـة من سيقـابله ، فقد يكون في حالة رِضى أو سخط ، في حالة ارتياح أو تعب ، في حالة قبول أو رفض ، في حالــة تشـــاؤم أو تفـاؤل إلى أن يؤدي الرسالة ، والرسول في همّ وقلق ، إن كان ممَن يهمه رِضَى مرسله ، وأداء الأمانة على وجهها وبِشَرف .

ولعـل أحـد مفكري أجدادنا العرب قد مرّ به موقف من هذا القبيل ، ففكر في العناصر التي تنجح مهمتـه ، وقـد يكون أوفد في أمر صلح ، أو منع حرب ، أو لخطبة نكاح ، أو في فدية أو دفع دية ، أو إيقـاف ثأر ، فقـد لخص نصيحتـه لمن سوف يقوم بوفادة بالكلمات الآتية ، نقلها إلينا صاحب الكشكول[1] :

---

(١) ص ٢/٣٣٥ .

«كانت العرب إذا أوفدت وافداً قالوا له : إيّاك والهيبة ، فإنها الخيبة وعليك بالفرصة ، فإنها مزيلةٌ للغصّة» .

لقد صدق الموصون فيما قالوه ، وأصابوا عين الصواب ، وكبد الحقيقة ، فيما لخّصوه من عناصر نجاح الرسالة ، خاصة إذا كانت الوفادات كما كانت تتم في الماضي ، يجمع لها عِلية القوم في بلاط الحاكم ، أو كبار القبيلة في خيمة شيخها .

عشر سنين(*)

كتبت في الجزء الثالث من «أي بنيّ»[1] الطبعة الأولى واصفاً احدى طرائف شخصية ناقدةٍ فذّةٍ مرحةٍ ، عطّرت طرائف أفعالها وأقوالها تاريخ بلادنا بنتفٍ مما يُروى عنها ، دلّت على ذكاء ، وخفّة روح ، وحسن قبول ما يأتي :

« . . وقصة أخرى لهذا الرجل : قام بمرافقة شخصيات إنجليزية مهمة قبل خمسين عاماً ، وخدمهم إكراماً لمن طلب منه ذلك ، وقبل عودتهم إلى بلادهم أرادوا أن يكرّموه ، وطلبوا منه أن يخبرهم بما يريد ، وكانت بريطانيا في ذلك الزمن تسيطر على جزء كبير من العالم بمستعمراتها ، وألحوا له أنه لا يعسر عليهم شيء يطلبه . فقال : إن كل شيء عنده ، وأن مضيفهم الذي كلّفه بمرافقتهم لا يقصّر في حقه ، بل إن كل شيء يملكه

(*) المجلة العربية ، شعبان ١٤١٣هـ .

(١) ص ٣٣١ .

قد وضـع مفـاتيحـه عنده ، فأصرّوا ، فقال لهم : حسـناً سـوف أطلب ، ولكنكم لن تستطيعوا تلبية طلبي ، ودخـل الأمر في شبه تحدّ ، فقال : «أريد عشراً» ، ورفع الأصابع العشرة أمامهم ، فسألوا : «عشر سيارات ؟» أو «عشراً من الخيل» ؟ فقال : «بل عشراً من السنـين ، تضيفـونها إلى عمري» ، «فماتـوا» من الضحك ، وعرفوا أنهم أمام رجل لم يوضع لمرافقتهم إلا لعقله - رحمه الله - ورحم من كلفه بهذه المهمة» .

هذا ما كتبته ، معجباً - مثل كثيرين غيري - بما جاء فيه من طرافة مفاجئة . وكنت أقرأ قبل أيام في كتاب «ثمرات الأوراق» لابن حجّة الحموي ، وهو كتاب يلذّ لي أن أستريح عنده بين آنٍ وآخر ، هو وأمثاله من الكتب التي ضمّت بعض قصص التراث ، ويكفيه أنه ضَمَّ قصة جابر عثرات الكرام (عكرمة الفيّـاض مع خزيمـة بن بشـير) . ودهشت عندما وجدت أن صاحبنا السعودي - بما ردّ به - قد وضع قدمـاً على قدم ، وحفر جادة على جادة ، وجدد -

دون أن يعلم - ما انطوى بين دفّات الكتب من تراثنا المضيء، وتبين أن ما نطق به سبق أن قاله قبل مئات السنين عُبيد بن شرِبَة، في قصة طريفة[1]، عندما سأله معاوية: «يا أخا جرهم: سل ما شئت؟ - وكان عُبيد هذا معمّراً، قيل: إن عمره كان حينئذ عشرين ومئتى سنة - فردّ عبيد على عرض معاوية بقوله: «ما مضى من عمري تردّه، والأجل إذا حضر تدفعه». قال معاوية: «ليس ذلك لي، سل غيره».

وهكذا تبين أن الأقوال مثل الأشعار: «ما أرانا نقول إلا معاداً من قولنا مكروراً»، وإذا كانت المدن تبنى على المدن، والأرض تعلوها مع الزمن أرض، فمن باب أولى أن تتكسّر النصال على النِّصال في الحِكم والأمثال والأقوال بمرور الزمن.

(١) ص ٣١٤.

الابتسامة(*)

الابتسامة نعمة من نعم الله ، ومن أقدره الله على سهولة الابتسام والنظر إلى الحياة بمنظار أبيض فتح الله بذلك له أبواباً تغلق أمام الذين لا تعرف الابتسامة إلى وجوههم الطريق ، أولئك الذين ينظرون إلى الجانب المظلم من كل أمر ، مع أنه لا أمرَ مكفهرًّا إلا ويجد فيه المتأني المتفحص إضاءة عن طريقها يفتح آفاقاً لإبعاد آثار القتامة التي تبدو لأول وهلة .

وكلما جاءت الابتسامة في وقت حرج ، وصار سببها مُزيحا همًّا كبيراً كانت قميتها أغلى ، لأن الشيء بما ينتهي إليه من جلب نفع أو دفع ضرر ، فإذا ما كان النفع عظيماً والضرر المدفوع كبيراً كان التقدير مناسباً لهذا الإنجاز .

وليكون هذا القول واضحاً أسوق طرفة من

(*) المجلة العربية ، رمضان ١٤١٣هـ .

طرائف التراث، فهي على بساطتها توجب الابتسام، ومن يعلم؟، فقد تكون منعت شراً كاد أن يستطير، أو لعلها متخيلة، كما يؤكد الجاحظ:

يقول صاحب المراح في المزاح[1]: إنه اقتتل غلمان عبد الله بن عباس وغلمان عائشة، فأخبرت عائشة بذلك، فخرجت في هودج لها على بغلة لها، فلقيها ابن أبي عتيق، فقال لها: يا أمي جعلني الله فداك أين تريدين؟ قالت: بلغني أن غلماني وغلمان ابن عباس اقتتلوا، فركبت لأصلح بينهم، فقال: يعتق ما يملك إن لم ترجعي، فقالت: ما حملك على هذا؟ قال: ما انقضى عنا يوم الجمل حتى تريدين أن تأتينا بيوم البغلة؟[2]

ويمكن أن يقاس على هذا كثير مما يمر بنا من أمور المزاح التي تأتي بابتسامة تنير ظلمة شدّة طرأت، والأدب العربي مليء بأمثال هذه، ولو تتبعنا ما يمر بحياتنا لوجدنا كثيراً من أمثال هذه تمرّ

(١) ص ٣٣٢.
(٢) هناك ما يدل على أن الخبر موضوعٌ بأكمله.

بنا دون أن نلتفت إليها ، ومع طرافتها فنحن نهمل تسجيلها مع أن بعضها قد يؤرخ لحدث مهم ، مثلما حدث لقصص التراث الطريفة أمثال القصة الآتية :

في كتاب «عقلاء المجانين» يروي النيسابوري[1] فيقـول : قيل : أدخل عبادة على الواثق ، والناس يضربـون ويقتلون في الامتحـان . قال : فقلت : والله لئن امتحنني قتلني ، فبدأته ، فقلت : «أعظم الله أجرك أيها الخليفة» . فقال : «فيمن ؟» فقلت : «في القـرآن» . قال : «والقـرآن يموت ؟» قلت : «نعم ، كل مخلوق يمـوت ، فإذا مات القـرآن في شعبـان فبإيش يصلّي الناس في رمضان ؟» فقال : «أخرجوه ، فإنه مجنون» .

محنة كبرى ، بددتها ابتسامة ، تسبب فيها متظاهر بالجنون ، لمحنة كانت أقرب إلى الجنون .

---

(١) ص ٤١ .

حمى الزوجية . ![*]

كل إنســـان له حمى ، ولـــه حدود لا يقبـل أن تخترق ، وميزات لا يتساهل في أن يُنال منها . والمرأة أحياناً أشدّ من الرجل في محاولة صيانة هذه الحدود وهذا الحمى وهذه الميزات . ومن الحدود التي تقف المـرأة أمـامهـا صامـدة متحـدّية مقاتلة ، ولا تقبل التسليم إلا ظاهراً مضطرّة ، حمى الزوجية . فهذا الحمى عنـدها له قدسية ، وتستميت في أن يكون الـــزوج لها وحـدهـا ، وإن شاركهـا فيـه أحـد ، واُضـطرت إلى الاستسـلام فهـو للمحـافـظة على ما يمكن أن يبقى لها منه حتى لا تفقده بأجمعه ، لن تني تحاول استرداد ما ذهب منه ، أو حيازة أرض منه إلى الأرض التي تقف عليها . ونادراً ما تسمع عن زوجة تنازلت عن شبر من هذا الحمى ، وإذا وقع هذا فلأمـر يخرج عن المعتـاد ، ويكـاد يخرج عن حدود المعقول .

(*) المجلة العربية ، شوال ١٤١٣هـ .

والنســـاء في هذا تتســاوى : المتعلمــة والتي لم تتعلم، الكبـيرة في السن، والصغـيرة فيـه، التي عاشت في الجـاهليـة، أو في الإسـلام، الحضرية والريفية، ساكنة الجبل وساكنة السهل، النساء في زماننا هذا، والنساء في صدر الإسلام، بل حتى في زمن الرسول ﷺ، بل حتى عائشة رضي الله عنها، ومن أولى من عائشة في حفظ حمى حصتها منه ﷺ.

سأقصّ عليــك قصتـين أوردهمـا عن عائشـة صاحب كتـاب «المراح في المزاح» الأولى في (ص ٣١٥) والثـانيـة (ص ٣٣٤)، وكـلاهمـا توجب الابتسام، وتؤكد انقضاض المرأة على من حاول، ناجحاً أو محاولاً النجاح، في اختراق حدود حقها :

«عن عائشـة قالت : لما قدم النبي ﷺ المـدينة عرّس بصـفـيــة، فأخـــبرني، قالت : فتنكــرّت وتنقبت، فذهبت انظر. فنظر رسول الله ﷺ إلى عيني، فعــرفني، فأقبـل إليّ، فانقلبت راجعـة، فأسرع المشي، فأدركـني، فقـــال : كيف رأيت؟

قلت : يهودية بين يهوديات» .

والقصة الثانية تقول :

أتى الضّحاك بن سفيان الكلابي إلى رسول الله ﷺ قبل بيعته ، ثم قال : عندي امرأتان أحسن من هذه الحُميراء ، أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها ؟ وعائشة جالسة تسمع ، قبل أن يُضرب الحجاب ، فقالت : أهي أحسن أم أنت ؟ قال : بل أنا أحسن منها وأكرم . وكان امرءًا دميماً قبيحاً .

وعندما قلت في أول حديثي هذا : «ونادراً ماتسمع عن زوجة تنازلت عن شبر في هذا الحمى . . » كان في ذهني ماذكره الجبرتي في كتابه : «تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار» في حوادث عام ١١٨٨ هجرية ، عن والده حسن الزيلعي الجبرتي وزوجته بنت رمضان جلبي بن يوسف ، المعروف بالخشاب . والقصة باختصار تقول :

اشترت زوجة حسن هذه وصيفة ، وجعلتها مثل

إبنتها ، وأعتقتها وعقدت لزوجها عليها ، وجهزتها وفرشت لها مكاناً قريباً منها ، وتزوجها سنة ١١٦٥ هجرية . وكانت الزوجة لا تقدر على فراق العتيقة ساعة ، وقد ولدت هذه العتيقة له أولاداً ، وفي عام ١١٨٢ هجرية مرضت الزوجة فمرّضتها العتيقة ، وبكت عليها ، وتأثرت ، فأرقدوها بجانبها في الفراش ، فزاد بها الهمّ ، فأتت في تلك الليلة ، فأضجعوها بجانب الزوجة ، فاستيقظت هذه آخر الليل ، وجسّتها بيدها ، وصارت تقول : «إن قلبي يحدثني أنها ماتت ، ورأيتُ في منامي ما يدل على ذلك» ، فلما تحققت من ذلك قامت وجلست بين يديها ، وهي تقول : «لا حياة لي بعدها» ، وصارت تبكي وتنتحب حتى طلع النهار ، وشرعوا في تشهيلها وتجهيزها ، وغسلوها بين يديها ، وشالوا جنازتها ، ورجعت إلى فراشها ، ودخلت في سكرات الموت ، وماتت آخر النهار[1] .

---

(١) ص ١/٤٥١ .

والجبرتي شاهد على هذه القصة وهو صغير وأبدى استغرابه لوقائعها .

وبعد : كم نسبة النساء اللاتي يسمحن لأخريات أن يدخلن هذا الحد المحمي بيقظة واستعداد؟ لا شك أنهن نادرات .

ورد الحارس الكرة(*)

يقول صاحب «المصون في الأدب»[1] : إن المهدي، وعنده عيسى بن موسى، قال لشريك القاضي : «لو شهد عندك عيسى بن موسى، كنت تقبله؟» وأراد أن يغري بينهما، فقال شريك : «من شهد عندي سألت عنه، ولا يسأل عن عيسى غير أمير المؤمنين، فإن زكاهُ قبلته»، فقلبها عليه .

هذا نص جيد من التراث، في جوفه كل الصّيد، عند التدبّر والتمعنّ يخرج المرء منه بعدة فكر، وفي كل زاوية منه التفاتة، وإطاره مهم .

أول الملاحظات أن شريكاً أحد قاضيين، ثانيهما إياس، عرفا بدقة الملاحظة، وسرعة الرد، والغوص إلى أعماق نفوس المتخاصمين، وعدالة الحكم . لهذا كان يرد عنهما كثير من الأخبار التي تصف هذه الحالات .

(*) المجلة العربية، ذو القعدة ١٤١٣هـ .

(١) ص ١٨١ .

ثاني الملاحظات ، أنه لا بد أن بعض هذه الأخبار حقيقي ، ولكن لا يستغرب أن يكون بعض ما دوّن ألحق بأخبارهما ، لأنه لم يعرف قائله ، ولأن طبيعته تشبه طبيعة ما يُروى عنهما ، وبعضه ابتدع إبتداعاً ، وادّعي أنه لهما ليقبل ويروج ، مثلما كانت الحِكم وأشعار الفضائل تنسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والصبر وطول البال لمعاوية ، وبعض الأخبار الغريبة لهارون الرشيد ، وأخبار العفة ونزاهة اليد لعمر بن عبد العزيز والكرم لحاتم ومعن بن زائدة ، وقصص السذاجة والحكمة أحيانا لجحا ، والقسوة للحجاج .

وثالث الملاحظات أن الأدباء حرصوا على أن يدونوا في تلك الحقب الدموع والابتسامات ، المحزن والمفرح ، الرذيلة والفضيلة ، الحسن والقبيح ، قوي الحجة وضعيف الحجة ، المقبول عقلاً ، والمرفوض منطقاً ، فرسموا مجتمعهم بتصرفاته وعقله وتفكيره ، وأعطوا صورة صادقة عنه ، لا تكاد تفوتهم لمحة منه ، ولو جاءنا جميع ما دونوا لكان شيئاً

عظيماً ، وتكشف عن كل دقائق حياتهم ، وجوانب مجتمعهم ، ولكن كثيراً منه ذهب على أيدي التتار في دجلة والفرات ، حرقاً وإغراقاً ، ثم تفرق في العالم ما بقي منه أيدي سبأ ، وابتلع صرف الزمان ، وتوالي الحدثان شيئاً كثيراً من نفائسه .

ورابع الملاحظات أن الملوك في خلواتهم تظهر الجوانب الإنسانية المرحة في حياتهم ، وهم بعيدون عن الامتهان . وسقوط الهيبة ، و «تعقيد الشوش» كما يقول المثل العامي أمر يقبل عليه كبار القوم في المجتمعات ، وهو نوع ملطف من المقالب ، ولكل ملك وحاكم وسلطان وخليفة طرائفه من هذا النوع ، وتكثر وتقل حسب طبيعته ، وطبيعة من يجالسونه . ولهذا الفن رجاله ، وله حدود يوقف عندها ، ولا يقدم عليه من الناس إلا من يتقنه ، أما من لا يتقنه ، فإنه يكتفي فيه بأن يُغلب عن أن يزلّ مع الخليفة .

وخامس الملاحظات أن الخليفة يعرف مقدرة

القاضي، ولكنه كان يلتذ بالتشوف إلى الرد، وللترقب والتوقع لذة لا يعرفها إلا من جرّبها وتبصر في عمقها وكنهها.

وسادس الملاحظات أن شريكاً لم يأت بردّه رداً عقلياً، ولكنه جاء به فقهياً، أي لم يبعد عن إقتناص ما ينجيه من مصيدة الخليفة، وإنما غرف من وعاء مليء بالفقه وهو صدره، فخفف من حدة انتصاره على الخليفة - والانتصار على الخليفة لا يليق أن يقدم عليه - بأن جعل الرد حُكماً قضائياً بحتاً.

وسابع الملاحظات أن قاضياً مثل شريك مظهر حضاري يفاخر به عالمياً، ولو ترجمت ردوده هو والقاضي إياس لفُتح بهذا نافذة للغرب والشرق على الإسلام، وعلى عدله، ونضج تعاليمه وقدسيتها، وعلى رقيِّ مجتمعاتنا خاصة في ذلك الزمن الذي كانت فيه أمم الحضارة غير الإسلامية اليوم تخوض في مخاضات بدائية، وصفها ابن فضلان في رحلته من بغداد شمالاً إلى شمال أوروبا، ووصف فيها

الدنمارك التي كان الناس فيها يحرقون الزوجة مع الـزوج إذا مات ، فإن لم يجدوا له زوجـة أحرقوا خدينتـه معه (والرحلة نشرتها تهامة : بعد أن جمع بعض شتـاتهـا الكـاتب المغـربي الأستـاذ أحمـد عبد السلام البقالي) .

أشعر عندما أقرأ نصاً من التراث أن له واجباً عليّ أن أغـوص في أعـماقـه ، بأن أقف عنده ، وأحلل أجـزاءه ، فإن لم أفعـل أتصور أنه يحاكمني ويحتج عليَّ ، ويبقى صوته المتصور يَرِنُّ في أذني ، فإن ثبتت لي أصالته وصحته ، إحتل مكانه اللائق في نفسي ، وإن وجدت أنه موضوع حاولت أن أعرف السبب لوضعه ، والحكمة في إنتحاله ، وتفتحت لي أبواب تفضي إلى ساحـات وردهات ، وأحياناً إلى حقول وبيادر ، أو إلى رياض وغدران من المعرفة ، وإلى صور واضحة عما كان يعتمل في رءوس هؤلاء القوم وأذهانهم ، وما كان يحكم حياتهم الفكرية حينئذ ، مما لم يعد سمة لزمننا ، أو بقي منه شيء في زمننا ،

يدل على أنه كان مزدهراً آنذاك وأن هذه بقاياه وآثاره .

وما أصل إليه بهذا الاستقراء أو التدبر والتمعّن ، يساعد على تكوين ملكة تصبح مع اللبنات المتوالية صرحاً به أتمكن من فهم النصوص الأخرى ومراميها ، ومايكمن خلفها مما لم يرد صاحبه أن يبوح به جهاراً .

ولعل هذه الطريقة وهذا النسق هو مايجب أن نفعله ونُبقي عليه ، حتى نستفيد من تراثنا الفائدة المتكاملة .

الرنين والريح ثمن(*)

الإنسـان جُبـل بفـطرتـه على حبّ القصص ، ومتابعة قصّها ، والبحث عمن يجيدها ، يتطوّر ذلك معه من سنّ إلى سن ، ومن عمر إلى عمر ، ويفضّل من هذه القصص المثير المفرح المبهج ، والقصص الـذي فيه غرابة ، وفيه مفاجأة وطرافة . وفي سنّ مبكرة لا يمل الصغير الاستماع إليها معادة مكرّرة ، ويأتي وقت عليه يأتي بها هو بالمناسبة ، يذكّره أمر بها فيستدعيها في ذهنه ، وتماثلها أخرى فيستشهد بها .

كنا صغاراً في نهاية المرحلة الابتدائية ، وكان يحلو لنا أن نسمع قصّة الرّجل الذي أدنى خبزه من بُخار إدام كان يتطاير أعلى القدر ، ثم يغمس ، واهماً ، خبزه في البخار ، فيأكله ، مقنعاً نفسه أنه أودم به ، وإذا بصاحب القدر يطالبه ملحاً بثمن ما استفاده في بخار إدامه ، ولم يجد الرجل أن المطالِبَ محق ، وطال

(*) المجلة العربية ، ذو الحجة ١٤١٢هـ .

النزاع بينهما، مما أوصلهما إلى حكم ارتضياه، وكان مفكراً ذكياً، فحكم للوهم بوهم، وبالخيال بخيال، وبالبخار برنين. لقد أخرج من جيبه ريالاً ورنّ به على حجر أمامه، عدّة مرات، وقال لصاحب الإدام استمع واقبض ما شئت من الرنّات ثمناً لما غمس به هذا من بخار إدامك.

إنها عبقرية رغم بساطتها، وإنها مفاجأة في الحكم ولكنّها تناسبت مع المطالبة عدلاً وكفاءة. ولا بد للإنسان حتى بعد أن يكبُرَ أن يُكبِر هذا الحكم، لأنه استطاع أن ينزل إلى مستوى النّزاع فيُقنع.

تذكّرت هذه القصّة، التي طالما استمعنا إليها، فشدّتنا، فاستعدناها في أوقات ثانية، لا نملّ ولا نكلّ، عندما رأيت أختاً لها يرويها صاحب المراح في المزاح[1] يقول فيها:

«استأجر رجل من البخلاء محتطباً فاستكثر

---

(١) ص ٣٢٨.

الأجـر ، فطمـع في مشاركته بالعمل ، لينقص من الأجر ، فجلس يقول : (هيه) لكل ضربة ضربها المحتطب فلما انتهى أعطاه نصف الأجرة ، فتخاصما إلى حاكم ، وكان من الظرفاء ، فقال : هات الأجرة أقسم لكـما ، فشرع يلقي درهمـاً على صنـدوق ويقول : الدرهم للأجير ، وطنينه للمستأجر » .

خط الفكـر في القصتـين واحد ، ونسق المنهج فيهـما متفق ، ومـا لمثـل هؤلاء الـظَلَمـة إلا هؤلاء المنصفـون . اختلف في القصتـين البدء ، وتغيّرت الاستفـادة ، أما الأجر فتماثل . وعلى من يريد أن يسلّي صغاره أن يبتدع بدءاً ، والحكم جاهز .

علي والخلافة(*)

أختلف المؤرخون في حق عليّ في الخلافة ، ومتى يبدأ هذا الحق ، ففئة منهم ومن أنصارهم قدّموه على أبي بكر الصديق وعمر وعثمان ، وفئة جعلته بعدهم ، واعتمد كل فريق على نصوص منها الصحيح ومنها المختلق ، وفسّروا وعلّلوا ، وحلّلُوا ، وأبتعد بعضهم عن الحقيقة وبعضهم اقترب ، وبعضهم اقترب من نيل الأجر ، وبعضهم ركس في الاثم . وهناك من ابتعد عن الخلاف وما يثار منه احتساباً وتحرزاً من الاثم ، والدخول بين أمر يخص الصحابة ، وهم من لا يساوي أحدنا مدّ أحدهم أو نصيفه .

وهذا عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - يقفل الباب على مناقشة أريد لها أن تبدأ ، وصمم بحزم وقوة على ألا يخوض في هذا الأمر ، والقصة

(*) المجلة العربية ، محرم ١٤١٤هـ .

يرويها البيهقي في كتابه «المحاسن والمساوىء»[1] :

«قيل أنّه حضر مجلس عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - جماعة من أهل العلم ، فذكروا علياً - رضي الله عنه - وعثمان وطلحة والزبير ، رضي الله عنهم أجمعين ، وما كان بينهم ، فأكثروا وعمر ساكت ، قال القوم : ألا تتكلم يا أمير المؤمنين؟ فقال : لا أقول شيئاً . تلك دماء طهّر الله منها كفّي ، فلا أغمس فيها لساني» .

وقد جاء البيهقي في المحاسن والمساوىء [2] ، بقصة ظن أنها تقرب وجهات النظر فقال :

«عن عبد الله بن معاوية بن جعفر قال : كان إياس بن معاوية لي صديقاً ، فدخلنا على عبد الرحمن بن القاسم بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، وعنده جماعة من قريش يتذاكرون السلف ، ففضل قوم أبا بكر ، وقوم عمر ، وآخرون عليّا ، رضي الله عنهم أجمعين ، فقال إياس : إن

(١) ص ٤٨ .

(٢) ص ٤٨ .

عليّاً، رحمه الله، كان يرى أنه أحقّ الناس بالأمر، فلما بايع النّاس أبا بكر ورأى أنّهم قد اجتمعوا عليه، وأنّ ذلك قد أصلح العامّة، اشترى صلاح العامّة بنقض رأي الخاصة، يعني بني هاشم، ثم ولي عمر، رحمه الله، ففعل مثل ذلك به، وبعثمان رضي الله عنه، فلما قتل عثمان، رحمه الله، واختلط النّاس، وفسدت الخاصة والعامة، وجد أعواناً فقام بالحق ودعا إليه».

ويبقى بعد ذلك رأي عمر بن عبد العزيز هو الراجح.

مشاجب للفكر(*)

كان قدمـاء العـرب من الأدبـاء والمفكـرين يعـرضـون فكـرهم بتركيبه على شخص مشهور، ينسبـونه إليه، يبحثون عن الشخص الذي تتلاءم الفكـرة مع تصرفاته، وبما اشتهر به بين الناس، فيجعلونـه مشجبـاً يعلّقون عليه ما لا يرغبون أن ينسبـوه إلى أنفسهم، أو ليجعلوه مقبـولاً، فجحا يركّبون عليه طرائف أفكارهم عن الحكمة أحياناً، والسذاجة أحياناً أخرى. وأشعب يجعلونه مشجباً يعلّقون عليه أفكارهم عن الطمع، والحجّاج نصيبه الـظلم والقسـوة، وإيـاس له الفـراسة والذكاء، وحاتم له الكرم. أصبح هؤلاء وسائل مواتية وسهلة تُنشر عليهـا الآراء، والأفكـار الـطريفـة المبتدعة المخترعة، ويختبىء مُنْشئُها بعيداً عنها منزوياً يرقب وقعها، وهل تقبل أو ترفض؟ وهل تنجح أو تخفق؟

(*) المجلة العربية، صفر ١٤١٤هـ.

وهذه الأفكار يقبلها كثير من الناس ؛ لأنهم في حموة الطرافة والمتعة ينسون فيها جوانب الاختلاق والتدليس ، أو لعلّهم لا يريدون أن يضيعوا هذه اللّذة بمقابلة الحقيقة ، فوجهها ليس أجمل من وجه الخيال ، الذي كلما جاء غريباً كان أجمل وأبهى .

والقصّة الآتية التي يرويها صاحب الكشكول[1] لا تخرج عن هذا النوع من القصص، وإلّا فهل يعقل أنّ إياساً ذهب هو والذين يتتبعون الرجل الذي جعله موضوع فراسته ، فيرى إياس منه ما رأى ، ثم يتأكد هو ومن معه من ظنّ إياس وحدسه وفراسته ، ثم يفسّر لهم إياس الأسس التى بنى عليها حكمه ، والظواهر التي هدته إلى ما ادّعوا ثبوت صحته .

إنَّ الأدب العربي مثل غيره من بعض الآداب مليء بالقصص المخترعة ، والخيالات الجامحة ، لأغراض متنوعة ، ومقاصد متباينة ، ولكنّها لنا

(١) ص ١/٣٨٦ .

مهمـة ، لأنها تعطينا صورة واضحة ، لتفكير أهل ذلـك الـزمن ، ومـا يجيش في نفوسهم ، ويجول في أذهـانهم ، فيخـرجـونـه بهذه الصـورة ، ليـأتي بما يرجونه ، أو ليدفع عنهم ما يخافونه :

نظر إيـاس يومـاً إلى رجـل غريب لم يره قط ، فقال : هذا غريب ، واسطيّ ، معلّم كتاب ، هرب له غلام أسود . فوُجد الأمر كما ذكر ، فقيل له : من أين علمت ذلـك؟ فقال : رأيته يمشي ويلتفت ، فعلمت أنـه غريب ، ورأيت على ثوبه حمرة تراب واسط ، ورأيته يمر بالصبيان ، فيسلم عليهم ويدع الرجال ، وإذا مرّ بذي هيئة لم يلتفت إليه ، وإذا مرّ بأسود دنا منه يتأمله» .

لم أجـد من أصـول هذه الفراسة مما يمكن أن يصدُق إلا إحمرار الثياب ، وتأمُّل الأسود ، أما أنّ الرجل يمشي ويلتفت فالغريب يفعل ذلك غالباً ، لأنـه يريد أن لا يُضيع طريق العودة ، فهو يلتفت ليرى ماخلفـه ، لأن ماخلفـه سوف يكـون عنـد

العودة أمامه، وقد يكون يلتفت لأنه مطارد وخائف .

أما أنّه يسلّم على الصبيان ، فقد يكون في شوق إلى أولاده . أمــا أنّـه يلتفت إلى ذي هيئـة فحتى لا يجلب لنفسـه الاحتجاج منهم ، لأنهم أقدر على الاعتراض لسطوتهم وقوتهم ، أو أنه يعرف أنه ليس من مستــواهم وطبقتهم . ولكن صاحب الفكـرة عندما ركّبها على إياس لم يرَ إلا حسناتها ، وإلاّ جمال الخيال فيها ، فأثبتها ، ولإياس أجر الافتراء الجميل عليه .

اللذة الحقيقية(*)

يلتذ الإنسان بالأكل بعد الجوع ، وبالدفء عند البرودة ، ويستريح بالنوم بعد التعب ، وبالركوب بعد المشي ، وبالنزول بعد الركوب ، ويفرح بالمال بعد الافلاس ، وبالعافية بعد المرض . ومتع الحياة الجسدية كثيرة ، وقد يسهو الإنسان عن المتعة واللذة فلا يذكرهما إلا عند فقدهما . ولو طلب منك أن تعدد هذه المتع وهذه اللذات لعددت ما يقرب من ذهنك منها مثلما فعل الحسن بن سهل عندما خاطب المأمون قائلاً له :

نظرت في اللذات ، فرأيتها مملولة خلا سبع :

خبز الحنطة ، ولحم الغنم ، والماء البارد ، والثوب الناعم ، والرائحة الطيّبة ، والفراش الوطيء ، والنظر إلى الحسن من كل شيء .

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩١٤٩) في ١٤١٢/١/٢هـ الموافق ١٩٩١/٨/١٠م .

والحسن هنا تحدث عن أقرب الأمور إلى ذهنه، وما يشعر به هو وأمثاله، وهي أمور جسدية تقصر بعض الهمم عن أن تفكر في غيرها، أو أن تبلغ في تصـورها إلى ما هو أبعد منها، أما المأمون الخليفة فهمّته تتعدى هذه الأمور بما يحمل من مسؤولية، وما ربّي به من تربية، وما تعوّد عليه مما يليق برأس الدولة، وفاجأ الحسن بإضافة أمر لم يخطر للحسن ببـال - وهـو الـوزير الأريب - قال له المأمون، مضيفاً إلى ما عدّدهُ الحسن:

أين أنت من محادثة الرجال؟

قال الحسن: صدقت هي أولاهن.

إن ما قالـه الحسن صحيـح، ولكن ما أضافه المأمون أهم، وإذا كان ما قاله الحسن لا يمل، فإنّه يمكن أن يستغنى بغيره عنه، أما ما أضافه الخليفة المأمون فلا يمل ولا يستغنى عنه.

خبـز الحنطة يغني عنه خبز الذرة أو الشعير أو الدخن عند الحاجة، ولحم الغنم يغني عنه أي طعام

غير اللحم عند العوز، والثوب الخشن يحتمل ولا يضر بجسم لابسه، وغياب الرائحة الطيّبة ينسي وجودها أصلا، والفراش الخشن مثل الثوب الخشن فيه السداد. والنظر إلى ما هو مجزٍ يغني عن الحسن عند انعدامه، وكل هذه مرهونة بوقتها، والناعم منها والحسن والطيب، والمتميز وقته محدود، ولذّته رهن بوجوده.

أما محادثة الرجال، فكل الصّيد في جوف الفرا، لا يغني عنها شيء، ولا تملّ، وعند انصراف الرجال بعد انتهاء الحديث، وتفرق المجتمعين، يبقى صدى محادثتهم في النفس، لا يتلاشى، ولا تنمحى آثاره، وتستعاد ذكراه في كل آن، وفي كل مناسبة، ولِيجرّب المرء أن يستغني عن محادثة الرجال، وينقطع عن مجالستهم، أو أن يجالس أشباه الرجال لا الرجال. إن هذا يؤدي به إلى الجنون بلا شك، فإن نجا منه فإنه يصبح في وضع يجد أن عقله لا ينمو، ومداركه لا تتسع، وقد يتبين فيه النقص،

لأن أحاديث الرجال وجدَلَهم، وأخذهم وعطاءهم، فيه شحذ للهمم والأذهان، ورفد للمعلومات، ومتى وقف ذهن المرء عن هذا أصبح في عداد الموتى.

ولهذا سارع الحسن بالموافقة على قول المأمون، وكأنه أوقظ من نوم، فقال للمأمون عن محادثة الرجال: هي أولى اللذات التي سبق أن عددها.

ومضة ذكاء(*)

تشدّ المرء مظاهر الذكاء وقصصه، فهي ممتعة وطريفة، وجميلة، لأنها من مصدر جميل، لأنها نتاج وعاء مكتمل الصنعة، مسدّد الجوانب.

والذكاء لا حدود له، يختلف الناس فيه ويتباينون، ولهذا فهو متنوع في صيغه وفي مداه، ويأتي الذكاء مفاجأة بالطريف والمدهش، الذي يشد ويعجب، ولعل مايزيد من الاهتمام بمظاهره أنه يأتي أحيانا من جوانب غير متوقعة، تجد شخصاً عادياً في حَيرة من أمره، فيأتي ذكي فيخرجه من حيرته بطريقة لم تخطر للمحتار ولا لغيره على بال، كان المحتار يبحث عن الحل في الشرق فيأتيه به من الغرب، ويلتمسه أحيانا بعيداً فيأتيه به من قريب، يظنه سحيقاً في العمق فيجده كان قريباً على السطح في متناول يده، يظن أنه ليس تحت مسقط نظره،

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩١٤٩) في ١٤/١/١٤١٢هـ الموافق ٢٧/٧/١٩٩١م.

فيتبين له مع الحل أنه كان تحت أنفه .

وبقدر ماتؤلم الغفلة ، ويحزن الغباء ، لأنهما يفوتان فرصاً ، ويضيعان مكاسب ، وقد يجلبان ضرراً ، فإن الذكاء يمتع لأنه لا يفلت من بين يديه منفعة ، ولا يغيب عنه مكسب ، فإذا وجدت بذرة الذكاء تفرعت أغصان شجرتها ، وبسقت ، وجاءت بظل وارف ظليل . وبعض مانلاحظه في التراث يسجل مثل هذا التميّز في الذكاء ، والإنفراد به عند بعض الناس . ويتفاوت الذكاء نوعاً وجنساً ويتفرع بتفرع المناسبة والحدث . وما سأقصه هنا ملامح من الذكاء الذي وصفته :

شهد رجل عند ابن شبرمة ، فردّ شهادته ، وقال : بلغني أن جارية غنّت ، فقلت لها : أحسنتِ . فقال : قلت ذلك حين ابتدأَتْ أو حين سكتت؟ قال : حين سكتت ، قال : إنما استحسنت سكوتها أيها القاضي .[1]

---

(١) الكشكوك ٢/٣٤٦ .

هذا نوع من الذكاء كسب به الرجل «رد اعتبار» كاد أن يفقده ، وقد قدر القاضي هذه اللفتة وقبلها ، فجاء الذكاء لصاحبه بمكسب وأي مكسب !

ويحكى النواجي في «حلبة الكميت» أن أعرابياً قصد المأمون ، وقال له : قلت فيك شعراً ، قال : أنشده ، فأنشد :

حيّـاك رب النـاس حيّـاك
إذْ بجمـال الوجـه رقـاكا
بغـداد من نورك أشـرقت
وأورق العــود بجـدواكا

فقال المأمون : يا أعرابي ، وأنا قلت فيك شعراً ، وأنشد :

حيّـاك رب العرش حيّـاك
إذْ الذي أمّـلت أخطـاكا
أتيت شـخصا خـلا كيسه
ولو حـوى شيئاً لأعطـاكا

فقال الأعرابي :

يا أمير المؤمنين ، إن بيع الشعر بالشعر ربا ، فاجعل بينهما شيئًا حتى يستطاب ، فضحك المأمون ، وأمر له بصلة .[1]

وقد يبلغ الذكاء حدًّا أبعد في التخلص من الخطر ، والوقوع على الكسب الثمين ، ويفتح باباً للخير واسعاً ، كما حدث لصاحب القصة الآتية :

أخذ مصعب بن الزبير رجلا من أصحاب المختار ، فأمر بضرب عنقه ، فقال الرجل : أيها الأمير ، ما أقبح من أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ، ووجهك هذا الذي يستضاء به ، فأتعلق بأطرافك ، وأقول : يارب سل مصعباً فِيمَ قتلني ؟ فقال مصعب : أطلقوه ، فقال الرجل : أيها الأمير ، إجعل ما وهبت لي من حياتي في خفض ، فقال مصعب : أعطوه مئة ألف درهم ، فقال : إني أشهد الله أن لعبد الرحمن بن قيس الرقيّات نصفها ،

---

(١) رحلة الشتاء والصيف ١٥٧ .

فقال مصعب : ولِمَ ذلك؟ قال : لقوله :

إنّما مصعب شهاب من اللـ
ـه تجلّت عن وجهه الظلماء

فضحك مصعب ، وقال : إن فيك لموضعاً للصنيعة ، وأمره بلزومه .[1]

(١) روضة المحبين ٢٣٥ .

الفكر والعدد(*)

أقف أحياناً طويلاً أتدبّر بعض مظاهر الفكر، وأحاول أن أسبر بعض أغواره، وأكتشف بعض مساربه، وأصل إلى بعض ما يحكمه، فأجد أثناء ذلك بعض الملامح التي يتكرر ورودها، وتتعدد صورها، ولكن تتماثل مناهجها، فأميل إلى اعتبار ذلك ظاهرة فكرية، ونسقاً عقليا، يمكن الخروج منهما بحكم يقرب من الدقة والصواب، ويكون قالبا لادخال مثيلاتهما ضمنه. ولا يعني هذا أني سوف لا أجد ما قد ينقضه أو يعدله مع مزيد القراءة والتمعن، خاصة وأن الاستقراء غير متكامل، ولكنه حكم أولي أجد في نفسي اطمئنانا إليه وقت اصداره.

من بين هذه الجوانب في الفكر المتحضر أن أجد

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩١٤٢) في ١٤١٢/١/٢٣هـ الموافق ١٩٩١/٨/٣م.

أن كثيراً من الحكماء والمفكرين يحصرون نتيجة تجاربهم ، وحصيلة تفكيرهم في أقوال وآراء يحددونها بالعدد ، وعند التدبر والتدقيق أجد أن الأمر لا يخرج عما حصروه ولو أراد أحد أن يزيد إضافة إلى ماحددوه ، أو إطلاق ماقيدوه ، أو إنقاص ماكملوه ، لوجد صعوبة أو استحالة ، وسيأتي ماقد يضاف نابياً عن القاعدة التي انطلقوا منها أساساً ، وما قد أنقصوه مخلا بما يقتضيه المنطق والتطبيق .

وما يحرصون على تحديده بالعدد قد يكون الهدف منه الإحاطة والشمول ، أو إظهار الأهمية له ، ووجوب الاعتبار ، أو شد ذهن السامع حتى ينتهي العدد الموعود بتعداده ، وقد يكون الهدف ضمان حفظه في حال روايته ، وقد وصلوا إلى ما وصلوا إليه بتجربتهم العميقة المتأنية ، التي قد تكون أخذت العمر كله في الاستقراء والمتابعة والعمق في الملاحظة . وهذا أسلوب فكري طبعي المنطق ، واضح الهدف ، مضمون النتيجة ، محقق الفائدة ،

ويليق بأمم لها حضارتها المتمكنة العريقة .

والرسول عليه الصلاة والسلام يَقْدُمُ المتكلمين في هذا ، والحكمة والصدق سمة أقواله ، ومايقوله هو قمة الفكر الصائب ، والمنطلق النبيل . وله أحاديث عديدة حصر فيها - عليه الصلاة والسلام - عن طريق العدد أموراً لا يستطيع أحد أن يضيف إليها . وفي كتب الحديث غنى للباحث في هذا ، فهناك حصر تحت عدد الثلاثة والأربعة والخمسة ، وسوف أورد نماذج مختصرة العدد لهذا ، ومن أراد المزيد فكتب الحديث ملأى بأمثالها ، وماسأذكره مستقى من صحيح سنن أبي داوود :

يقول - ﷺ - عن الثلاث : «ثلاث جدهن جد ، وهزلهن جد : النكاح والطلاق والرجعة» .

ويقول - عليه السلام - عن الأربعة : «أربع من كن فيه فهو منافق خالص . . . إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر» .

ويقول - عليه الصلاة والسلام - خمس تجب للمسلم علي أخيه المسلم : «ردّ السلام، وتشميت العاطس، وإجابة الدعوة، وعيادة المريض، وإتباع الجنازة» .

لو أراد أحد أن يزيد على ما حُدد بالعدد لم يستطع إلا أن يخرج عن الإطار المرسوم، ويدخل في إطار آخر .

وهناك حصر فيها قد يكون أثراً يقول : «ارحموا ثلاثة : عزيز قوم ذلّ، وغنيّا افتقر، وعالما بين جهال»[1] .

ولو أردت أن تدخل رابعاً لما استطعت في حدود ما رمى إليه المعنى في الإطار الموضوع لهذا النوع من الرحمة .

وخذ مثلا قول الحسن : الرجال ثلاثة : فرجل كالغذاء لا يستغنى عنه، ورجل كالدواء لا يحتاج

(١) محاضرات الأدباء ١٩١ .

إليه، إلا حينا بعد حين، ورجل كالداء لا يحتاج إليه أبداً[1].

ولن تجد رجلا ثالثاً يشاركهم فيما حدد الحسن لهم من زاوية فكرية عينها.

وقال زيد بن علي: ثلاث لا يسأل الإنسان عنها: ما ينفقه في مرضه، وما ينفقه في إفطاره، وما ينفقه على ضيفه[2].

وليس من بين هذه الثلاث ما يمكن حذفه، وليس هناك ما يمكن إضافته كذلك، ولو فعل أحد هذا لتعرض للجدل المفحم.

وقال يونس النحوي: الأيدي ثلاث: يد بيضاء، ويد خضراء، ويد سوداء، فأما اليد البيضاء هي الابتداء بالمعروف، واليد الخضراء هي المكافأة على المعروف، واليد السوداء هي المنّ بالمعروف[3].

---

(١) العقد الفريد ٢/٩٣.

(٢) محاضرات الأدباء ١٩١.

(٣) الكشكول ٢/٩.

ولو حاولت أن تضيف يداً حمراء أو صفراء لخرجت عن نطاق المعروف الذي حصر فيه القائل قوله . ولا أكتم القارىءأني قبل أن أقرأ توضيح الأيدي الثلاث حاولت أن أفسرها بتفسير أسابق فيه القائل فجعلت اليد الخضراء هي الشاكرة على المعروف ، وبعد أن عرفت أنها المكافأة على المعروف ظننت أني يمكن أن أضيف يداً أسمها الشاكرة على المعروف ، ولكني تذكرت أن المكافأة شكر ، فانهزمت راضياً قانعاً .

وقيل : «كل الدنيا فضول إلا خمسة : خبز تسيغه ، وماء تروى به ، وثوب تستر به ، وبيت تسكنه ، وعلم تستعمله[1] .

وأي إضافة على هذه الخمسة تدخل في الفضول المحذر منه .

وقال الخليل بن أحمد : الرجال أربعة : رجل يدري ويدري أنه يدري ، وذلك عالم فسلوه ، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك الناسي

(١) الكشكول ٢/١١٣ .

فذكروه ، (أو الغافل فنبهوه) ، ورجل لا يدري أنه لا يدري فذلك الجاهل فعلموه ، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك الأحمق فارفضوه[1] .

ولو أراد أحد أن يزيد هؤلاء الرجال الأربعة خامساً لما استطاع إلا إذا جازف بما يربك الترتيب ، ويفقد المنطق مجراه .

والأيام لها حصر عند بعض المفكرين :

الأيام خمسة : يوم مفقود ، ويوم مشهود ، ويوم مورود ، ويوم موعود ، ويوم ممدود ؛ فالمفقود أمسك الذي فاتك مع ما فرطت فيه ، والمشهود يومك الذي أنت فيه ، فتزود فيه من الطاعات ، والمورود هو غدك ، لا تدري هو من أيامك أم لا ، والموعود هو آخر أيامك من أيام الدنيا ، فأجعله نصب عينيك ، والممدود هو آخرتك ، وهو يوم لا انقضاء له ، فاهتم له غاية اهتمامك ، فإنه إما نعيم مقيم دائم ، أو عذاب مخلد[2] .

---

(١) العقد الفريد ٢/٢٩٣ .

(٢) الكشكول ١/١٥٥ .

أما العلم فيقول عنه الشعبي : العلم ثلاثة أشبار ، فمن نال منه شبراً شمخ أنفه ، وظن أنه ناله ، ومن نال الشبر الثاني صغرت إليه نفسه ، وعلم أنه لم ينله ، وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد أبداً[1] .

ولا أظن الشعبي إلا صادقاً ، فقد حاولت أن أخرج الأمر عن هذه الأشياء الثلاثة فوجدت أن وعاء الصواب في هذا الجانب يجلس متمكّنا على هذه الأثافي الثلاث الراسية الصلبة ، وهو مستقرّ عليها ، ولا يمكن زحزحته لإدخال رابع .

وهذا يحيى بن خالد البرمكي ، وهو من عرف بعقله ورزانته ، وعراقته في فنون الأدب العربي وفكره ، يحصر الأمور التي تدل على عقول الرجال ، فيقول إنها ثلاثة : الهديّة ، والرسول ، والكتاب[2] .

وهذا حصر دقيق ينمّ عن ملاحظة ثاقبة ، وفكر

---

(١) أدب الدنيا والدين ٨٤ .

(٢) المحاسن والمساوىء ١٥٦ .

صائب، فهذه الأمور الثلاثة هي النوافذ التي منها يُطَلُّ على عقول الرجال، وهي مرآة صاحبها.

ولو تتبع المرء هذا الجانب في التراث العربي والإسلامي لوجد مُدّخرًا كثيراً، يكاد لا يحصى، في جوانب الحياة، مما يدل على أمور كثيرة: منها الترتيب والتنظيم الذي يحرص عليه الفكر العربي والإسلامي، والاستقصاء الخَفيّ لاستيعاب الأمر المراد الحديث فيه، وقصد اكتمال الفائدة، فالتعداد يساعد على التذكر، وكد الذهن في عدم نسيان ما يحيط بهذا العلم أو ذاك.

وفي الوقفة عندما حُصر بالعدد وحُدد، وعند محاولة الزيادة فيه أو النقصان، رياضة فكرّية ممتعة، لا يلبث من يحاولها أن يدرك المتعة والطرافة التي تصاحب ذلك، وما على المرء إلا أن يحاول ذلك فيها، وسيلمس صدق ما ذكرته.

حفظ القليل يأتي بالكثير(*)

العرب يفاخرون بالكرم، ويعتبرونه من أبرز صفات المفاخرة بينهم، وذلك يعود إلى ظروف حتمتها بيئتهم ومعيشتهم، ومع ذلك فهم يكرهون التبذير، وينتقدون الاسراف في الانفاق، ويذمون مرتكبهما، ويلومونه وينتقدونه. وللكرم عندهم حدود وقواعد، وللاسراف والتبذير حدود واعتبارات، وحدود هذا لا تتداخل مع حدود ذاك.

ومنطلق رأيهم في التبذير واستهجانه يأتي من فكر صائب، لأن التبذير إضاعة للمال لا مبرر لها، وأن تعمل شيئًا بلا هدف، أو يأتيك بضرر، فهذا عندهم حمق وخرق، وإذا رأيت في أمرٍ منفعة دون مؤونة، ولم تهتبل الفرصة فتستفيد فأنت ملوم، وموصوف بالتفريط والنزق. ثم هناك في عدم

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩١٦٤) في ١٤/٢/١٤١٢هـ الموافق ٢٤/٨/١٩٩١م.

التبذير والتفريط رياضة نفسية يمرّ بها الإنسان يحمد عقباها ، لأنّه بذلك يعوّد نفسه على عملٍ ينفع مهما صغر ، والاستمرار على هذا العمل الصغير الدائم يأتي بالكثير .

لعل القصة الآتية المأخوذة من التراث عن شخص له احترامه وتقديره في مجتمعه ، توضح ما رميت إليه فيما قلته :[1]

أَتَى قوم قيس بن عبادة ، يسألونه في حمالة (دَينٍ أو دية) ، فصادفوه في حائط له ، يتبع ما يسقط من التمر ، فيعزل جيده عن رديئه ، ويجعل كل صنف على حده ، فهمّوا أن يرجعوا عنه ، وقالوا : ما نظن أن عند هذا خيراً . ثم عزموا على لقائه ، فأقاموا حتى فرغ من حائطه ، فكلموه فأعطاهم . فقال رجل من القوم له : لقد رأيناك تصنع شيئًا لا يشبه فعالك ، وأخبروه [بما رأوه] . فقال : إن الذي رأيتم من صنيعي قضيت به حاجتكم .

(١) محاضرات الأدباء ١٨٠ ، المحاسن والمساوىء ١٩٠ .

ومن المحافظة على الشيء القليل ، توافر الكثير . وقيس بن عبادة لم يتورع عن أن يظهر بهذا المظهر الذي أساء فيه ظن قاصديه ، ولم يتوكل على غيره ، ولم يخجل من عمله ، لإيمانه بما يفعل ، وثقته بالمردود الـذي سوف يأتي منه . وعين الله ترعى أمثاله ممن يهتم بنعمة الله ، فالتمر المتساقط نعمة من الله ، لم يرض لها قيس أن تمتهن ، لا في تركهـا في مكـانها المهين ، ولا في تقليل شأنها ، ومن عمل شيئاً لله فالله أكرم منه في ثوابه . وثواب عمل مثل هذا لا يلتفت إليـه الـطامعـون الشرهـون ، ولا يأبه له إلاّ ذوو البصـائـر النـيّرة ، الذين وفقهم الله إلى أن يكونوا أقوى من أنفسهم التي تطلب الراحة ، وتنشد الكثير والكبير وذا البهرج .

ويبدو أن قيسا هذا له مثيل من طينة زكية النسب والأصـل ، ومن تربيـة موفقـة ، قائمة على أساس سليم ، فهنـاك موقف يماثـل ذلك الموقف ، وكان ملفتـاً للنـظر ، ومـوجبـاً للتسجيل ، دليل أنه غير متوافر في مجتمعه :

يقول صاحب المحاسن[1] :

أتى رجل طلحة بن عبيد الله يسأله حمالة ، فرآه يهنـأ [يطعم] بعـيراً له ، فقال : يا غلام اخرج له بدرة ، فقبضها ، ثم قال : أردت أن أنصرف حين رأيتـك تهنأ البعير ، فقال : إنا لا نضيع الصغير ، ولا يتعاظمنا الكبير .

(١) ص ٢٩٠ .

تجارة رابحة(*)

التجارة مهنة تلعب دوراً مهمّاً في حياة الأمم منذ أقدم العصور، وستبقى كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وكل زمن من الأزمان يضع أهله أسساً وشروطاً لنجاح تجارتهم ورواجها، وكثرة الكسب والربح فيها، ولكنْ هناك أسس ثابتة مع الزمن لا تتغير منها الصدق والاعتدال، وهما أساسان من أسس التجارة الناجحة الرابحة دائماً، ومن منطلقهما يستطيع المستجد في التجارة أن يجد طريقه إلى العمق الاقتصادي، وكسب التجارب، وتشكيل عمله في ضوء ما يخزنه منها، وما يستفيده من متنوعها.

والقصة الآتية حدثت في الماضي، وهي من التراث المحفوظ في الكتب، والذي يصلح أن يبرز لا للمفاخرة به فقط على أنه إنجاز فكري، ونمط

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩١٧٠) في ١٤١٢/٢/٢١هـ الموافق ١٩٩١/٨/٣١م.

خُلُقي، ومظهر حضاري لحياة عاشها آباؤنا، ولكن لتكون تذكيراً لتجار اليوم إن أرادوا النجاح والبقاء في مضماره:

«قال الأشبح الصيدلاني: مرّ بي رجل، فرأى قلة النـاس عندي، وكثرتهم عند غيري، فقال: أتريد أن تكثر مبايعتك؟ ويحسن حالك؟ قلت: نعم. فقـال: إصـدق وأصبر سنة، فإن الصدق يستحي لنفسه أن يبطىء عنك الربح أكثر من سنة. ففعلت، فكثـر زحام الناس عند حانوتي، ثم مرّ بي، فرأى كثـرة النـاس عنـدي، فقال: احذر، ولا تتكـل على ما وهمتهم من الصـدق، فتـدعـوك نفسك إلى ضعف ربحك اليوم، فإنك إن عدت إلى الكذب عاد عليك الكساد.

فلم أزل قابـلا لوصيته، ثم مرّ بعد سنيّات، فقال: قليل الربح مع كثرة الحرفاء (الزبائن) أربح من كثيره مع قلة الحرفاء. ولو حلفت أنها كلمة نبي لرجوت ألا أحنث. ثم لم أره بعد ذلك»[1].

(١) محاضرات الأدباء ١٧٨.

وعبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - كان رجلا مباركا له في تجارته ، وهذا قد يكون له سرّ ، وهذا السرّ أو بعضه لا يخفيه عبد الرحمن بن عوف ، بل يعلنه ، وفيه من عناصر جلب الربح ، وازدهار التجارة ، وإرضاء المشترين ، ما يضاف إلى ما ذكرناه من عناصر ، يقول رضي الله عنه ، عندما سئل : بم بلغ يسارك ؟ فقال : لم أردّ ربحاً ، ولم أشتر عيبا ، ولم أبع بنسيئة[1] .

ولعل مسك الختام في هذه القواعد التي وضعها علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - للتجار ، وقد بلغها لهم بنفسه ، وكررها عليهم ، فقد قال شريح :

مررت مع علي بن أبي طالب - عليه السلام - في سوق الكوفة ، وفي يده الدرة وهو يقول : يا معشر التجار :

«خذوا الحق ، واعطوا الحق ، تسلموا ، لا تمنعوا قليل الربح فتحرموا كثيره»[2] .

---

(١) محاضرات الأدباء ١٧٨ .

(٢) وكيع ٢/١٩٦ .

مجلسك ما لا تقام منه(*)

الجلوس في مجتمـع القوم، عند حاكم، أو في حفـل عرس، أو منـاسبـة تكـريم، أو الاستماع لمحــاضرة، أو لمشــاهـدة عرض تحكمـه أصـول وقواعد، أمر يأخذ حيّزاً، من تفكير كثير من الذين يحضرون هذه المجتمعـات، وقد يكون الحكم في هذا للجهـة التي نظمت هذا الاجتماع، وأشرفت على ترتيبـه، وأحيـاناً يحكم الأمر ذوق الجالس، ووزنـه للأمـور، أو مايشعـر به داخل نفسه من الكمال أو النقص، تجد شخصاً يتقاصر في اختياره مجلسه، وآخر يتطاول في ذلك، فيعطى نفسه أكثر من حقها، فيجلس في مكان لا يجلس فيه أمثاله، بل يجلسون دونه، وقد يهان هذا المتعدّي حدّه، من قِبل من يملك الإهانة، وقد تكون الإهانة شديدة، وقـد تكـون مخففـة، كأن تأتي بطريقة التلميح أو

(*) نشرت في صحيفــة عكــاظ بالعـدد (٩١٧٧) في ١٤١٢/٢/٢٨هـ الموافق ١٩٩١/٩/٧م.

المـزاح أو التصريح المؤدب، ولكن مرماها في كل الحالات التعليم والتأديب، ووضع الأمر في نصابه.

وفي الـتراث المحفـوظ لنـا مايدل على أن أمـر جلوس الشخص في المكان المتوقع له أن يجلس فيه كان يشغل ذهن الناس، وهذا أمر طبيعي لأن هذا الأمـر لا يختص بزمن دون زمن، واقتباس ما ورد عنهم هنا يظهر مدى اهتمامهم بهذا الأمر، وما وصل إليه تفكير بعضهم فيه:

فالأحنف بن قيس - رئيس قبيلة كبرى - وله عقل، واتّزان، وتجارب اكتسبها على مرّ السّنين، مع الاحتكاك بالرجال، ومجالستهم، وقدح الفكر معهم. وقد نقل عنه قوله:[1]

«ماجلست مجلسـاً خفت أن أقـام منه لغيري»

وهذا أدب أخذ به نفسه، والقوي حقاً هو من غلب نفسه، وطوّعها. والأحنف هنا قد حماها بأدبه هذا

---

(١) محاضرات الأدباء ٢٣٢، وبهجة المجالس ٤٧.

من أن تذلّ أو تهان ، أو يغمز جانبها .

والشعبي له من الحكمة والدراية والعلم والتبصر في أمور الحياة ما جعله يقول :[1]

«لأن أُدعَى من بعيد أحبّ إليّ من أن أدفع من قريب» .

ولا يعـرف مدى حسن هذا الاختيار ، وصدق هذا الأدب ، وجمال هذه التربية والتصرف إلا من رأى مثـل هذه المواقف ، أو جرّبها ، أو سمع ممن شاهـدهـا ، ومـا وقـع فيهـا . وقد اختار الشعبي التكريم عن الإهانة ، وراحة البال عن شغله ، وما يوجب الاحترام عن الاحتقار .

ولا يعيب الجالس أن يجلس في طرف المجلس إذا كان واثقا من مكانته فقد قيل في مثل هذا :[2]

«الاطراف مجالس الاشراف» .

ومن مستلزمـات الشرف أن يخلو الإنســان من

(١) محاضرات الأدباء ٢٣٣ ، وبهجة المجالس ٤٧ .

(٢) محاضرات الأدباء ٢٣١ ، والبيان والتبيين ٢ / ٢٠٠ .

العقد النفسيّة ، التي تعتبر مرضاً يخدش النفس وعزّتها .

وكثير من العقلاء يبتعد عن صدر المجلس ، لأن من يجلس فيه أقرب إلى أن يقام منه ، لأنه قد يأتي من يستحقه ، فيكون قيام من كان جالساً فيه ملفتاً للنظر ، وجالباً للانتباه ، ومؤكداً للرتب التي قد لا يكون هناك داع لإثارتها أو الشك فيها . ولهذا يقال فيما دون في كتب التراث :

« إياك وصدر المجلس وإن صدّرك صاحبه ، فإنه مجلس قُلعةٍ » .[1]

هذه حكمة ثمينة ، وملاحظة صادقة ، وحصيلة تجربة متبصرة جاءت زبدة في الكلام ، فاحْرِ بها أن تجد أذناً واعية .

وزياد بن أبي سفيان حاكمٌ عرك الحياة ، وجرّب حلوها ومرها ، ومارس أمورها ، واحتك بالرجال ، وعرف ما له وما عليه ، يلقي هنا بما اختاره لنفسه في

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٢٢٠ .

الحياة في هذا الصدد فيقول :

«ما أتيت مجلساً إلا تركت منه ما لو أخذته كان لي . وتَرْكُ ما لي أحب إليّ من أخذ ما ليس لي» .[1]

قرن زياد هذا الأمر في الجلوس ، واختيار الصدر أو التنازل عنه ، بالتسامح ، وهو فضيلة كبرى ، فجعل لرأيه الذي أبداه ، والمبدأ الذي دعا إليه قيمة ، ووجهاً منيراً ، وباطناً مضيئاً . وهو هنا يلمح إلى الابتعاد عن شبهة أخذ الإنسان ما ليس له ، وهو اعتداء ، والاعتداء رذيلة يبتعد عنها أصحاب النفوس العالية ، والابتعاد عن الاعتداء ، أو الحوم حول حماه ، كرم يدخل في باب العطاء السخي .

وكعب الأحْبار شخص عرفه التاريخ وأبرزه ، وله من العلم ما جعله مكمن حكمة وأخبار ، أبان رأيه في أمر الجلوس ، ومكانه من مجلس أمير المؤمنين عمر في القصة الآتية :

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٢٢٠ .

«تبـاعـد كعب الأحْبار يوماً في مجلس عمر بن الخطاب ، فأنكر ذلك ، فقال : (يا أمير المؤمنين إن في حكمـة لقمان ، ووصيته لابنه : إذا جلست إلى ذي سلطان فليكن بينك وبينه مقعد رجل ، فلعله يأتيه من هو آثر منك ، فينحيك ، فيكون نقصا عليك)» .[1]

من هذا النص نرى أن الأمر كان قد أهم القوم من أيام لقمان ، ولعله أيضا من زمن قبله ، وقد أهم لقمان إلى درجة أنه جعله من ضمن ما أوصى به ابنه .

والاهتمام بهذا الأمر واضح عند الرجال الذين يقدرون كمال الأقوال والأعمال ، فزياد الذي روينا قوله من قبل ، نعود فنقتبس له قولاً آخر ، وفي هذا دليـل واضـح ، وبرهان جليّ ، على أن هذا الأمر يشغل حيزاً عريضاً عميقاً في ذهن زياد :

«قال زياد : إنه ليعجبني من الرجال مَنْ إذا أتى

(١) بهجة المجالس ١/٤٨ .

المجلس أن يعرف أين يكون مجلسه، وإني لآتي المجلس فأَدَعُ ما لي مخافة أن أُدفع عما ليس لي» .[1]

وقد تداخلت عناصر هذا النص مع عناصر النص السابق، وهذا يظهر أن زياداً يجيل الأمر في ذهنه، ويجتره، فيخرج بما يرجو أن يكون نظاماً يتبعه الناس في مجلسه، وهو عامل الخليفة في العراق، ولعله عانى كثيراً ممن لا يراعي أصول الجلوس في مجلسه، مما يضعُه في موقف حرج، فإمّا أن ينبه المتعدي على حق غيره، وفي هذا بعض الجرح لإحساس المنبَّهِ، أو يسكت على مضض، وقد يُؤخذ هذا من قبل المُتَعَدَّى على مكانه أن هذا برضى منه أو تشجيع، ولهذا يأتي بالحكمة عامة سابحة في مجلسه، لعل من عني بها يلتقطها .

وعبد الله بن مسعود بعلمه وفضله ساهم بالقول في الأمر، وأدلى فيه بدلو، يقول :

«إن من التواضع الرضا بالدون من شرف

(١) بهجة المجالس ١/ ٤٨ .

المجلس ، وأن تسلِّم على من لقيت» .[1]

وعبد الله بن مسعود أحب مثل زياد أن يقرن قوله بفضيلة ، فقرنه بفضيلة إفشاء السلامِ ، فجعل لحكمته التي أطلقها في أول الجملة سنداً قوياً من صفات الخلق الحميد .

ولقد أجاد الشاعر عندمَا أبدى رأيه في هذا الأمر المطروح ، فقال البعيث بن حريث :

وإن مكاني في النديّ ومجلسي
له الموضع الأقصى إذا لم أقرّب
ولست وإن قرّبت يوما ببائع
خلاقي ولا ديني ابتغاء التجنب
ويعتده قوم كثير تجارة
ويمنعني من ذاك ديني ومنصبي[1]

وأبيات البعيث تزخر بالتعليلات المنطقية ، وتكشف عن فلسفة مقبولة انطلق منها البعيث في

---

(١) بهجة المجالس ٢/٢٤٦ .
(٢) بهجة المجالس ١/٤٧ .

اتخاذه هذا المذهب، واختياره لهذا الأسلوب في الحياة.

ولعل من طريف القول، وتبيان بعض جوانب ما ذكرنا أن نأتي بأنموذج ممن قربوا أنفسهم وليسوا أكفياء للقرب، ومن ابتعدوا وهم أحق بالاقتراب:

«حدّث محمد بن إسحاق النديم قال: كان ابن عبيد وابن قادم يؤدبان ولد المتوكل، قال: لما أراد المتوكل أن يتخذ المؤدبين لولده، جعل ذلك إلى إيتاخ، فأمر إيتاخ كاتبه أن يتولى ذلك، فبعث إلى الطّوال والأحمر وابن قادم وابن عبيد هذا وغيرهم من أدباء ذلك العصر، فأحضرهم مجلسه، وجاء ابن عبيد، فقعد في آخر الناس، فقال له من قرب منه: لو ارتفعت، فقال: بل أجلس حيث انتهى بي المجلس. فلما أجتمعوا قال لهم الكاتب: لو تذاكرتم وقفنا على موضعكم من العلم، واخترنا، فألقوا بينهم بيت ابن عنقاء الفزاريّ:

ذريني إنما خطئي وصوبي
علي وإنما انفقت مال

فقـالـوا : ارتفع «مال» «بإنّما» إذا كانت «ما» بمعنى الذي ، ثم سكتوا ، فقال لهم أحمد بن عبيد من آخــر النــاس : هذا الإعـراب ، فما المعنى؟ فأحجم النـاس عن القـول ، فقيل له : فما المعنى عندك؟ قال : أراد ما لومك إياي؟ وإن ما أنفقت مال ، ولم أنفق عرضا ، فالمال لا ألام على إنفاقه ، فجـاءه خادم من صدر المجلس فأخذ بيده ، حتى تخطى به إلى أعلاه ، وقال له : ليس هذا موضعك ، فقال : (لأن أكون في مجلس أرفع منه إلى أعلاه ، أحب إليّ من أن أكون في مجلس أحطّ عنه) . فاختير هو وابن قادم» . [1]

وجـاء هذا التصرف من أحمـد بن عبيـد مطبقاً للحكمة ، وقد نفعه علمه بها .

---

(١) معجم الأدباء ٣/ ٢٢٩ .

حجج دامغة(*)

يزخر تاريخ الأدب العربي بإضاءات في الفكر والتعبير ، تدل على أذهان صافية ، وقدرة على التبصر والتدبر ، وملكة في التعبير عما يوصل إليه الفكر ، وتؤدي إليه التجربة وتظهر هذه في حجج يأتي بها أصحابها صافية نقية معبرة ، لا يمكن للمرء إلا أن يسلم بها ، بل ويعجب بها ، فيتخذها ذخراً ، وسلاحاً يبرزه عند الحاجة ، وحجة يتذرع بها عند المُحاجَّة .

وهذه الأفكار تأخذ مناحي مختلفة ، سأختار بعضها مثالاً يُري صفحة ناصعة من حياة أجدادنا الفكرية ، والطرق التي تسير عليها .

كلنا يشعر - إذا كان طبعيّاً - بضيق وحرج عندما يُمدح في وجهه ، ويتلمس الأقوال المناسبة ليخرج من مواقف المدح الذي يزجى له في وجههِ ، وقد قال

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩١٨٤) في ٦/٣/١٤١٢هـ الموافق ١٤/٩/١٩٩١م .

الناس أقوالا في هذا صارت أمثالاً ، تنبه المادح إلى هذا المسلك المنتقد ، وتدل على ضيقهم وخجلهم وأنفتهم من هذه المـواقف ، منهـا أقوال للعامّة في لغتهم الـدارجـة ، ومنهـا أقوال للخاصة في اللغة العربية الفصحى .

ولهشام بن عبد الملك موقف ممن مدحه في وجهه ، نبهه فيه إلى خطأ هذا المسلك ، ولكن المادح جاء بحجـة جذّابـة ، قبلهـا هشـام ، واعتبرها دامغة ، وأجازه عليها .

مدح رجل هشام بن عبد الملك ، فقال : يا هذا ، إنّه قد نهي عن مدح الرجل في وجهه ، فقال : ما مدحتـك ، ولكن ذكّرتك نعم الله عليك ، لتجدد لذلك شكراً ، فقال هشام : هذا أحسن من المدح ، فوصله وأكرمه . (١)

وتأخذ الحجة المسكتة في المثل الآتي منحا آخر طريفاً ومتدرجاً ، وتنتهي بالاسكات الملجم :

---

(١) الكشكول ١ /٣٣٨ .

مرض نصر، فعاده أبو صالح، وقال: مسح الله ما بك. فقال نصر: قل: «مصح» بالصاد. فقال له أبو صالح: تُبدَل من الصاد كما في «الصِّراط» و «صَقَر». فقال له نصر: إن كان ذلك فأنت إذاً أبو سالح. فخجل من كلامه.[1]

أما القاضي إياس، المعروف بذكائه الخارق، وردّه الحاذق منذ أن كان صغيراً، فقد تمكّن - ولا غرابة - أن تكون له اليد العليا في الجدل مع من انتقد سرعة إصداره الأحكام. ولا يسع المرء إلا أن يعجب بسرعة بديهته، وبساطة المثل الذي ضربهُ، وقوة الحجة التي قدمها، ووضوحها للصغير والكبير، والعالم وغير العالم.

قيل لإياس القاضي: لا عيب فيك إلا أنك تعجّل في القضاء، من غير تروّ فيما تحكم به، فرفع كفّه، وقال: كم اصبعا؟ فقالوا: خمسة. قال: عجلتم، هلا قلتم: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة؟

---

(١) الكشكول ٢/١٤٧.

فقالوا : لا نعدّ ما عرفناه . فقال : أنا لا أؤخر ما تبيّن لي الحكم فيه .[1]

وللعلماء الفطاحل مداخل تنمّ عن ذهن صاف ، ومقدرة فائقة ، وإذا كان الجدل والنقاش بين اثنين منهم فأنت في روض يانع من الحجج الباهرة . هذا الضحاك لا يرى التحكيم وأبو حنيفة يراه ، ولقد استدرج أبو حنيفة الضحاك إلى الاقرار بالتحكيم دون أن يدري أنـــه مستـــدرج إلى فخ منصـوب بإتقان ، وانتهى الأمر قبل أن يبدأ ، وانتهى بحجة دامغة . قيل :

إن الضحاك لم يكن يرى التحكيم ، وكان أبو حنيفة يراه ، فدعاه إلى المناظرة ، فقال أبو حنيفة : إن اختلفنـا فمن يحكم بيننا ؟ قال : اختر . قال : اخترت فلانا من أصحابك . قال : فناظرني . قال : قد ناظرتك وغلبتك ، أنت جوّزت التحكيم .[2]

---

(١) الكشكول ٢ / ٣٣٩ .

(٢) رجال من التاريخ ١٠٧ .

كأنّ أبا حنيفة والضحاك يلعبان لعبة الشطرنج . حَبَل أبو حنيفة للضحاك ، ونصب له فخا موهما ، ثم عنـد أول تحرك من الضحاك هجم أبو حنيفة وأنهى الأمر ، ونبّه الضحاك إلى أنه خسر الجولة .

واسمع إلى ما جرى بين معن بن زائدة والخليفة المنصور : قال المنصور لمعن : ما أكثر وقوع الناس في قومك يا معن ! فقال معن : يا أمير المؤمنين :

إن العـرانـين تلقـاهـا محسـدة
ولن ترى للئام الناس حسادا[1]

ولا تخص الحجة الدامغة علية القوم ، أو أواسطهم ، ولكنهـا حكمـة قد يعثـر عليهـا حتى المتسولون ، فبعضهم لديـه من الـذكاء ، واتقان الحيل ، وقوة المنطق ، وسرعة البديهة ، ما تعجب أنه لم يصرفه في مهنة أشرف من رذيلة التسول :

اجتاز أحد السُّؤَّال بقوم يأكلون . فقال : السلام عليكم يا بخـلاء ! فقـالوا له : أتقول إنّا بخلاء ؟

(١) رجال من التاريخ ٣٥٠ .

قال : كذبوني بكسرة .[1]

وهـذا شخص ليس في القمّـة ولا في السهل ، ولكنـه من عرض المجتمـع ، يقف أمـام غرمائه ، ويدفعهم بحجة دامغة ، جعلها تمر بمراحل ، فيها ختل ، ونصب شباك ، وإيقاع في فخ ، واستدراج متقن ، قد لا يتأتى النجاح في أمثاله إلا لمحام لوذعي بارع .

قدم قوم غريمهم إلى الوالي ، وادّعوا بألف درهم . فقال الوالي : ما تقول ؟ فقال : صدقوا فيما يقولون ، ولكن إسألهم أن يمهلوني لأبيع عقاري وإبلي وغنمي ، ثم أوفيهم . فقالوا : أيها الوالي ، قد كذب ، والله ما له شيء من المـال ، لا قليـل ولا كثـير . فقـال : قد سمعت شهادتم بإفلاسي ، فكيف يطالبونني ! فأمر الوالي بإطلاقه .[2]

ويضـع شخص سلّما يرقى عليـه غريمه إليه ،

---

(١) الكشكول ١/٤٤١ .

(٢) الكشكول ١/١٩٣ .

ويضع في يد غريمه سلاحا يغلبه به ، وحجة يسكته بها ، لأن الأول قال قبل أن يفكر في عاقبة القول ، وما قد يأتيه من ورائه من دعوة لو أمّن عليها فهي لصالح الآخر وليست لصالحه ، لعلمه أنها مبنية على أساس قولِهِ غير الصادق :

كتب شخص يطلب من صديق له شيئًا ، فكتب إليه الصديق على ظهر الورقة : إني لست قادراً على دانق لضيق يدي . فكتب الصديق إليه : إن كنت صادقا كذبك الله ، وإن كنت كاذبا صدقك الله .[1]

وهـذه القصّة تذكرني بقصة أحد الحُجاج وقد غضب منه آخر لا يعرف لغته ، فقال قولا استشف منـه أنه قد يكون دعاءًا عليه ، فقال له : إن كان ما قلت خيراً فلي ولك ، وإن كان غير ذلك فهو لك وحدك ، وحماني الله منه .

ويفـاجأ كعب بن جعيل ، المطمئن إلى مسلك شائن من الهجاء ، عدداً من السنين ، بما يخرجه من

(١) الكشكول ١/٢٨٨ .

اطمئنانه وسدرته وغفلته ، يقول :

مكثت دهراً أهجو الناس ، ولا أُهجى ، حتى انبرى لي غلام من تغلب ، فقال :

تسـميت كعبا بشـر العـظام
وكـان أبـوك يسـمى الجعـل
وأنـت مكـانـك مـن وائـل
مكان القراد من است الجمل[1]

فما رفعت رأسي حتى الساعة . أجل إنها حجة دامغة ، فما زاد عن أن جعل له من اسمه نصيب ، ثم جلّله بجلال مخزٍ .

وقد يبدو أمرٌ ما معقولا ومقبولا ، ومتعارفاً عليه بين الناس ، حتى يقف في طريقه ما يعترضه مما ينبه إلى أن هناك ما هو أهم مما هو متعارف عليه ، فالرحمة وطلبها أمر مقبول ومتوقع ، ويلينّ القلوب ، والنفوس ترجو إذا رحمت أن يأتيها على ذلك الثواب ، ومن عفا فأجره على الله ، ولكن المأمون

(١) المحاسن ٢٣١ .

عنـدما طلب منه مذنب أن يرحمه عندما قدم ليقام عليه الحد، تذكر - وهو الفقيه - أنه لا يملك أن يرحم. والقصة تجري وقائعها هكذا:

«أُتي المأمـون برجـل وجب عليـه حدّ، فأمـر بضربه، فقال: قتلتني. قال: الحق قتلك. قال: ارحمني. قال: لست بأرحم ممن أوجب الحدّ عليك». [1]

وقد يأتي سؤال للتعجيز أو التحدّي، أو يكون مبعثه الحيرة، فإذا ما ألقي على من هو أهل للرد جاء كما رد عبد الله ابن عباس - رضي الله عنهما - عندما سئل: أين تذهب الارواح إذا فارقت الاجساد. فقال: أين تذهب نار المصابيح عند فناء الأدهان. ولعـلّ السائل لم يكن ليجاب بأكثر من هذا حتى لا يدخل في غبة لا يحسن السباحة فيها. [2]

ولعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ردٌّ على

---

(١) محاضرات الأدباء ٨٥.

(٢) أدب الدنيا والدين ١٥.

هذا النهج ، ولهذا النوع من الناس ، ولعل الجواب أذهل السائل الذي كان ينتظر رقما قياسياً :

قيل لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - كم بين السماء والأرض؟ قال : دعوة مستجابة ، قيل : فكم بين المشرق والمغرب ؟ قال : مسيرة يوم .[1]

ما أكثر الحجج الدامغة المدونة في أدبنا العربي ، وتكاد من كثرتها لا تحصى ، وقد ذكرنا قول سائل سد على المتصدقين باب الرفض ، وأغلق عليهم نوافذه ، وهذا آخر يسلك مسلكا شهد له فيه الحسن البصري :

وقف أعرابي على حلقة الحسن البصري فقال :

« رحم الله من تصدق من فضل ، أو واسى من كفاف ، أو آثر من قوت ! » فقال الحسن البصري : « ما ترك الأعرابي منكم أحداً حتى عمه بالسؤال » .[2]

---

(١) أدب الدنيا والدين ١٦ .

(٢) ثمرات الأوراق ١٢٠ .

ولعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رد دامغ :

قال عمر بن الخطاب : «إن في يوم كذا وكذا من شهر كذا لساعة لا يدعو الله فيها أحد إلا استجيب له» ، فقال له قائل : «أرأيت إن دعا فيها المنافق !» قال : فإن المنافق لن يوفق لتلك الساعة» .[1]

هيبة الكتابة(*)

للكتابة هيبة ، ولها رهبة ، يشعر بذلك الكاتب الأصيل عندما يريد أن يكتب ، ويتردد في الإقدام عليها ، وذلك لخوفه أحيانا من عدم إعطاء الموضوع حقه ، لعدم توفر أركان الوفاء فيه ، مثل نقص الوثائق ، أو الشك فيها ، أو انعدام الثقة في رواتها . فيتحرج المعالج للموضوع من طَرْقه ، لأن في الأمر ذمّة يلزم الوفاء بها ، وخوفاً من الله يجب أن يجعله أمام عينيه . وهذا يفسر وجود رجال كفيئين كان بإمكانهم الكتابة ، لأن علمهم ، وسعة اطلاعهم ، وتخصصهم ، يؤهلهم للكتابة ، سواء كان ذلك فيما يخص الدين أو اللغة أو التاريخ ، أو غيرها ، ولكنهم لم يفعلوا تحرجا ، وخوفاً من الزلل . وضاع على الأجيال اللاحقة كثير مما كان مفيداً ونافعاً . وتاريخ الجزيرة في القرنين أو الثلاثة الماضية عانى

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩١٩١) في ١٣/٣/١٤١٢هـ الموافق ٢١/٩/١٩٩١م .

من هذا، فلم يكتب فيه إلا النزر القليل، مع وجود علماء فطاحل، عاصروا حوادث مهمة، جرت على مسرح الحياة في الجزيرة العربية، تحت سمعهم وبصرهم، أو سَمْع من عاصرهم وبصره.

والتأليف - لمن أراد أن يصل ما يكتبه إلى ما يرضيه - صعب، فنقل الصورة من الذهن إلى الورق يكاد يقصر دائما عما في الذهن، مهما بلغ فيما بعد من الحسن في عين القارئ الذي لم يدر عن الصورة التي في ذهن الكاتب، بل إن الكاتب - بعد فترة - قد يجد ما هو أفضل في التعبير عما سبق أن دوّنه، ويتمنى لو يُحسّن فيما كتب. وثقافة الإنسان وتجربته تتقدم مع الوقت، فيرى في وقت لاحق غير ما رآه في وقت سابق، حتى يأتي الزمن الذي يبدأ فيه فكره في الضعف نتيجة تقدم السن، وحينئذ ربما يدهش مما كان كتبه، ومستوى الكمال الذي كان عليه.

عندما يكتب الكاتب يكتب بعض الفكرة،

اللجنـة توجب التردد، ويحتاج المرء معها إلى ملء النفس بالثقة، حتى يستطيع أن يتغلب على شبح الاستقذاف، وهو درجة الرسوب في هده اللجنة.

وقيل: «عرض بنات الصلب على الخطّاب أسهل من عرض بنات الصدر على ذوي الألباب». [1]

والمثل هذا يعطي مدى عمق الهمّ، الذي يمكن أن يحمله من أقدم على الكتابة.

وللعماد الاصفهاني قول جامع، يردده الكتاب والناس، وهو يصدق على ما يجول في ذهن كل مؤلف أصيل:

«إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده: لو غيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يُستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

---

(١) محاضرات الأدباء ١٧.

ومع كلّ فاللوم لا بدّ أن يوجه إلى من يخاف من الكتابة أو يتردّد، والتخلّي عن الشجاعة نقص يجب أن يقاومه المرء. والشجاعة ليست وقفا على الحرب وميدان القتال، ولكنها الإقدام على الأمر المخوف أيّا كان، فإن كانت الكتابة تخيف فمن الشجاعة أن تقدم على الكتابة، وتهزم الخوف، وإن كانت الخطابة تخيف فمن الشجاعة أن تتصدى للخطابة، وتغلب الخوف، وإن كانت التجارة تخيف فمن الشجاعة أن تخوض بحر التجارة، وإن كان الارتحال والتنقل مما يخيف فمن الشجاعة أن تقدم على السفر والسياحة، وإن كنت تخشى من الاماكن المظلمة، أو الصحاري المقفرة أو المقابر الموحشة فمن الشجاعة أن ترتادها، وتكثر من ذلك. ولا يكسر حاجز الخوف، ويهدم جداره، ويستبيح حماه إلا الاقدام بلا تردد، والعزم بلا ضعف أو خور، ألم تر كيف تحتم قوانين الطيران على الطيار الذي تعرضت طائرته لحادث أن يتجه فوراً إلى أخرى، ليتولى قيادة زمامها، حتى لا يكون للخوف إلى

تظهر قسوتهم ، وأخذهم الناس بالحزم .

وزاد من تعكير صورة الحجاج ، وخدش سمعته فيما دون عنه ، ماكان من عداء العباسيين للأمويين ، وما شعر به الشعوبيون في زمن الخلفاء العباسيين من التقرب لهم بإبراز مساوئ الأمويين ، فكان في تشويه سمعة حكامهم نفع للشعوبيين من جهتين : الأولى : أنه ينال من سمعة الدولة العربية التي لم يستطع الشعوبيون أن يحظوا منها بطائل ، والثانية : أنه يبنى للشعوبية مجداً بتحطيم أضدادهم بتشجيع من العباسيين ، وهذا يوجد فراغاً يُملأ بتمجيد أعداء العرب .

ولو جمع ما قيل عن الحجاج وقسوته وظلمه لكون مجلداً ضخماً . والحجاج أصبح مثل جحا ، تعلق عليه أخبار القسوة ، مثلما تعلق على جحا أخبار الحكمة أو الطرافة ، دون تحرٍّ أو تمحيص ، وتختتم الصور القاتمة عن الحجاج بارتفاع عدد المساجين الذين وجدوا في سجنه بعد وفاته ، وأنه

يقـرِب من مئة ألف أو يزيدون . وحتى العامة في زمننا لا يزالون يتناقلون قول : «الله يحلل الحجاج عند ولده» وهو قول يريدون منه أن يقللوا من قسوة الحجاج إذا ما قورنت بقسوة ابنه ، ويأتون بقصة طريفة يبنون عليها حكمهم في تصوير قسوة الحجاج ، ويقولون إن الحجاج كان يعرف رأي الناس فيه ، وأنهم سيدعون عليه ، وسيتقولون عليه الأقاويل ، فأراد أن يشغلهم بأنفسهم بعد وفاته ، وأن يجعلهم يدعون له بدل أن يدعوا عليه ، فأوصى ابنه أن تسير جنازته في خط مستقيم من البيت إلى المسجد ، ومن المسجد إلى المقبرة ، ويهدم ما يعترضها من بيت أو دكان ، ويقال إن ابنه نفّذ وصية والده ، وهدم بيوتاً كثيرة ، فسامح الناس الحجاج مقارنة بابنهِ .

تصـوروا أن الجنـازة أخرت أياماً ليتم الهدم ، ويسـوى الطريق ، نسي رواة القصة مثل مخترعها ومبتدعهـا أنه لم يكـن هنـاك ثلاجـات يحفـظ فيها الأموات أياما ، ونسوا أن للخليفة عيونا ترقب عماله

باختيـار المـرأة أخاها ، وكان ذلك بأعطاء أسباب مقنعة ، لم يتطرق إلى قوتها ضعف ، ولم يتخللها وهن .

الثـالث : لمح الحجـاج - كما يبـدو - الجانب اللغوي الرصين في تعبيرها ، وقدَّرهُ حق قدرهِ ، وهو الرجل الفصيح ، صاحب خطبة : «أنا ابن جلا ، وطلاع الثنايا» التي هزت المستمعين له في المسجد ، عندما نُصِّب عاملا على العراق .

وهنـاك تعليق يحسن هنـا ، وهـو أنـه يبدو أن الذكور من عائلة المرأة كلهم كانوا في الجانب المناوئ للحجـاج ، ومـع هذا فقد عفى عنهم جميعا ، فإن صحت القصة فهي حجة للذين يبرئون الحجاج مما ينسب إليه من القسوة .

وليست هذه هي القصة الوحيدة التي تروى في جانب الذين في صف تبرئة الحجاج من كثير مما يقال عنه ، بل هناك قصص مختلفة ومتعددة ، وتستحق أن تُتَتَبَّع ، إحداها القصة الآتية ، وفيها تظهر سعة

صدر الحجاج ، وقوة تحمله ، وتقديره للرد الصائب من العقل النيّر :

قال الحجاج ليحيى بن سعيد : «إنك تشبه إبليس» . فقال يحيى : «وما ينكر الأمير أن يكون سيد الانس يشبه سيد الجن ؟ فأعجبه جوابه» .[1]

وهناك قصة عن الحجاج - وقد انفرد عن حاشيته في الصحراء - وجاء على شيخ جالس وحده ، فسأله عن الحجاج ، وما يقال عنه - وهو لا يعرف أن السائل هو الحجاج - فوصف الحجاج بأقسى الأوصاف ، واستنزل عليه اللعنات ، فلما كشف له الحجاج عن شخصه ، أدرك الشيخ أنه تورط ، فقال للحجاج : أتدري من أنا ؟ أنا فلان ، مجنون بني فلان ، أصرع في العام ثلاث مرات ، وهذه أولى صرعات هذا العام ، فضحك الحجاج ، ولم يحاسبه .[2]

ولم يسلم الحجاج حتى من تركيب الطرائف

---

(١) الكشكول ٢/٤٠٢ .

(٢) الأذكياء ١٢١ .

الجم الكثير الذي لا يعقل ، ورأس الدولة هو من هو ، وقـربـه من عهـد الصحـابة ، وقوة الدين .
ويكفى أن نتذكر قراقوش أحد الرجال الصالحين الخيرين العقلاء المصلحين ، وكيـف شوهت سمعته عمـداً ، وقلب الحق فيهـا باطلا ، والنور ظلاماً ، والعقـل سخرية وغباء ، ولا يزال الناس يتداولون المثل عن ظلم قراقوش وسخافته وغبائه وسطوته ، وهو من كل ذلك براء .

مع الحجاج مرة أخرى(*)

كلما مررت بنصوص في كتب الأدب تتحدث عن الحجاج بن يوسف الثقفي زدت اقتناعاً بأن الحجاج يحتاج إلى من ينصفه مما قيل عنه مما سود صفحته عند قارئى بعض كتب التراث التي قد لا تخلو من هوى إما لميلها للشعوبية، أو ميل بعضها للعباسيين.

وسوف أدخل رأساً في بعض هذه النصوص، يقول أحدها:

كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف يأمره أن يكتب إليه بسيرته، فكتب إليه: إني أيقظت رأيي، وأنمت هواي، فأدنيت السيد المطاع في قومه ووليّت الحرب الحازم في أمره، وقلّدت الخراج الموفِّر لأمانته، وقسمت لكل خصم من نفسي قسما، أعطيه حظّا من لطيف عنايتي ونظري،

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٧٤٧) في ٢٧/٣/١٤١٢هـ الموافق ١٠/٤/١٩٩١م.

قال الحجاج هيهات ! أوما سمعت قول الشاعر :

جـانيك من يجـني عليك وقـد
تُعدِى الصحاحَ مبارك الجُرْب
ولربّ مـأخـوذ بذنـب عشـيرة
ونجـا المقارف صاحب الذنب

فقال : أصلح الله الأمير ! إني سمعت الله عز وجل يقول غير هذا . قال : وما ذاك ؟ قال :

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها العزيز ان له أباً شيخا كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون ﴾ . (١)

قال الحجاج : عليّ بيزيد بن أبي مسلم ، فمثل بين يديـه ، فقـال : أفكـك لهذا اسمـه ، واصكـك له بعطائه ، وابن له منزله . ومر مناديا ينادي : صدق الله وكذب الشاعر . (٢)

---

(١) القرآن الكريم ، سورة يوسف : ٢٨ ، ٢٩ .
(٢) العقد الفريد ١/٢٣ .

وفي هذا النص تومض عدة أمــور تُري مقـدرة الحجاج وفضله في تحكمه في نفسه ، وسيطرته عليها ، وسعـة صدره ، وشجـاعتـه في الاقـرار بالحق أمـام النـاس ، ورجـوعـه إليه ، ولم تأخذه العزة بالإثم ، فينتصر لنفسه بالقوة والجبروت ، باسم هيبة الحكـم ، والمحـافظة عليه ، بل تراجع بسرعة ، وأظهر جذلا وحمـاسـا بالآيـة ، ولهـا ، وكأنه وقع على كنز وأبدل بدرهم الشعر ديناراً ، فهو لم يسلم فقط لسليك على أثـر سماع الآية ، وإنّما أمر أن ينادي منادٍ بتراجعه ، والركون إلى جانب الله .

وتُـري أيضـا مدى ثقـافـة الحجـاج ، فالشعـر المناسب للموقف ، المؤثر على ذلك المجتمع ، كان حاضراً في ذهنه ، وهو ما ينتظره الناس من حاكمهم في ذلـك الـزمن ، يعـرف من غذاء فكـرهم مثل مايعـرف عن غذاء أجسامهم ، وتدبير أمورهم . ومجلس عامل الخليفة خاصة في العراق له تأثير ، ولما يقال فيه صدى لا يحده حد .

كـذب عن كـذب(*)

الكـذب خصلة ذميمة ، وعادة قبيحة ، طريقهُ مهلك ، وعـواقبـه وخيمـة ، مَن أقـدم عليه مرة ، استمرأهُ ألف مرة ، يفقد صاحبه ثقة الناس فيه ، ويدعوهم إلى تجنبه والابتعاد عنه ، فهو مثل الأفعى لا يدري قبيلُهُ متى يلتفت إليـه فيؤذيـه ، ويلدغه فيرديه ، لا يعرف نهاية لضرر الكذب ، ولا لما يجلبه من أذى .

عُرف عن عظماء الـرجـال كرههم للكـذب والكـذَّاب ، وقد يتغاضون عن أي جرم مهما كان فادحـاً إلا أنهم لا يتسـامحـون مع الكـذب ، مهما صغـر ، لأن الكـذب إخفـاء للحقيقـة ، وتضليل للمخاطب ، واستهانة به ، وهذه أكبر صفعة توجّه للإنسان ، فالإنسان له عزة ، وله كرامة ، ولا يقبل أن يُستغفل ، أو يُتذاكى عليه ، خاصة إذا كان هذا

(*) نشرت في صحيفـة عكـاظ بالعـدد (٩٢١٢) في ٥/٤/١٤١٢هـ المـوافق ١٢/١٠/١٩٩١م .

المتجنّى أقل منه علماً أو مكانة .

والكـذب له ضحـايـا تزخـر بها كتب التاريخ والأدب ، ويـردّدهـا الناس في مجالسهم ، ومنها ما كانت حصيلته خراب بيوت ، أو قطع رقاب ، أو فتناً تصبح كقطع الليل .

ومع هذا - فكما يقول المثل الانجليزي - لا تخلو السحـابـة السـوداء من بطانـة بيضاء - فمن بين الكـذب ما هو محمـود ، لأنـه يحمـل في ثناياه من الفوائد ما يغطي على المفاسد ، ويؤدي خدمة عملية للفرد ، ولا يضر بالمجتمع . والنية في الإسلام تلعب دوراً كبـيراً في الثـواب والعقاب ، وتحديد الحسن والقبيـح ، وتعيـين المقبول والمرفوض . وقد سمح الـرسـول - عليه الصلاة والسلام - للحجاج بن علاط السلمي أن يقول لقريش غير الحقيقة ، وأن يتحـدث خلاف الواقع ، ليستخلص ما له منهم ، فأظهـر لهم ما سرهم من أخبـار كاذبـة عن غزوة الرسول - ﷺ - لخيبر ، وأن أهل خيبر تغلبوا عليه وعـلى أصحـابـه ، وهـزموهم هزيمة منكرة ، وأن

قد يصل إلى درجة الوجوب الموقف الذي شرحه أحد العارفين، ويتبين في القصة الآتية :

قال سوار بلغني أن ميمون بن مهران كان جالسا وعنده رجل من قرى أهل الشام، فقال : «إن الكذب في بعض المواطن خير من الصدق». فقال الشامي : «لا، الصدق في كل موطن أحب». قال ميمون : «أرأيت لو رأيت رجلا يسعى وآخر يتبعه بالسيف، ودخل الدار، فانتهى إليك، فقال : أرأيت الرجل، ماكنت قائلا؟ قال : كنت أقول : «لا». قال : «فذاك». [1]

ويكره الملق، وهو مظهر من مظاهر النفاق، والنفاق صورة من صور الكذب، ومع هذا فهناك ملق يقبل، وقد حدد في الأثر الآتي :

«ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا في طلب العلم». [2]

---

(١) وكيع ٢/٦٧.
(٢) البيان والتبيين ٢/٢٤.

نصف الحق أوفى للحق(*)

الحياة تجارب، والتجارب إذا تمعّنها الأريب فحصيلتها نظريات صادقة. أما التفكير الذي يأتي عن تدبر وتبصر دون تجربة فقد يصيب وقد يخطىء، ولهذا قالت العامة: إسْأل مجرباً، ولا تسأل طبيباً. وقيل: ما أقل من تجربة. وقُدِّر رأي كبار السِّنّ لأنهم مرُّوا بتجارب لا يمكنهم إهمال نتائجها، فهي تحكم ما يقوله العاقل منهم وما يفعله.

قصّ عليّ صديق انتقل إلى رحمة الله، قال: كنت قد أَعطَيْتُ مبالغ في إحدى مناطق المملكة، التي سكنتها، إلى عدد من الفلاحين، على أساس مداينة، أو سلف؛ أعطي بعضهم مالا، واستعيده، أو آخذ مقابلهُ غلة في آخر الموسم. إلا أنه تبين لي في وقت من الأوقات ضعفهم، وعجزهم عن الدفع.

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٢١٩) في ١٢/٤/١٤١٢هـ الموافق ١٩/١٠/١٩٩١م.

التجربة التي مر بها صاحبنا، وإليك ماوجدته :[1]

«قيل ما أعطي أحد قط النصف فأبى إلا أخذ شرًّا منه» .

وقال الأحنف : «ما عَرَضْتُ النّصفة على أحد فقبلها إلا تداخلني منه هيبة، ولا ردّها إلا طمعت فيه» .

قال زياد : «ماجلست مجلسا قط إلا تركت منه ما لو أخَذْتُه كان لي . وتَرْكُ ما لي أحبّ إليّ من أخْذ ما ليس لي» .[2]

---

(١) محاضرات الأدباء ٩٥ .

(٢) المصـــون ١٨٧ .

دهاء ودهاء (*)

يظلم التاريخ مسجلوه، ويجني عليه كاتبوه، إما عمداً أو غير عمد، فإن كان عمداً فعن قصد حسن أو غير حسن، أما القصد الحسن فهو إما بهدف موعظة، أو تمجيد شخص أو أمة هي في نظر المؤرخ تستحق ذلك. وقد لا يرى في تزوير الحقائق ضررا على أحد، ولا يأتي في ذهنه إلا النفع الذي سيطر على حواسه، فصرفه عن التفكير في الجوانب الأخرى، وهو نفع قريب ومحدود، ولو فكر لوجد أن النفع في قول الحقيقة.

وقد يكون الباعث وطنياً تسيطر فيه العاطفة على العقل، ويبرز فيه حب الوطن، وأنه من الإيمان، فلا يرضى المؤرخ أن يسجل مايصم وطنه، وإن كان صدقا، أو يقلل من شأنه، ولو كان حقاً، وقد يجره هذا الحب إلى التبجيل المغالى فيه، مما يدخله

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٢٢٦) في ١٤١٢/٤/١٩هـ الموافق ١٩٩١/١٠/٢٦م.

في نطاق قول ما لا يُعْقل . وقد يبعد المؤرخ في هذا ، ويوغل في البعد ، فيصعب على القارئ المتأخر كشف الحقائق الموضوعة ، أو التعرف على جوانبه زيادة أو نقصاً في الحقائق ، أو تدليساً وتشويها لها .

وقد يبدأ التدليس من المشارك في حلقات الحدث ، فيتيه المؤرخ معه من أول خطوة ، ويتبع المضلل طوال الطريق . وقد يكون المدلس يعرف منهج المؤرخ ، فيضع في طريقه مايعرف أنه ينجح في تضليله ، ويصل إلى التمجيد الذي يريده ، أو نفي النقص الذي يحاذره . وقصة القائد الذي أمر بأن يضرب «مارش» النصر ، رغم الهزيمة ، معروفة ، وهي لمن لا يعرفها تتلخص في أنه :

تقابل في العصور الوسطى جيشان ، أحدهما فرنسي والآخر ألماني ، وغلب أحدهما الآخر ، وعاد بالغنائم منتصراً . فما كان من قائد الجيش المنهزم إلا أن أمر ضارب البوق أن يضرب «مارش» النصر ،

ففوجىء ضارب البوق بهذا، وسأل عن الحكمة في أن يُضرب بوق النصر وهم منهزمون، فقال القائد: «هذا للتاريخ»!

هذا هو نصيب التاريخ مما يمليه القائد من حقائق أو تدليس لها، والقائد صادق في توقعه ما يبحثه كثير من المؤرخين غير المدققين، قد لا يقال شيء عن الهزيمة وقد يقال شيء عن الهزيمة، ولو قيل هذا من قبل العدو فإنه ينفيه ما دوّن في هذا الجانب من إشارة إلى النصر بضرب بوقه. أو على الأقل يكون هناك شك بدلا من التأكد، وتنازع بدلا من الاتفاق، وحيرة بدلا من اليقين، ويتمسك مؤرخ كل جانب بما دونه مؤرخ قومه، وينفخ فيه من القوة ما يحتمله، وما لا يحتمله، ويحاول أن يهدم ما يبنيه مؤرخ الفريق الآخر، ولو بحجج واهية. وهكذا يكون التاريخ في بعض صوره.

قال معاوية لعمرو بن العاص:

«هل غششتني منذ استنصحتك؟ قال: لا،

قال : ولا يوم أشرت عليّ بمبارزة علي ، وأنت تعلم من هو؟ فقال : كيف وقد دعاك رجل عظيم الخطر ، كنت من مبارزته إلى إحدى الحسنيين ، إن قتلته فزت بالملك ، وازددت شرفا إلى شرف ، وإن قتلك تعجلت من الله تعالى ملاقاة الشهداء والصديقين . فقال : وهذا أشد من الأول . فقال : أو كنت من جهادك في شك؟ فقال : دعني من هذا» .[1]

في حكمي ، وفي حدود ما يتبين لي بعد التمعن في هذه القصة أنها حيكت بخيوط نسجها أحد الأدباء في لحظة صفاء ذهني ، في فترة من فترات العصور الإسلامية الأولى ، أما معاوية وعمرو فلم يقولا حرفاً واحداً مما سطره هذا الأديب . وقد أجاد الأديب وقصرّ ، أجاد في أنه يعرف أن كلا من معاوية وعمرو بن العاص داهية من دهاة العرب ، وأن كل واحد منهما بمستوى الآخر في العقل ، فجاء

---

(١) محاضرات الأدباء ٥٨ .

بالجـدل في بعض خطواته لائقاً بصاحبه ، ونصب مسرح المجادلة على أمور يعرفها الناس ، ويتناقلونها بتـواتر . وتدرج في الجدل بما يعطي الانطباع بأنه طبيعي . وقصّر لأن الهدف من الفكرة أصلا غلب الأديب وشدّه ، فلم يستطع أن يخفى ميله إلى عمرو أو عدم ميله إلى معاوية ، فقد أنهى الحوار في لحظة يبدو فيها معاوية مغلوباً ، ولجأ إلى قفل الباب وهو الذي فتحه ، ونسيَ الأديب أنّ الحديث بين خليفة عظيم وأحـد رجـاله في أمر مثل هذا لا يناقش في مجلس يذهب القـول فيـه ويجيء ، ويكون عرضة للتـداول بين النـاس ، فيقلل من هيبـة الخليفة ، ويرفع من شأن من قد لا يكون لطموحه حد ، أما إذا كان قيل في خلوة ، ونقله عمرو فأولى ألا يؤخذ لانتهائه في صالحه . ومعاوية ليس الرجل الذي يبدأ جدلا ومحاجة مع من يعرف مقدرته ، واطلاعه على بعض سره ، وقد يدخل الخليفة مع وافد لم يعرف مقدرته ، فيطّلع منه على حجج يفاجأ بها ، فيقفل البـاب حتى لا يكشف قوة قبيله أكثر مما تبين له ،

والحـديث عن صفين يعطي معاوية - إذا ما حام الحديث عن الشجاعة - اليد الطولى على عمرو، وموقفه أمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - معـــروف، ولا بد أن عمـرواً يحرص على تفـادي القرب من الحديث فيه.

إلا أن الفكرة والحجاج والنقاش طريف، وفيه تسلية، وفيه رسالة مخبأة، وأمّل واضعه أن تصل سريّة إلى ذهن القارئ، وأظنها نجحت في التسلل - كما أراد لها - إلى أذهان أناس كثيرين، في ثنايا العصـور، ولكن بعض هؤلاء ابتسم وضحك في داخله من القائل وليس من المقولة فيهما.

إن حوادث التاريخ وقصصه يجب أن تقرأ تحت عدسة مكبرة تبين ظلال الحبر وليس الحبر وحده.

الحسد سوء أدب(*)

فرق بين الحسد والغبطة ، فالحسد - كما قيل - أن تتمنى زوال نعمة غيرك ، والغبطة أن تتمنى مثل حال صاحبك . وقد قيل - ولعله أثر - المؤمن يغبط ، والمنافق يحسد . ويروى عن عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال : لله در الحسد ما أعدله ، يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود .[1]

وقيل : الحسود لا يسود ، وكيف يسود الحسود وهو يتصف بحب النفس ، والسيادة تستوجب الإيثار .

ويروى لمنصور الفقيه في الحسد :[2]

ألا قل لمن بات لي حاسداً
أتدري على من أسأت الأدب

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٢٣٣) في ٢٦/٤/١٤١٢هـ الموافق ٢/١١/١٩٩١م .

(١) محاضرات الأدباء ١٠٣ ، وفي بهجة المجالس الذي قاله معاوية ١/٤١٤ .

(٢) محاضرات الأدباء ١٠٣ .

أسـأت عـلى اللَّـه في حكمـــه
إذا أنت لـم ترض لي ما وهـب

ويروى عن معاوية قوله : كل الناس يمكنني أن أرضيه إلا الحاسد ، فإنه لا يرضيه إلا زوال نعمتي .[1]

وأبو تمام يقول :

وإذا أراد اللَّـه نشـــر فضـــيلة
طـويت أتاح لها لسـان حسـود
لولا اشتعال النار فيما جاورت
ماكان يعْرف طِيب عرف العود[2]

والحسد درجات ، فما رأيناه في الأقوال السابقة يمثل إحدى درجاته الدنيا ، أما الدرجات التي قد تكون أعلى مما ذكرنا فتمثل في القول الآتي :

اجتمـع ثلاثة رجال ، فقال أحدهم لصاحبه : ما بلغ من حسدك ؟ قال : ما أشتهيت أن أفعل بأحد خيراً قط . فقال الثاني : إنك رجل صالح ، أنا ما

---

(١) محاضرات الأدباء ١٠٤ .
(٢) محاضرات الأدباء ١٠٤ ، وبهجة المجالس ١ / ٤١٦ .

اشتهيت أن يفعل أحد بأحد خيراً قط . فقال الثالث : ما في الأرض منكما ، أنا ما اشتهيت أن يفعل بي أحد خيراً قط .[1]

ولم نقتبس إلا القليل مما جاء في كتاب «محاضرات الأدباء» ، وفيه مزيد للمستزيد وهذا الذي ذكرناه عن الحسد ليس منتهى البشاعة ، بل هناك صورة أكثر بشاعة ، وأشد كرها ، هل سمعتم بشخص أو أشخاص يحسدون آخر على الشنق . إليكم القصة :

قال الاصمعي : كان رجل من أهل البصرة ، بذيئاً شريراً ، يؤذي جيرانه ، ويشتم أعراضهم ، فأتاه رجل فوعظه ، فقال له : ما بال جيرانك يشكونك ؟ قال : إنهم يحسدونني ، قال : على أي شيء يحسدونك ؟ قال : على الصلب . قال : وكيف ذلك . قال : إقبل معي . فأقبل معه إلى جيرانه . فقعد متحازنا . فقالوا مالك ؟ قال : طرق الليلة كتاب معاوية أن أصلب أنا ومالك بن دينار وفلان

(١) محاضرات الأدباء ١٠٧ .

وفلان ، فذكر رجالا من أشراف أهل البصرة ، فوثبوا عليه ، وقالوا : ياعدو الله أنت تصلب مع هؤلاء ، ولا كرامة لك . فالتفت إلى الرجل ، وقال : أما تراهم قد حسدوني على الصلب ، فكيف لو كان خيراً » . (١)

لقد تضاءل بجانب هذا قول العامة : « يحسدون الأعمى على كبر عينه » .

اللهم اكفنا شر كل حاسد إذا حسد .

وللجاحظ ، وهو الأديب قول في الحسد مصيب :

« من العدل المحض أن تحط عن الحاسد نصف عقابه ؛ لأن ألم حسده لك قد كفاك شر مؤونة غيظه عليك » . (٢)

ولا يستغرب أن يأتي شاعر بجديد في هذا الباب ، فالشعراء عندهم من المقدرة ما قد لا يكون عند غيرهم من نظرات يساهم الخيال في تسديد

---

(١) العقد الفريد ٢/٣٢٦ .

(٢) سرح العيون ٢٥٨ .

مواقعها ، وإصابتها للهدف في التأثير ، يقول أحدهم ، وقد أتي بجديدِ معنى :

محسّدون على ما كان من نعم
لا ينزع اللّه عنهم ماله حُسِدوا[1]

وهو دعاء في محلِّه ، فإن استجاب الله للشاعر فإن في هذا إتعاباً للحاسد ، وزيادة في حِمْله الذي أثقل به نفسه ، وأجهد به روحه .

ويلمس الشاعر بشار العقيلي ما لمسه الشاعر السابق من لجوئه إلى الدعاء ، مع إضافة دعاء على الحاسدين ، مقابل دعائه للمحسودين :

فاللّه أسألُه إدام دائهم
وأن يديم لنا ما يوجب الحسد[2]

ويقول نصر بن أحمد :

كأنما الدهر قد أغرى بنا حُسُداً
ونعمة اللّه مقرون بها الحسد[3]

---

(١) بهجة المجالس ١/٤١٦ .
(٢) بهجة المجالس ١/٤١٦ .
(٣) بهجة المجالس ١/٤١٥ .

ووضع نصر بهذا قاعدة حتى لا يفاجأ ذو النعمة بالحاسدين وعليه أن يتوقع ذلك، فيعد نفسه لقبول ذلك. والحسد الذي أشار إليه نصر في بيته هو لذوي النعمة، ولعلية القوم كما قال شاعر آخر: وكأنه بهذا يرفع من قدر المحسودين بسبب طبيعة الحسد، وأنه لا يأتي أراذل الناس، وإنما يعمد إلى العرانين منهم:

إن العرانين تلقاها محسَّدة

ولن ترى للئام الناس حسادا[1]

وتقفل أبواب البصيرة، وتفتح أبواب الحيرة أمام محمود الوراق، فلا يدري ماذا يفعل مع الحسود، فإنه لم يجد له طبًّا، لقد نفعه الرضا مع الناس كلهم، وكسب به ودهم، وجلب به قلوبهم، إلا إن أي معاملة حسنة لم تنفعه مع الحسود، ولم تفتح له نوافذ الخير في نفسه، ولا أبواب القبول في قلبه، لقد أعيا محمود الوراق أمره:

(١) بهجة المجالس ١/٤١٥.

أعطِيت كل الناس من نفسي الرضا

إلا الحسـود فـإنـه أعيـانـي[1]

وهذه الحيرة ضربت أطنابها لدى معاوية - رضي الله عنه - وأيأسته من إرضاء الحسود، أو إزالة نظرة الحسـد من نفسه، فهو لا يرضى إلا بثمن غال، وهو زوال نعمة المحسود:

قال معاوية بن أبي سفيان:

«كل النـاس أرضيتـه إلا حاسـد نعمـة، فإنه لا يرضيه إلا زوالها». [2]

وإذا كان الحسد يصوب إلى الأعلى، فلابد أن يكون من صدر منه التصويب أدنى، وهو ما يؤكده عبد الله بن المقفع في كلمة له يقول فيها:

«إن الحسـد خلق دنيء، ومن دناءته أنه موكّل بالأدنى فالأدنى». [3]

---

(١) بهجة المجالس ١/ ٤١٤.

(٢) بهجة المجالس ١/ ٤١٤.

(٣) بهجة المجالس ١/ ٤١٠.

ويروى عنه - ﷺ - قوله :

«إحذر ثلاثة : الحرص فإنه أخرج آدم من الجنة ، والكبر فإنه حط إبليس من مرتبته ، والحسد فإنه دعا ابن آدم إلى قتل أخيه» .[1]

والشعراء في واد والناس في واد ، وهَمُّ الناس على الأرض وهَمُّ الشعراء بين النجوم ، ويأبى الشعراء إلا أن يحلقوا ، ويأبى واحد منهم إلا أن يجرب ، باصرار ، الحسد ، ولكنه يستدر عطفنا فنعطف عليه ، ويستجدي انضمامنا إليه في حسده فننضم إليه ، ومن حسن حظ المحسود أنه بعيد لا يصله إلا نظرنا ، ولا نبصر منه إلا صورة صغيرة لبعده وشموخه !

وأنشد ابن عائشة :

خليلي إني للثريا لحاسد
وإني على ريب الزمان لواجد

(١) بهجة المجالس ١/ ٤٠٩ .

أيجمع منها شملها وهي سبعة
وأفقد من أحببته وهْو واحد[1]

هذا العاشق الواله ، وكأننا به قد استلقى في منامه في سطح ، أو زاوية حوش ، أو على دعس في الصحراء ، وقارنَ حاله بكل ما يراه ، فوجد أنه مشتت الشمل مع حبيبته ، وأن الثريا مجتمعة ، فتمنى أن له بحبيبته اجتماعا مثلها ، ولا يتوقع هذا من غير الشعراء !

(١) بهجة المجالس ١ /٤١٢ .

الجاحظ وسبقه(*)

وضع الجاحظ له منهجاً في كتابه : «الحيوان» ، سار عليه ، ولم يحد عنه ، ومن علامات نجاح الكاتب أن يكون لما يكتب خطة ، تدل على أن الفكرة التي يكتب عنها واضحة ، وأنها قد نضجت في ذهنه ، واستوت للعرض على أذهان الآخرين .

والكتاب الذي ألفه الجاحظ عن الحيوان قد وفّى الجاحظُ الحيوانَ فيه حقه ، ولم يترك شاردة ولا واردة عن أي نوع من أنواعه ، وطبائعه وسماته وخصائصه ، إلا تطرق إليها .

يتكلم عن حيوان ما بما عرف عنه عند الناس ، وشاع بينهم ، وبما هو متداول عنه في المجتمع ، فيأتي أحيانا بالخرافة ويتبعها الحقيقة ، أو يأتي بالحقيقة ثم يتبعها الخرافة ، أو يقتصر على الحقيقة حيث لا خرافة ، ويأتي بالآيات القرآنية التي وردت

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٢٤٠) في ٣/٥/١٤١٢هـ الموافق ٩/١١/١٩٩١م .

عن هذا الحيوان ، وبالأحاديث النبوية ، وبالقصص المروية ، ويستشهد بالمثل أو الحكمة أو الشعر ، الذي ورد في ذلك الحيوان مادحاً أو قادحاً أو واصفاً فقط .

وقد يبين الجاحظ رأيه فيما اهتز من معلومات وما ظهر من سخف ، ومجانبة للعقل في بعض الخرافات ، وقد يتوج أقواله بتجربته الدقيقة المتفحصة ، يأخذ بيد القارىء معه ، يتنقل به معه في أطوار التجربة ، وخطوات مراحلها .

هذا خط من خطوط منهجه ، وهناك خط آخر يحيط بهذا الخط ، أو دائرة أخرى تطوقهُ ، وهو أن كتاب : «الحيوان» قام في الأساس على الحديث عن حيوانين اثنين : الكلب والديك ، ومنهما انطلق الجاحظ يميناً ويساراً ، صعوداً ونزولاً ، عرضاً وطولاً ، في عالم الحيوان ، يتكلم عن هذا الحيوان أو ذاك ، فيعدد المزايا ويفصل السمات والشيات ، ويبرز المزايا أو العيوب ، ويتحدث عن عادات

الحيوان ، ويأتي بموروث المدح عنه ، أو ما ورد فيه من ذم ، وعلو شأن ، أو انحطاط قدر .

ويقارن الجاحظ بين حيوان وآخر ، ويتلمس التماثل أو التنافر . ويخرج أحيانا من حقل الحيوان إلى حقل اللغة ، ومن حقل اللغة إلى ميدان الصحة ، ثم قد يستطرد إلى معلومات جانبية ، ثم يعود إلى الكلب والديك ، ثم يخرج منهما إلى حيوان آخر ، فيأتي على بعض ما قيل فيه ، وهكذا يغدو في هذا المجال جيئة وذهاباً ، من الكلب إلى الديك ، ومنهما إلى حيوان آخر يصف حاله ، أو إلى نبات يستقصي المعلومات عنه ، ويسهب في الحديث عن أطوار نموه وخصائصه ، أو إلى لغة يلفت النظر إلى ما قيل فيها ، ويكشف جوانبها . وقد استوعب نصف الكتاب تقريباً بهذه الطريقة ، قبل أن ينشغل في آخر الأمر ببقية الحيوانات عن الكلب والديك .

وقد يشعر الجاحظ أنه أثقل على قارئه ، فيعمد إلى إيراد ما يسليه ، فيأتي بهزل بعد جد ، وطرفة بعد

حقيقة علمية ، ويعتذر للقارئ عن ما جاء به من هزل ، وما اختاره من طرائف ، ويبرر سبب لجوئه إلى ذلك ، فيكشف بهذا عن دراسة عميقة للنفس البشرية ، ويأتي أحيانا بقصص يشعر أنها ربما تخدش الحياء ، وتجلب الانتقاد ، وتوجب اللوم والمعاتبة ، فيقدم عذره بين يدي ذلك ، وهو يشعر بأن بعض الطرائف تستحق التدوين ، فينقذها من الاهمال والضياع .

قبل سنوات كنت أشاهد برنامجا عرض على التليفزيون ، وكان عن تفريخ الدجاج ، ولعله كان في اليابان . وكان في المنظر فتاة تجلس أمام «سَيْر» يمر سريعا ، وعليه فراريج حديثة التفريخ ، وكان السير يمر أمام الفتاة بسرعة تماثلها سرعة التقاط الفتاة لكل فروج أمامها ، فتمسكه من منقاره ، وترفعه في الهواء ، فإن فرفر بجناحيه ، ورفس بقدميه عرفت أنه ديك ، وألقت به في سلة خصصت للذكور ، وإن لم يفرفر أو يرفس عرفت

أنه دجاجة، ووضعته في سلة الاناث.

كنت أظن أن هذا القياس، وهو التصرف في الاختبار، من فضائل الفكر الحديث واختراعاته في هذا العصر، واليابان لا يستغرب منها أن تفاجىء مثلي بانجازات أوصل إليها العلم الحديث. ولكني قرأت فيما بعد في كتاب «الحيوان» للجاحظ ما أكد لي أن هذا علم قديم، عرفه العرب أيام العباسيين، وقد يكونون وصلوا إليه بعلمهم وتجربتهم، أو أخذوه عن الصين أو عمن أخذه منهم:

يقول الجاحظ:

مما في المحاجاة أن يقال: «كيف تعرف الديك من الدجاجة إذا كان صغيراً حين يخرج من البيضة؟» فقالوا: يعلق بمنقاره، فإن تحرك فهو ديك، وإن لم يتحرك فهو دجاجة». [1]

ورغم بساطة الأمر، وتفاهته عند بعض الناس إلا أنه يكشف أن بعض ما يعتبر مفيداً في عصرنا

---

(١) الحيوان ٢/ ٢٦٠.

الحـديث ، ويـظن أنه نتاج الفكر الغربي ، هو في الحقيقة بضاعة قديمة عندنا ، انتقلت في غفلة من الزمن بعد أن كسد سوقها عندنا ، إليهم ، واحتفوا بها واعتنوا ، فصقلت هناك وجليت ، وأخذت تؤتي ثماراً جديدة في مجالات متعددة .

والزمن يكشف شيئاً جديداً في هذه المجالات . وغيرها ، وجهود البروفيسور الدكتور فؤاد سزكين ، في معهد الحضارة الإسلامية بألمانيا ، معروفة ، وقد كشف الغطاء ببحوثه عن سير الحضارة الإسلامية ، وانتقالها بهدوء وسرية إلى أوروبا عن طريق صقلية من شمال أفـريقيـا ، وغـيرهما ، وقضى على ادعاء ابتـداع بعض الأمـور من الغربيين وبجهودهم ، وأثبت أن الإنجـاز إنجـاز إسـلامي . وبعض ما عرضـه من نماذج صنعها في متحف أعده لذلك ، يكشف أن بعض ما هو مستعمل في الجراحة اليوم هو بعينه ما كان يستعمل لدى العرب والمسلمين في أزمنة سابقة . والكشوفات مستمرة «والليالي حبالي يلدن كل عجيبة» .

قصرت عن الهدف(*)

يقال القول أحياناً، أو يُروى الخبر، فيأتي حاملاً نعشه معه، ملتفاً بكفنه، مشتملاً بشبه تكذيبه، ومتزراً بمظهر الاختلاق والافتعال، فيصدم كبرياء القارئ، ويستهين بعقله، ويهزأ بذهن المفكر المتدبر، والقائل المختلق - في جذوة الحماس لبيع فكرته - في غفلة من الحفرة التي حفرها لنفسه، وأعدها لسقوط رأيه، أعماه عن كل هذا حماسه لرأيه المصطنع، واندماجه في صياغته، واعداده لبيعه لبعض الغافلين.

وأسباب الاختلاق كثيرة، يكمن خلفها دواع متعددة، وأهداف متباينة، قد تكون دينية، وقد تكون سياسية، وقد تكون أدبية، ولكنها كلها إما أن تكون تهدف لكسب مجد جديد، أو هدم عزّ أثيل، أحرق قلب حاسد، أو متطلعٍ طموح،

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٢٤٧) في ١٠/٥/١٤١٢هـ الموافق ١٦/١١/١٩٩١م.

فجـاء هذا ليقوضه ، سواء كان لدى فرد أو فئة . ويأتي الخبر المصطنع عادة مصبوغاً بصبغة القائل ، إن قوة وإن ضعفا ، ومدى الحرقة التي يشعر بها تجاه الهدف الذي أراد أن يلحق به الضرر ، ويصيبه بأسهمه .

ويمـر الخـبر على الناس فيقبل دون نقاش من بعض الفئـات ، لأنها راضية عن مرماه ، متقبلة ، وقد تؤكده وتنشره ، وتدافع عنه ، وتزيد فيه . وتأتي فئـة أخرى ، فترفضه ، لأن مرماه يقلقها ، ووقعه يزعجهـا ، فتتصـدى لنبله ، وتقف أمـام سهامه ، وتفند دعواه ، وتنفيها ، وتشكك فيها ، وتنبري لها تنقضهـا بمسـاوٍ لها في القـوة والمشى والـطّرق . وتشـك فيه فئة ثالثة ، وتزدريه ، وتصد عنه ، ولا تلقي له بالا ، فلا تأخـذ منه عبرة ، ولا استفادة ، وتنـظر إليـه فئة رابعة على أنه مسلٍّ أو مثقِّفٍ في جوانب معركة قائمة بين فئتين ، تعرف من مظاهر صراعهـما قوة هذا أو ضعف ذاك ، وتستقي رأيهـا

وحكمهـا عليهــما من لجوء أحـدهما إلى سواقط الحجج ، لتبرير موقف ضعف ، أو اتجاه للتدهور .

وقد يستغل خبر صحيح ، وقول حق ، فيضاف إليه ما يفسره لفائدة المضيف ، فتغمى الحقيقة فيه على أنـاس ، ويكشف الـزيـادة والتـدليس أناس آخـرون . وقـد يستفيـد المدلس لغرضه منه فائدة محددة بوقت . ولكنــه يبقى حصيلة تاريخيـة ثقيلة لأجيـال لاحقـة ، تتنـاطح حولها الرؤوس ، فرأي يقنعــه ما جاء في أولــه مما يتـماشى مع المنـطق ، ونصـوص أخـرى تعضـده لا يرقى إليها الشك ، ورأى يرفضه ، لأنه يجد السوس قد نخر فيه نتيجة الاضافة التي لا تسير مع المنطق ، وتتنافى مع الحقائق الثابتة .

وقـد يكون الزمن ومروره عاملا مرجحا حيال نص متـأرجـح ، يساعد على الحكم الجازم عليه ، والكلمـة القاطعة فيه ، فمع مرور الزمن ، يَكون جانب العاطفة ضعف ، وجانب العقل قوي ، لأن

البراهين أصبحت واضحة جلية، لا تسمح بمرور ما لا يستسيغه العقل، ولا يتماشى مع حوادث الزمن، أو جاء نص يزيل الغموض بما يقطع الشك.

والخبر الذي سأسوقهُ، فيه ما يوضح ما ذكرته:

يقال أن العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - مدح النبي ﷺ بأبيات على قافية بديعة أعجبت النبي ﷺ منها قوله:

وأنت لما ولدت أشرقت الأ
رض وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي النو
ر وسبل الرشاد نخترق

فقال: يا عم، لكل شاعر جائزة، وجائزتك الخلافة في عقبك إلى يوم القيامة.[1]

ولا أذكر أن كلمة الخلافة أو مدلولها قد وردت

---

(١) ثمرات الأوراق (رواية عن القرطبي) ٢٩٢.

في زمن الرسول ﷺ ، أو أن طريقة الحكم بعده قد رتبت أو عرفت .

وقد جاء التتار ، فقضوا على الخلافة العباسية في منتصف القرن السابع الهجري ، ولم ينفعها أو يوقفها على قدميها مرة أخرى ، المجهود الذي بذله الملك الظاهر بيبرس . وانتهت الخلافة العباسية ، والقيامة لم تقم إلى هذا اليوم . فهذا ثاني معول يهدم هذا الادعاء ، ويقوض ركن هذا النص .

والمعول الثالث أنه لم يسمع أن العباس - رضي الله عنه - كان شاعراً . وصلته مع الرسول ﷺ لم تكن على هذا النمط ، بل هي أعمق من قول الشعر والمدح . وكانت قوتها في الاقتداء بالرسول ﷺ ، والسير على منهجه ، والاهتداء بسنته بإيمان وتسليم .

والمعول الرابع أن البيتين لا يرقيان إلى مستوى شعر تلك الفترة جودة وفصاحة . وأقرب اهتزاز لفظي قوله : «وضاءت» بدلا من «ضاء» أو

«أضاء» وكلمة : «نخترق» جاءت لأجل القافية ، فأركست البيت ، مع ما فيه من هزال ، ولا أدري أيهما يغلب الثاني في الضعف إن كانت «نخترق» أو «نحترق» .

والمعول الخامس أن الرسول ﷺ عادة يبشر المؤمنين بالجنة ، وهو أمر يخص الآخرة الباقية ، لا بالملك والرئاسة ، وهو أمر يخص الدنيا الزائلة . وفي الملك والرئاسة من الهم ما يقضي على لذة الحياة ، وليس في هذا جائزة تمنح .

ويمكن الحدس والتخمين عن الوقت الذي اخترعت فيه هذه القصة ، والهدف الذي دعا إلى وضعها ونشرها ، والأسباب التي تكمن وراء ذلك ، أما الوقت فأقرب أن يكون العصر العباسي ، بعد سقوط الدولة الأموية ، فإما أن يكون الخبر صيغ في أول العهد العباسي ، ليثبت حق العباسيين أمام بقايا من يرى حق الخلافة للأمويين . أو ليبعد حق العلويين في الخلافة عند من يرى أن العلويين أحق

بها من العباسيين. خاصة أنه أثناء الدعوة السرية للقضاء على الأمويين، كان هناك إيهام من الدعاة بأن الدعوة كانت لحكم علوي، أو أن الخبر صيغ في وقت متأخر عندما بدأت الاضطرابات تتوالى وطمع الترك والديلم في الخلافة.

أما الهدف فواضح أنه إثبات حق العباسيين بالخلافة، وإيآس غيرهم فيها، اعتماداً على هذه الرواية عن الرسول ﷺ. ولا بد أن رواية هذا القول أدت الغرض منها في وقتها وانتشرت، مثل ما ينتشر الخبر اليوم عن طريق وكالات الأنباء والاذاعات والصحف، ويؤدي الغرض المقصود منه، ولو مؤقتا لعدة أيام، فيدور الخبر في العالم، فإذا ما ظهرت حقيقته، وعدم صحته، يكون حينئذ قد جاء بالفائدة المرجوة منه، وينساه الناس بخبر جديد يستولى على تفكيرهم.

أما اليوم فنحن نقرأ ما قيل عن العباس - رضي الله عنه - لطرافته، ولأنه أصبح مثل التحفة في

المتحف، حتى إذا كانت مزورة، فهي عند أهل زمانا أثر من آثار الماضي، وإن كانت تمثل نقطة قاتمة فيه. لكنها أصبحت من التاريخ، وتمثل صورة من صور التطاحن السياسي في تلك الفترة، وتبين إحدى الوسائل الإعلامية لنشر حق، أو دحض باطل.

ويبدو أن الفريق المعادي للفريق الذي وضع هذا الخبر، وألّف هذا الشعر، لم يقعد ساكنا، ولم ينصب نفسه متفرجا، بل سن سكّينتَهُ، وشحذ سلاحه، وشهر وسائل دفاعه، وسعى سعيا حثيثا، ليبطل هذه الدعوى، ويمحو هذا الافتراء، واستخدم الوسائل المتاحة في ذلك الوقت، واختار الأشخاص الذين سيجعلهم مشجبا يعلق عليه بضاعته، ولم يكتف بنص واحد، ولكن جاء بعدة نصوص، مؤداها واحد، ولكنها أحاطت بالأمر من عدة جوانب، حتى يضمن التأثير، ويفوز بالنجاح في دحض حجج غرمائه. ويبدو أنه كان في موقف

أقـوى بها أبـداه ، والقصـة تأتي هكذا معلقة على وتدين قويين عالم وخليفة :

وعظ رجـاء بن حيـوه هارون الـرشيد فقال : يا أمير المؤمنين ، إن العباس عم النبي - ﷺ - جاء إلى النبي - ﷺ - فقال : «يا رسول الله ، أمِّرني على إمارة» . فقال النبي - ﷺ - : «يا عباس ، يا عم محمد ، نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها . إن الأمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت ألا تكون أميراً فأفعل» . [1]

وكـلام رجـاء جاء على سبيل الوعظ ، وتزهيد الرشيد بالملك ، وأن جده قد حُذِّر من قبوله ، وأنه مع هذا قَبِـل ما حُذِّر منه جده ، فهو بهذا مخالف لوصية الرسول - عليه الصلاة والسلام - وعلى هذا فهو في مكان ليس له ، وإن بقي فيه فإنه في حسرة في الدنيا ، وندامة يوم القيامة . وهذا ينفي نفياً قاطعاً ما جاء في الخبر الأول من أنها ستكون في عقب العباس .

---

(١) الذهـب المسـبوك ٢١٤ .

والأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو سبق أن وعظ أبـا جعفر المنصور وقال له قولا مماثلا، وعلى هذا فتكـرار الخـبر مثل إعلام اليوم يدفع المسمار حتى يخترق الخشبة كما يقول المثل العربي، وهذه هي الموعظة:

«يا أمير المؤمنين قد سأل جدك العباس النبي - ﷺ - إمارته على مكة أو الطائف، فقال له النبي - ﷺ - يا عباس، يا عم النبي نفسٌ تحييها خير من إمارة لا تحصيها». [1]

ولعل من جاء بالقصة عنى أن يربطها بدعوى الفريق الأول حتى يدحض دعواه، وقد نجح في هذا.

ويبـدو أن الخبر دخل التاريخ، ولم يعد الأمر يحتاج إلى مشجب، ويكفى أن يأتي الخبر مروياً عن مجهـول. ترى هل حدث هذا التهـاون بعـد أن ضعفت الـدولة العباسية، وضعفت المواجهة بين

---

(١) الذهـب المسـبوك ٢٠٥.

أعـدائهـا وبينهـا ، أو أن الخبر بدأ يبهت ، ويفقد قيمته بما هو جديد ، وحل محله في البروز :

«رُوي أن العباس قال : أمّرني يارسول الله ، فأصيب واستريش ، فقـال له : ياعباس ، ياعم النبي ، نفس تحييهـا خير من أمـارة لاتحصيها ألا أحـدثكم عن الأمـارة : أولهـا ملامـة ، وأوسـطها ندامة ، وآخرها حسرة يوم القيامة» .[1]

(١) سـراج الملوك ١٣٧ .

ويل للتاريخ من بعض أهله(*)

يبـدو أن أهـل كل زمـان مغـرمـون بالقصص الخيـاليـة ، والحكـايـات الملفقـة ، لأن في بعضهـا تسليـة ، وفي بعضها عرض لأفكار مخبوءة ، وآراء مكتومة . وفي وضع هذه وتلك في قصص على ألسنة آخرين ، واخراجها بطريقة فنية ، ما يريح القاص ، وينفس عنه بعض ما به ، ويشيع نيابة عنه فِكرهُ ، وينشر على لسان غيره آراءه . ويأتي مع ذلك تسليةً للقارئ أو السامع وترويحاً عنه ، يزيد من قبوله ، والاقبـال عليـه ، وروايتـه ونقله ، خاصة إذا جاء مجاريا للعادات ، ومتماشيا مع التقاليد ، ومتجاوبا مع ما قد يكون يعتمل في صدور الناس .

والقصص التي أريد بها التنفيس عن مخزون أفكار متجمعـة مكبـوتـة قد تنقـل صوراً متنـاثرة ، جمع القـاص شذراتهـا ، وأضاف لها ما لحم أجزاءها ،

(*) نشرت في صحيفـة عكـاظ بالعـدد (٩٢٥٤) في ١٤١٢/٥/١٧هـ الموافق ١٩٩١/١١/٢٢م .

وجمع شتاتها، وقرب منها ما تباعد وافترق. وقد يبعد الاندماج في القصة بالقاص، فيعرض مقدرته الأدبية، عند حمل الفكرة التي أراد أن يخدمها.

والقصة التي سوف أنقلها هنا فيها بعض السمات من هذا، ففيها تسلية وترويح، وفيها طرافة وجاذبية، وفيها تجميع لمعلومات كان القوم يتناقلون شذرات منها في مجتمعهم، عرض القاص فيها إدّعاءً، وردّ ادّعاء، وفصّل القول على ما عرف عن الشخصيات التي حركها على المسرح، من مقام وخلق. ورغم أنه أريد منها أن توحي بأنها حقيقة، ووقائعها حدثت فعلا، إلا أنها عند التدبر ترجح على قصص الخيال اليوم. وبعض الحقائق التي ضُمّنتها قد تكون قابلة للحدوث، وعرضة للتصديق والقبول، إلا أن الجانب الذي أريد أن يكون مصدر قوتها صار هو مبعث الضعف فيها، والمسمار الذي دق في نعشها. فالشخصيات التي ركبت عليها الأحداث لا يمكن أن يحدث منها ما

قيل أنه حدث بهذا التسلسل والتتابع والانتظام في القول والعمل .

ذكر صاحب العقد أن عبد الله بن الزبير تزوج امرأة من فزارة ، يقال لها أم عمرو ، فلما دخل بها قال : هل تدرين من معك ؟ قالت : نعم ، عبد الله ابن الزبير بن العوام بن خويلد . قال : ليس هذا . قالت : فأي شيء تريد ؟ قال : معك من أصبح في قريش كمنزلة الرأس من الجسد ، لا ، بل العينين من الرأس . قالت : أما والله لو أن بعض الهاشميين حضرك لقال خلافا لقولك . قال : فالطعام والشراب علي حرام حتى أحضر الهاشميين وغيرهم ، ولا يستطيعون لذلك إنكاراً . قالت : إن أطعتني لم تفعل ، فأنت أعلم بشأنك .

فخرج إلى المسجد ، فإذا هو بحلقة فيها جماعة من قريش ، وفيها من بني هاشم عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - وعبد الله ابن الحارث بن عبد المطلب . فقال لهم ابن الزبير : إنى أحب أن

تنطلقوا معي إلى منزلي ، فقام القوم بأجمعهم ، حتى وقفـوا على باب بيتـه . فقـال ابن الـزبير : يا هذه اطرحي عليك سترك ، ثم أذن للقوم . فلما أخذوا مجالسهم ، دعا ابن الزبير بالمائدة ، فتغدى القوم .

فلما فرغوا ، قال ابن الزبير : إنما جمعتكم لحديث ردّته عليّ صاحبة هذا الستر ، وزعمت أن لو كان بعض بني هاشم حاضراً لما أقـر لي بما قلت : وقد حضرتم جميعا . والحديث الذي ردّته عليّ : قلت لها ليلة الدخول بها ، وأنا معها في خدرها : إن معكِ من أصبـح من قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا ، بل العينين من الرأس . فردّت عليّ مقالي .

فقال ابن عباس : إن شئت أقول ، وإن شئت أكفف . قال : لا ، بل قل ! وماعسيت أن تقول ! أليس تعلم أن الزبير حواريّ رسول الله ﷺ ، وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق ، ذات النطاقين ، وأن خديجة ، سيدة نساء أهل الجنة ، عمتي .

وأن صفيـة عمة رسول الله ﷺ ، جدتي . وأن

عائشة أم المؤمنين خالتي ؟ فهل تستطيع لهذا إنكاراً يا ابن عباس ؟ قال ابن عباس : لا . ولقد ذكرت شرفا شريفا ، وفخراً عظيما ، غير أنك بنا نلت ذلك كله ، وأنت تفاخر من بفخره فخرت ، وتسامي من بفضله سموتَ . قال ابن الزبير : وكيف ذلك ؟ قال : لم تذكر مفخراً إلا برسول الله ﷺ ، ونحن أهل بيته ، وأقرب إليه ، وأولى بالفخر به . قال ابن الزبير : فأنا أفاخركم بما كان قبل النبي ﷺ . قال ابن عباس : قد انصفت . أسألكم أيها الحضور : أعبد المطلب كان أشرف في قريش أم خويلد ؟ قالوا : عبد المطلب . قال : فأسألكم : أهاشم كان أشرف في قريش أم أمية ؟ قالوا : هاشم . قال : فأسألكم بالله : أعبد مناف كان أشرف أم عبد العزى ؟ قالوا اللهم عبد مناف . فأنشد ابن عباس يقول :

تفاخرني يا ابن الزبير وقد قضى
عليك رسول الله لا قول هازل

فلو غـيرنا يا ابن الزبير فخـرته
ولكن بنا ساميت شمس الأصائل

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ما افترقت فرقتان إلا وكنت في خيرهما» . فقد فارقك من لدن قصي بن كلاب ، فنحن في فرقة الخير أولا ، ونحن في فرقـة الخير آخراً . فإن قلت : نعم خصمت ، وإن قلت : لا ، كفرت .

قال : فضحـك بعض القوم . وقالت المرأة من خلف الستر : أما والله لقد نهيته عن هذا المجلس ، فأبى إلا ما نرى . فقال ابن عباس : مه أيتها المرأة ، اقنعي ببعلك .

وأخذ القوم بيد ابن عباس ، فقالوا : انهض أيها الرجل ، فقد افحمته في منزله غير مرة ، فنهض ابن عباس ، وهو يقول :

ألا يا قـومـنا ارتحـلوا وسـيروا
فلو تـرك القطـا ليـلا لنـامـا[1]

---

(١) ثمرات الأوراق ١٥٥ .

وعند التمعن في هذا النص، وتمريره على بوتقة الفحص والتدبر، ومانعرفه عن أشخاص الرواية من عقل وحكمة، وإيمان عميق، وإسلام خالص، ومايقتضيه الذوق، وتوجبه أصول المعاملة، نجد أن جوانب النص تتهاوى، وأركانه تتفكك، ولا يبقى منه إلا هيكل هزيل، يؤكد عقيدتنا في نحته واختلاقه :

فعبدالله بن الزبير، وهو من هو في المقام، والتطلع للمنازل العليا في مجتمعه، لا يثير مثل هذه المفاخرة ليلة عرسه، فليلة أي عرس ليست أفضل وقت لمثل هذه المفاخرة، وليلة العرس عادة، تشغل بما هو أليق وأوجب، وما هو أفضل في جلب المحبة، وتمكين الألفة. أما المفاخرة فهي منافرة، وموجبة فرقة، وقطع صلة. إذ لا بد فيها من غالب ومغلوب، وراض وساخط، ورابح وخاسر، فإن كان المغلوب ابن الزبير، فليس من صالحه أن يدخل بزوجته مغلوبا، ويبدأ اجتماعه بها بهذا

الموقف الهزيل ، وإن كان غالبا فبئس الهدية تهدى للزوجة في ليلة عرسها ، فنصره فيه تعال عليها وعلى أهلها .

وفوق هذا فإن قبول الزوجة زواجها من المتقدم لها تسبقه معرفة أدت إلى القبول . وعبد الله بن الزبير ليس نكرة في مجتمعه حتى يحتاج أن يعرض ميزاته ، ولا يرتفع إلا بشهادة الآخرين . والمتوقع أنه لو وقع موقف مثل هذا من زوج مع زوجته ، وهي جديدة عليه ، ومقبلة على الحياة معه ، فزوجته يسعدها أن يبنى بها زوج له صيت سامق ، وواثق من نفسه في ذلك ، فما يضيرها ، مجاراة له ، وكسبا لقلبه ، أن توافقه على ما قال . وتؤمّن على ما يقول .

ثم ما هذا النزق ، وخفة التصرف ، والسرعة في الحلف ، وغلظ الأيمان ، التي ظهر بها ابن الزبير . والناس في ذلك الزمن رضاع عهد النبوة ، خاصة ابن الزبير ، الذي يخرج من بيت النبوة إلى بيت من بيوت الصحابة . ويقرأ مع أول القارئين :

﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾[1] . ثم - يا ترى - هل سوف لا يأكل أو يشرب ، إذا جاء الأمر على غير ما ادعى وقد جاء فعلا على غير ما سعى إليه .

وذهب عبد الله بن الزبير ليأتي ببني هاشم ، فلم يأت إلا باثنين معروفين ، وبقية من جاء معهما لم تذكر اسماؤهم ، ولم يذكر إن كانوا من بني هاشم أو غيرهم . وقد قادهم من مجلسهم في الحرم إلى بيته كالشياه المستسلمة عندما وجدهم ، فجاؤا معه ، بمجرد أن قال لهم : أقبلوا ، وعلى رأسهم عبد الله بن عباس . ولم ينس ناجر القصة أن يجهز لهم مأدبة ، فلا يتكلم ابن الزبير إلا بعد أن بلّ ريقهم ، وأسكت معداتهم .

ثم فاخرهم ابن الزبير بمقامه في الإسلام ، وهي مفاخرة شريفة تليق بالمسلم في عصر ازدهار الإسلام وقوته ، وعدد جوانب القوة ، في هذا المجال ، حتى ليخيل للقارئ أنه لم يبق للسامع إلا

---

(١) القرآن الكريم ، سورة البقرة ٢٢٤ .

أن يؤمّن واعتمد هنا على صلاته بأفراد لهم مقامهم وسمعتهم. ثم يستأذنه عبد الله بن عباس في الرد، مع لهجة تحذير وإنذار، فيأذن له، بلهجة تحد وثقة، فيجعل عبد الله بن عباس ركائز افتخار عبد الله ابن الزبير معتمدة على بني هاشم، وأنه ما فخر بشيء إلا لأنه يعود إليهم. فكانت الحجة دامغة، تهاوت معها أركان فخر ابن الزبير.

وابن الزبير المسلم المؤمن، أحد أساطين الرعيل الأول في الإسلام، يترك الأرض الإسلامية الصلبة في الجدل إلى أرض الجاهلية الرخوة، وينصرف عن ضياء الآخرة الساطع إلى بصيص الدنيا الخافت. وهنا ينقض عليه عبد الله بن عباس، فيطعنه في مقتل، ويقضي عليه قضاء مبرما. ولا يكتفي الراوي بما قال، وبما صور، بل يتبعه بأبيات تصف النصر الذي تمخض عنه الموقف.

ولا بد أن ابن الزبير انكسر انكسارة لا جبر لها، وانخذل انخذالاً لا قيام له منه، فلم يرد، ولم ينبس

ببنت شفة . ، وأضحك الحاضرين منه ، وأشمت به عرسه التي كانت حذرته من المفاخرة . ولكن ابن عباس يعطف على ابن الزبير ، ويسكت زوجته ، وكأنه يقول لها بلهجة زمننا : «عيب يا امرأة» .

ويُنهى المنظر ، ويختتم الموقف ، بأن ينهض أصحاب ابن عباس صاحبهم ، منفوش الريش ، مرفوع الرأس ، يتمثل ببيت شعر جاهلي ، يناسب المقام . أما عبدالله بن الزبير فمنخفض النفس في عقر داره .

هذه القصة حمّلها مؤلفها بما يدور في ذهنه عن وجوب رفع مقام العباسيين ، ووجد في ابن الزبير سبورة مهيأة يعرض عليها دعايته في رفع شأنهم ، دون أن يشعر أنه أهان عبدالله بن عباس ، وجعله هو وابن الزبير طفلين لا يزيد عمرهما عن عشر سنوات ، يتفاخران مفاخرة جاهلية ، لا تليق بمعاصر لهما عادي ، فما بالك بهما .

أليس هذا مما يهضم حق التاريخ ، ويشوه سمعة

الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - ونحن والراوي، أو المؤلف لا نصل في القدر والمنزلة إلى «مُدِّ أحدهم أو نصيفه» .

ألاعيب إبليس(*)

للشيطان مداخل إلى قلوب الناس ، وله حبائل ينصبها شراكاً يصيد بها ضحاياه . وله طرق يتفنن في ابتداعها وتنويعها لينال بها مآربه منهم ؛ فهو لا يأتي للناس نهاراً جهاراً ، ويقول لهم : أنا إبليس جئت لأغويكم ، أو لأصدكم عما أنتم عليه من فعل الخير ، ومحاربة الشر ، أو أنا في سبيل اخراجكم من دينكم ، أو الاجحاف بحقكم فيه . وإنما يأتي من أماكن اطمئنانهم ، ومواقع أمنهم ، فيسرب تسويله لهم ، وينفث سمه الزعاف ، فيغويهم ، وهم لا يدرون أنهم أصبحوا ضحايا له ، ويدخل فيهم دخول النّوم في عين المتعب المكدود ، ويسيرون في طريقه ، ويتوغلون دون أن يدروا أنهم يسيرون في طريق الشيطان ، وأنهم في كل خطوة يخطونها يغرقون في بحره ، وأنهم ينحدرون في عمق الغواية

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٢٦١) في ٢٤/٥/١٤١٢هـ الموافق ٣٠/١١/١٩٩١م .

والضلال .

وطرق إبليس متنوعة ، وأساليبه متعددة ، فهو يهتبل الفرص ، ويتحين الظروف ، وحباله طويلة ، وصبره لا ينفد . فهو يراقب الضحية ، ويتتبع الفريسة ، فمرة ينقض عليها عندما تنزل بها نازلة ، أو تحل بدارها كارثة ، يجد في مكامن الضعف بغيته ، وفي تزعزع الثقة مرامه ، وفي تغلب اليأس والقنوط مراده . وأحياناً يكتفي بتنفيذ جزء محدود في خطته ، إذا لم يتهيأ له إلا هذا الجزء ، ثم يتبعه بثان عندما يجد ذلك ممكنا ، ثم ثالثٍ فرابع وهكذا حتى يكتمل له مشروع الاغواء أو التضليل . وحينئذ حتى لو اكتشفت الضحية الشراك الذي التفّ حولها ، أو الفخ الذي أطبق عليها ، فإن خَطّ الرجعة يكون قد قطع بوقوع الإثم ، وحدوث الضرر .

ومن أفظع حيل إبليس ، وأبشع وسائل اغوائه طريقة له متواترة ، وهي أن يوهم أن الخطأ هو

الصحيح ، وأن الجريمة هي الاصلاح بعينه ، والإثم هو مجلب الحسنات . ويأتي حينئذ بالسبب المبهرج الجذاب ، ويقضى بأباطيله على وسائل اظهار الحقيقة . وله في الإغواء قدرة على التدليس والتلبيس ، بحيث يجعل من يقع في حبائله يتحمس تحمساً فائقا للتوغّل في الخطأ ، وهو يظن أن عمله محمود مشكور ، وثوابه في الآخرة عظيم موفور .

وقد لا يتبين القارئ ما أقوله على الوجه الذي أريده إلا بالمثل الآتي :

قال ابن أبي ليلى (محمد بن عبدالرحمن بن يسار) : إني لأساير رجلا من وجوه أهل الشام ، إذ مرّ بحمال معه رمّان ، فتناول منه رمانة فجعلها في كمه . فعجبتُ من ذلك . ثم رجعتُ إلى نفسي ، وكذبتُ بصري ، حتى مرّ بسائل (شحاذ) فقير ، فأخرجها ، فناوله إياها . قال : فعلمت أني رأيتها . فقلت له : رأيتك قد فعلت عجبا ! قال : ما هو؟ قلت : رأيتك أخذت رمّانة من حمّال ، واعطيتها

سائلا ! قال : وإنّك ممن يقول هذا القول؟ أما علمت أني أخذتها ، وكانت سيئة ، وأعطيتها ، فكانت عشر حسنات ؟

فقال ابن أبي ليلى : أما علمت أنّك أخذتها ، فكانت سيئة ، وأعطيتها فلم تقبل منك ؟[1]

أرأيتم كيف أدخل الشيطان هذا الغافل غِبَّة الحساب ، ولجّة الرياضيات ، وجرّه إلى الإثم ، وهو يوهمه أنه يهديه إلى الأجر والثواب . ثم أرأيتم كيف أنار الله بصيرة ابن أبي ليلى ، فلم تعشُ عينه عن رؤية الفخ المنصوب ، ولَمح المصيدة التي أوقع فيها إبليس الرجل .

وطريقة أخرى من طرق إبليس ، تتضح معارجها الملتوية في القصة التالية :

سافر العالم العابد المعروف عبد القادر الجيلاني من بغداد إلى البصرة ، فأصابه ظمأ شديد وهو في الطريق ، وليس معه ماء ، ولا مورد حوله ، فكاد

---

(١) الحيوان ٣/٧ .

يهلك عطشاً. فهيأ الله سحابة أمطرت، فارتوى من مائها، وأنقذه الله بهطولها. إلا إن إبليس أراد أن يهتبل هذه الفرصة، فيحاول أن يغوي هذا العالم الجليل، فناداه من وسط السحابة، وقال له: «يا ولي يا عبد القادر، أنا ربك، سقت لك المطر، ومكافأة مني لك على عبادتك قد اسقطت عنك الصلاة والصومَ. فلم يتردد عبد القادر أن يبصق تجاهه، قائلا: إخسأ فما أنت إلا عدو الله إبليس، جئت تنتهز فرصة نعمة الله عليّ ومنّه بارسال هذه السحابة، لتغويني، من أنا حتى أعفى من عبادة لم يعف منها محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه؟ وحماه الله بعمق إيمانه، وسعة علمه، بأن أنار له طريق الحقيقة، فلم يغترّ، ولم يعط نفسه أكثر من حقها، فحماه الله من الزلل.

وهكذا ينصب إبليس شباكه يقع فيه من يقع، ويتدارك الله بلطفه من يتدارك.

السهم يصيب راميه(*)

يُرتب أمر ويُنَظَّم، وتُهيأ له جميع أسباب الاتقان المعروفة. ويسير في الاتجاه المرسوم له، سيراً يوحي بنجاحه، ثم في النهاية يبدأ أمره يتهاوى، فتضطرب جوانبه، وينخر السوس في عوده، فينحرف عن القصد، ويقصر عن الهدف، فيضيع فيه الجهد المبذول. ويحتار المراقب في بادئ الأمر من أين تطرق إليه الخلل، وكيف جاءه الضعف، هل كانت النية السيئة التي رافقت هلاله، أو غفلة المخطط وسيطرة الهوى التي غلبته، أو أن مهندس الأمر الذي ظن نفسه ذكيا جاءه من هو أذكى منه، أو أن الأسباب هذه كلها مجتمعة أدت إلى ما كان، وأن بعضها كان حلقة أوصلت إلى أخرى، فتتابعت الحلقات، واشتبكت، ودارت عجلات الآلة؛ فالنية السيئة دقت المسمار في نعش الفكرة، ولونت

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٢٦٧) في ١٤١٢/٥/٣٠هـ الموافق ١٩٩١/١٢/٦م.

أنانية المهندس وحبه لنفسه ، عَمَلَه ، وأعمته عن أن يفكر في مكامن الخطر ؛ فيحتاط لها ، فسمّر فكره على جانب واحد ظن أنه يوفي له حقه ، فجاءته الداهية من حيث لم يحتسب .

هذه أفكار تدور في ذهن المتبصر لبعض الأمور التي تمر عليه بين آن وآخر . وسأختار قصة من التراث ؛ لتجلي حقيقة ما رميت إليه ؛ ففيها طرافة ، وفيها عظة :

يقول الجاحظ إن أبا الحسن روى عن أبي مريم أنه قال :

كان عندنا بالمدينة رجل قد كثر عليه الدين حتى توارى عن غرمائه ، ولزم منزله ، فأتاه غريم له عليه شيء يسير ، فتلطف حتى وصل إليه ، فقال له : ما تجعل لي إن أنا دللتك على حيلة تصير بها إلى الظهور والسلامة من غرمائك ؟ قال : أقضيك حقك ، وأزيدك مما عندي مما تقرّ به عينك .

فتوثق منه بالأيمان . فقال له : إذا كان غداً قبل

الصلاة مُرْ خادمك يكنس بابك وفناءك ، ويرش ويبسط على دكانك حصراً ، ويضع لكل متكأً ، ثم امهل حتى تصبح ، ويمرّ الناس ، ثم تجلس ، وكلّ من يمرّ عليك انْبح له في وجهه ، ولا تزيدنّ على النّباح أحداً كائنا من كان ، ومن كلّمك من أهلك أو خدمك ، أو من غيرهم ، أو غريم أو غيره ، حتى تصير إلى الوالي ، فإذا كلمك فانبح له ، وإياك أن تزيده أو غيره على النباح ، فإن الوالي إذا أيقن أن ذلك منك جدّ لم يشكّ أنه قد عرض لك عارض من مسّ ، فينجلي عنك ، ولا يغري عليك .

قال : ففعل . فمرّ به بعض جيرانه ، فسلّم عليه ، فنبح في وجهه ، ثم مرّ آخر ، ففعل مثل ذلك ، حتى تسامع غرماؤه ، فأتاه بعضهم ، فسلم عليه ، فلم يزده على النباح ، ثم آخر ، فتعلقوا به ، فرفعوه إلى الوالي ، فسأله الوالي ، فلم يزده على النباح ، فرفعه معهم إلى القاضي ، فلم يزده على ذلك . فأمر بحبسه أياماً ، وجعل عليه العيون في

منزله . وجعل لا ينطق بحرف إلا النباح . فلما تقرر ذلك عند القاضي أمرغرماءه بالكفّ عنه . وقال : هذا رجل به لمم . فمكث ما شاء الله تعالى .

ثم إن غريمه الذي كان علمه الحيلة ، أتاه متقاضياً لِعِدَته ، فلما كلمه جعل لا يزيده على النباح . فلما يئس منه انصرف يائساً مما يطالب به .

وهكذا أصاب السهمُ واترَه ، والسيف قتل من سلّهُ ، والشراك وقع فيه من نصبه ، والفخ أطبق على من أقامه . وإذا بحثنا عن السبب نجده يكمن في النية السيئة ، فالمقترِح لم يهتمّ إلا بنفسه ومصلحته . وكان ذلك على حساب مصلحة الآخرين ، فضاعت مصلحته ، وباء بإثم الآخرين . والله سبحانه وتعالى أعدل العادلين .(1)

---

(1) الحيوان ٢/١٧١ .

إهدار الذكاء(*)

أعطى الله - سبحانه وتعالى - بعض الناس ذكاء، ومنحهم تميّزا في المقدرة على التفوق في بعض مناحي التفكير، وهي نعمة كبرى، وفضيلة جُلَّى؛ تستوجب الشكر، وتستدعي الامتنان. ولا يكون ذلك إلا بصرف هذا الذكاء إلى العمل النبيل، والانتاج المفيد للفرد والمجتمع، حتى يجعل الله في هذا الذكاء، وفي تصريفه، والاستفادة منه بركةً ونمواً. فإذا استُغِلّ هذا الذكاء في البناء والتشييد، وإشاعة الفائدة، وأُبعد به عن سبل الهدم والتخريب ساهم في أن يعطي المجتمع صورة حضارية يعتدّ بها ويفتخر، وأصبح هذا المظهر علامة على رقي هذا المجتمع، وسلامة سيره.

إلا أن بعض الناس يصاب بشيء يصدق عليه أن يوصف بالمرض، والانحراف عن الجادة السليمة،

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٢٧٥) في ١٤١٢/٦/٨هـ الموافق ١٩٩١/١٢/١٤م.

فيصرف هذا الذكاء في الهدم والتخريب، والنقض والنكث المضرّ المؤذي، طلبا لمصلحة خاصة، تأتي على حساب ضرر المجتمع ومعاناته. والذكاء الذي يتـوقع أن يبصِّره، ويهديه إلى مواطن القوة والنفع يخونـه فيـه التـوفيق، فلا يرى إلا هدفـاً واحداً، ويعمى عما عداه من أهداف نافعة وشريفة؛ لأن حبه لنفسه يسيطر على تفكيره، وإنشغاله بمصلحته يحجبه عن النظر إلى مصلحة الآخرين.

وهذا الشخص الذي يحب ذاته، وينسى الآخرين، تجده في مسارب شتى من سبل الحياة، ففي كل فئة من الناس تجد من يحاول أن يحتال على الآخرين، ويختلهم، أو يضللهم؛ فيبتز أموالهم، أو يحرمهم من التمتع بحقوق لهم، أو ميزات اقتصرت عليهم، ويحولها إلى جانبه، حتى لو أدت إلى الاضرار بهم ضرراً بالغاً. وهذا الذكاء المريض ليس وقفاً على زمن دون زمن، أو حقبة دون حقبة، أو طبقة دون طبقـة، بل هو في كل زمن، وبـين كل فئـات

المجتمع، يتفنن أصحابه في طرق الختل، والتغرير والخداع، والتحايل.

وذكاؤهم يجعلهم يدرسون طبائع الناس، ويعرفون مواقع الضعف في حصون دفاعهم، فيدخلون عليهم منها، ويهيؤون الأدوات الفعالة التي بها يستولون على ما يريدون؛ فهذا يتظاهر بالمرض، ويتقن تَمَثّلَه، لباساً، وحديثاً ومظهراً. وهذا يدّعي الفقر، ويتقمص باتقان حال الفقير، فيجيد الدور، ويصل إلى الهدف، وهذا يختار دور المنكوب، فيأتي بالتصرف المؤثر، ويدعم دعواه بالوثائق المعدّة، والوسائل المنتقاة. وهذا يتخذ صنعته سلماً لحيلته، وآخر يهتبل فرصة سنحت، أو ظرفاً طرأ، يضرب الواحد من هؤلاء ضربته، بعد أن يختار فريسته، ويعرف طريق نجاحه إليها. ولم يسلم الدين من بعض هؤلاء، فاتخذوه سلماً يصعدون عليه لغرضهم. والقصة الآتية تُرِي إلى أي مدى يمكن أن يصل المحتال إلى هدفه، دون أن ينفضح أمره،

أو تنكشف دعواه، وكيف أوصله ذكاؤه إلى حيلة تضر ولا تنفع، وكيف استغل ضعف شخص ليجهز عليه دون خوف من الله، أو رحمة لضحيته:

ورد في كتاب الحيوان للجاحظ أن أبا الحسن قال: كان واحد يسخر بالناس، ويدعي أنه يرقي من الضرس إذا ضرب على صاحبه. فكان إذا أتاه من يشتكي ضرسه قال له إذا رقاه: إياك أن تذكر - إذا صرت إلى فراشك - القرد؛ فإنك إذا ذكرته بطلت الرّقية! فكان - إذا أوى إلى فراشه - أول شيء يخطر على باله ذكرُ القرد. ويبيت على حاله من ذلك الوجع، فيغدو إلى ذلك الذي رقاه، فيقول له: كيف كنت البارحة؟ فيقول: بتّ وَجِعًا! فيقول: لعلك ذكرت القرد، فيقول: نعم! فيقول: من ثَمَّ لم تنتفع بالرقية.[1]

---

(١) الحيوان للجاحظ ٤/ ٦٥.

كلية جامعية في كتاب واحد(*)

نعم كلية جامعية في كتاب واحد، كلية تساوي أي كليـة آداب عربيـة بأقسـامها المختلفة: اللغة العـربية، والتاريخ، والثقافة الإسلامية. في هذا الكتـاب - كما في أي كليـة آداب عربيـة - مواد أساسية، ومواد فرعية، ومواد تخصص. فيه إطناب في بعض التخصصـات، واقتضاب في تخصصات أخرى، وفيه سبيل وسط بين الاسهاب والاقتضاب في تخصص ثالث.

لا يحتاج هذا الكتاب من قارئِه إلا أن يقف نفسه قرابـة شهـر، لقراءته بتمعن وتبصر وتدبر، يفهم مايفهم، ويستـوعب مايستوعب، ويحفظ غيبا ما احتوى عليه من نصوص نثرية أو شعرية. فإذا فعل ذلـك برغبـة وإقبـال وإتقان فإنه يستحق في رأي المنصف درجـة «البكـالـوريوس» أو «الليسانس»

(*) نشرت في صحيفـة عكـاظ بالعـدد (٩٢٨٢) في ١٥/٦/١٤١٢هـ الموافق ٢١/١٢/١٩٩١م.

وبالدرجة التي وصل إليها : «ممتاز» ، جيد جداً ، جيد ! وكل واحد وجهده ، وسعيه ، واستعداده الفطري . وما قسمه الله له .

هذا الكتاب ليس موسوعة من عشرين مجلداً ، أو صفحاته تصل إلى الآلاف ، وإنما هو مجلد واحد ، صفحاته أربع مئة وست وسبعون صفحة . قطعها متوسط ، وطباعتها جميلة ، وما فيها من أخطاء - إن وجدت - مطبعية ، ولن يصعب تداركها على القارئ الفطن . ولكن كل الصيد في جوف الفرا .

والكتاب أساسه رسالة أدبية قد لا تصل صفحاتها - إذا أفردت - عشر صفحات ؛ ولكنها كالنافذة على المرج الأخضر ، المليء بالنبات المتنوع ، والزهور المختلفة ، والروائح العطرية النفاذة . شرح الرسالة شارح فذّ أوصلها إلى المنزلة الثقافية الواسعة الشاملة التي أَحَلَّتها المنزلة التي وصفناها بها ، والمكانة الفريدة التي وجدناها عليها .

جمع هذا الكتاب تراجم رجال كانوا ملء السمع والبصر في يوم من الأيـام، لعبـوا أدواراً مختلفة في مجتمعاتهم ، صبغوا زمنهم بصبغة إيجابية أو سلبية أوصلتهم إلى أن يسجلوا في كتب التراث ، وأن تتناقل سيرهـم الأجيال . مشوا في دروب الحياة المختلفة ، سطع منهم نور ، أو ادلهمت ظلمة ، غلّفتهم هالة مدح وشكر وثناء ، أو أتبعوا لعنات وسخط . منهم العـرب ، ومنهم الفرس ، ومنهم الرومان ، ومنهم الاحبـاش . منهم الأنبياء أو الملوك أو الوزراء أو الرؤساء أو العلماء أو القتلة أو اللصوص، ومنهم الحكيم أو الفيلسـوف أو الشـاعـر أو الكاتب أو الأديب . بينهم الجـاهلون ، والإسلاميون . بينهم المشهورون ومنهم غير ذلك . منهم من قام بعمل مجيد ، ومنهم من عرف منه السوء . منهم من خلدت ذكـره كلمـة أو بيت شعـر . منهم الحقيقي ومنهم الخرافي . منهم رجال ومنهم نساء ، منهم من عرف بقوته ومنهم من عرف بضعفه . منهم الشجاع ومنهم الجبان .

تطرق الكتاب للأديان، وأعطى عنها ما يجمل أن يعرف، وتكلم عن الأفلاك بما لا غنى للمثقف عنه. وتحدث عن اللغة العربية وعلومها: نحواً وصرفاً وعروضاً وبلاغة. اقتنص الأمثال التي جاءت في الرسالة، أو وردت في قصص الشرح، فتحدث عنها، وعن قائليها، واستطرد في بعض الأحيان إلى ما ينفع.

في الكتاب شرح لأنواع الحيوانات وصفاتها وطباعها، أدخلها في التعبير استعارة، عضد بها المؤلف بيانه. جال في التشبيهات والاستعارات والكنايات، مستفيداً من ذلك للاستطراد فيما تقضيه الثقافة المتكاملة الواسعة. وفي الكتاب جلاء لكثير مما يردده الناس في تعبيراتهم دون أن يعرفوا أصوله، أو يطلعوا على أسسه ومنابعه.

ويكفي أن في هذا الكتاب ما لا يقل عن مئة وثمان عشرة ترجمة، أعطت الشارح فرصة لأن يصول ويجول في تخصص أصحابها، ويتعرض

بالشرح المفيد لعلومهم وتخصصهم . وهذا أعطاه مجالاً واسعاً لأن يَشمل شرحه مجالات كثيرة ، أهّلت كتابه فعلا أن يكون كلية جامعية .

أما الكتاب فهو «سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون» والمؤلف جمال الدين ابن نباته المصري . وعاش بين عامي ٦٨٦ - ٧٦٨هـ . ومحقق الكتاب أحد المحققين الأفذاذ الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم . والناشر للطبعة التي أمامي المكتبة العصرية ، في بيروت وصيدا ، وتاريخ الطبعة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

وإذا كان الشرح كلية جامعية ، بيّنت قدرة الشارح على البحث والتنقيب والاستقصاء ، وكشفت عن ثقافة واسعة ، فإن رسالة ابن زيدون قطعة أدبية متميزة . ولم يكن لمثل هذه الرسالة القصيرة المركّزة إلا مثل هذا الشارح المقتدر المتميز .

وبعد : أرجو أن يجد من يقرأ هذا بناء على رأيي ، ماوجدته فيه من الفائدة .

مكامن الشبه(*)

تقضي الأديان، ويشير الحكماء، وينصح المجربون، ويؤكد العقلاء والمفكرون، على الابتعاد عن مواطن الشبه، ومزالق الزلل، والحوم حول حماها، فالقرب من مواطنها مزلة، والدنو منها مظنة للأذى. والشبهة تلحق بالمرء الضرر، ولا يعرف أحد مداه، ولا يحدس بعده. تقول العامة: «أبعد عن الشر وغنِّ له». وتقول: «إبعد عن الداب وشجرتها». ويكفى المرء خطراً أن يكون قريباً من شبهة وهو لا يعلم قربه منها، ولم يسع إليها، ولا يريدها، ولكنها اعترضته دون اختيار، والتصقت به دون إذن، فكيف إذا اقترب منها عارفا بها، ساعيا إليها بقدميه، نتيجة ثقة يجدها في نفسه، واستهانة بالشبهة.

والشيطان متيقظ، ويبحث عن مجالات يصول

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٢٨٩) في ٢٢/٦/١٤١٢هـ الموافق ٢٨/١٢/١٩٩١م.

فيهـا ، والشبـه ميـدان رحب تلعب فيهـا خيله ، ومصـايد مهيأة ينصبها لضحاياه ، وحقول خصبة يبذر فيها بذره ، ويبث فيها زرعه ، وينشر شره ، ويرسى أسس أذاه . والشيطان قادر على أن يوهم أن الأسود أبيض ، والمظلم منير ، والقبيح حسن ، كل هذا بالتصـوير المظلل ، والمكر الخادع . ولهذا يبعـد العاقلون عن مواطن الشبه ، وإذا ابتلوا بها سارعوا في إزالة ما قد يأتي منها من لبس ، وما قد تثير من وهم ، وما قد ترسم من صورة خاطئة .

هذا سيـد الخلق عليـه أفضل الصلاة والسلام يسـارع إلى قفـل باب شبهـة الله أعلم أين يكون مقرها أو منتهاها . وما أمر حديث الافك ببعيد .

يروي عن صفية بنت حيي - رضي الله عنها - أنها قالت :

«كان النبي ﷺ ، معتكفا ، فأتيته أزوره ليلا ، فحدثته . ثم قمت لأنقلب ، فقام معي ليقلبني (أي يوصلها) . - وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد

رضي الله عنهما - فمرّ رجلان من الانصار ، فلما رأيا النبي - ﷺ - أسرعا . فقال النبي - ﷺ - : على رسلكما ، إنها صفية بنت حيي . فقالا : سبحان الله ! يارسول الله . قال : إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًّا ، أو قال شيئاً» .(١)

إنه أدرك - ﷺ - أن هناك مدخلا للشيطان في هذا الموقف ، فسارع إلى سد نافذته ، قبل أن ينفث منها رائحة إغوائه وتضليله ، فحمى عليه الصلاة والسلام الرجلين من شر الشيطان ، وما قد يلقي في قلبيهما من ريبة يقعان بسببها في الإثم العظيم .

(١) تدريب الناشئين ٢٥٦ .

العقـل جنـــة(*)

العقل جُنة يحمِي صاحبه مما يقع فيه الحمقى ، ودرع يقي المتثبتِين والمتأنين مما يقع فيه أحيانا بعض المستعجلين ؛ فهـو ينبـه صاحبـه إلى ما يوضع في طريقـه قصـداً أو خطأ مما قد يورث المهالك ، أو يؤدي إلى الآثام . وهو نور يرشد من يستنير به أمام بعض الظلمات التى يخفى ديجورها ما قد يكون كامنا فيها من مهاوٍ ومهالك .

فهو يحمي صاحبه مثلا من بعض الذين يحاولون أن يصيـدوا في الماء العكر ممن يمشون بالنميمة ، ويحـاولون الإيقاع بين اثنين كتب الله أن يكون ما بينهما من بناء عامراً . فالعقل إذا حباه الله للإنسان يحميـــه به من الانـزلاق في المهـاوي التي يهيؤونها لسقـوطـه ، ويقيم العقـل سداً منيعاً تتكسر عليه صدمات محاولاتهم ، وتخيب أمامه آمالهم .

(*) نشرت في صحيفــة عكــاظ بالعـدد (٩٢٩٦) في ١٤١٢/٦/٢٩هـ الموافق ١٩٩٢/١/٤م .

والنميمة حقل مغرٍ ، وأرض خصبة للسعي بين الناس بالباطل ، وجرهم إلى الفتنة والأذى ، والإفساد بين الناس ، ويجد النمام في هذا لذة لا تعدلها لذة ، وتغطي بحلاوتها عنده ما فيها من نتائج مرة ومؤلمة . فهو يقدم عليها ويخطط لها رغم علمه بسقوط خلق من يقدم عليها ، أمام الناس ، ونبذهم لعمله ، وشجبهم لما يقوم به ، وابتعادهم عنه ، وعما يسعى إليه . وليس من الغريب أن يدرك المتبصرون هذه اللذة عند هؤلاء الذين تردى خلقهم ، وسقم ذوقهم ، فقد قال قائل لاسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة - صاحب المذهب - «أي اللحمان أطيب» ؟ قال : «لحوم الناس ، هي والله أطيب من الدجاج ، ومن الفراخ ، والعنوز الحمر» .(١)

أجل لقد بهرها إبليس بجميع ما يملك من أبازير ، وأضاف لها من الألوان ما جعلها زاهية في عين من ضل عن الطريق المستقيم .

---

(١) الحيوان ٥/ ٢٧ .

والنمام أحياناً يتقن عمله بحيث لا يستطيع إلا القليل من الناس مقاومته ، ولعل ذلك لأنه يجد في طبيعة الناس وحبهم للاستماع لما يمكنهم من حماية أنفسهم ، لغيرتهم عليها ، مَدخلاً ، ولأنه أيضا يتحين الفرص، والظروف المناسبة ، التي تجعل دخوله إلى الأمر لا يبدو مفتعلا ، وكأنه جاء عرضاً ، فلم ترضه حميته إلا أن يبين جوانبه ، ويختار من العناصر ، وحسن السبك ما يجعله لا يقاوم ، يضاف إلى ذلك ما قد يكون غلّفه به مما يبدو منطقا ، وجلله بألفاظ الاستثارة التي تحرك النخوة ، وتستدعي عدم الخنوع . فتتحرك العاطفة ، ويحتجب العقل ، وتحل الكارثة ، ويضحك إبليس .

«كان علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يقذف بابنه محمد بن الحنفية في المهالك ، ويقدمه في الحروب ، ولا يسمح في ذلك بالحسن والحسين ، حتى إنه كان يقول : هو ولدي ، وهما أبناء رسول الله - ﷺ - فقيل : لمحمد : كيف يسمح بك أبوك في الحروب ، ويبخل بهما؟ فقال : أنا يمينه ، وهما

عيناه ، فهو يدفع بيمينه عن عينيه» .[1]

الله أكبر ! ما أجمل الرد ! إنه انطلاقة مدفع إلى صدر إبليس المنتظر لنتيجة وسوسته المحكمة . لقد أوصد محمد الباب في وجه الذي حاول الايقاع ، وسمّره في مكانه ، برد مقنع ، وحجة بينة ، وقول واضح سديد ، ويدل على أن قائله قاله مؤمنا بما قال ، فليس تصنعا ، ولا لمجرد الرد والإسكات .

وانظر كيف يسيطر العقل ، وتتجلى الرزانة ، وتسيطر عوامل الخير في المثل الآتي :

أرادت امرأة أن تلفت نظر زوجها إلى تقصير أصحابه في حقه ، وسترى أن ما قالته صحيح ، وكان بالامكان أن يرد كثير من الناس على الزوجة بالتأمين والتصديق ، وأن يشكرها على مراعاة مصلحته ، ولكن زوج المرأة الفَذّ ، كان من طينة زكية فرد ردّاً لم يخطر على بالها ، أو بال كثير من الناس :

---

(١) الكشكول ٢ / ٣٥٥ .

«قالت امرأة بعض الأجواد لزوجها : أما ترى أصحابك إذا أيسرت لزموك ، وإذا أعسرت رفضوك ! فقال : هذا من كرم نفوسهم ، يأتوننا في حال القوة منا على الإحسان إليهم ، ويتركوننا في حال الضعف عنهم» .[1]

ومنطق آخر سديد ، ألجم لسان متطفل ، ساع بالنميمة بين اثنين ، أوصد عاقل الباب أمامه ، بقول قوي صريح ، قد يجبن كثيرون من مواجهة المتطفلين به ، أو قد لا يخطر مثل هذا الرد عليهم . ولا عجب ، لأنه يُروى أن قائله فيلسوف :

«قال رجل لفيلسوف : إن فلانا عابك بكذا وكذا . فقال الفيلسوف : لقد واجهتني أنت بما استحى الرجل من استقبالي به» .[2]

والنمام ليس هو الوحيد الذي يستحق أن يوصد صاحب العقل النيّر الرزين الباب أمام سوئه ، فله

(١) الكشكول ٢ /٣٤٧ ، ومحاضرات الأدباء ٢٤٦ .
(٢) الكشكول ١ /٢٣٤ .

مرادفون في السوء، يحتاجون إلى رد فريد متميز، فهناك المنافق والمتملق :

«قال أبو بكر محمد بن يحيى : أخبرنا العباس بن يكار، قال : حدثني شبيب بن شيبه، قال جعفر بن يحيى بن خالد - وقد قال له رجل - : والله لأنت أحلم من الأحنف، وأحكم من معاوية، وأحزم من عبد الملك، وأعدل من عمر بن عبد العزيز.

فقال له يحيى : والله لعمير، غلام الأحنف، أحكم، ولأبو الزعيزعة، صاحب شرطة عبد الملك أحْزم، ولمزاحم، قهرمان عمر، أعدل مني. وما تقرّب إليّ من أعطاني فوق حقي . . .» .[1]

والعقل، وعدم الشعور بالنقص عند يحيى، هما اللذان جعلاه يرفض هذا الموقف المزري الذي وقفه المتملق، وقد أضفى هذا العقل زينة على صاحبه، حمدت له، ورواها الرواة، ودوّنها المؤرخون - كما رأينا هنا.

---

(١) المصون ١١٣ .

والرزانة والعقل لا تقفان عند حد، وإنما يدخل ضمنهما التأني والتدبّر، والنظر إلى الأمور من زوايا لا تخطر على بال الصفوة من الناس، ممن ينظرون إلى الأمـور بمنـظار فيـه طيب الخلق، وحسن السجية. فيتصرفون تجاه بعض الأمور بما يدهش ويعجب. والقصة التالية تصور موقف أحد هؤلاء الأفذاذ. والاختبار لم يكن سهلا - كما سنرى :

«رُوِي أن أبا عثمان أجتاز بسكة وقت الهاجرة، فألقي عليـه من فوق السطح طشت رماد، فتغير أصحـابه، وبسطوا ألسنتهم في الملقي. فقال أبو عثمان : لا تقولوا شيئاً، من استحق أن يصب عليه النار، فصولح على الرماد، لم يجز أن يغضب» .[1]

وهذا يذكرني بحادثة مماثلة، تصرف صاحبها بما يقـارب هذا التصرف في حدود عام ١٣٦٤هـ أو قبلها بعام. الذين يعرفون معالي الأستاذ إبراهيم بن عبد الله السويل - رحمهما الله - خاصة طلابه وزملاءه،

---

(١) سـراج الملوك ٤٣٠ .

يعرفِون دماثة خلقه ، وسعة صدره ، وعفة لسانه ، فلم نسمع طوال تدريسه لنا كلمة منه نابية ، أو رأينا على وجهه الغضب ، أو لاحظنا منه ما يجعلنا ننفر منه . كنا ننتظر بفارغ الصبر دروسه ، وكان يدرسنا في المرحلة الثانوية بالمعهد العلمي السعودي في قلعة هندي بمكة المكرمة «علم النفس» . وكان قد عاد مدرسا بها ، وبمدرسة تحضير البعثات بعد أن تخرج من دار العلوم . وكنت أمشي في أحد الأيام بجانبه ، صاعدين إلى قلعة هندي ، نجاهد طريقها الصاعد ، فصبت إحدى السيدات من طابق أعلى ماء قد غسلت به بعض الأواني . وجاء الأستاذ إبراهيم - رحمه الله - منه نصيب وافر ، وشّى ثيابه بلون الرماد المختلط بالماء ، فابتسم ، ورفع رأسه ، وما زاد أن قال مامعناه : «الله قادر أن ينزّل المطر دون أن يكون هناك سحاب» . وضحكت معه ، وانشغل هو بعد أن وصل إلى القلعة ، يشرح للمستغربين ما أتحف به من أحد طوابق أحد البيوت - رحمه الله رحمة واسعة - .

والعقل يفترض أنه يرافق السن عادة ، إذا كان الإنسان سويّا ، ويتطور معه ، لأن التجربة تلعب دوراً في تغذيته وتقويمه . وعرف أن الحكمة - في الغالب - عند الشيوخ ، وقد قال بعضهم عنهم أنهم : أشجار الوقار ، وينابيع الأخبار ، لا يطيش لهم سهم ، ولا يسقط لهم وهم» .[1]

يمكن المقارنة في القصة الآتية بين عجلة الشاب ، وأناة الشيخ ، ومدى سيطرة العقل على الشيخ ، وجموحه عند الشاب ، وحسن جواب الشيخ بما لم يخطر على بال الشاب :

«قال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه عمر : يا أبت مالك لا تنفذ في الأمور؟ فوالله لا أبالي في الحق لو غلت بي وبك القدور . فقال له عمر : لا تعجل يا بنيّ ، فإن الله ذمّ الخمر في القرآن مرتين ، وحَرَّمها في الثالثة ، وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه ، فتكون فتنة» .[2]

---

(١) سراج الملوك ٢٢٨ .

(٢) العقد الفريد ١/ ٤٠ .

والعاقل يوجد في كل زمان ، والحكمة لا تقتصر على عصر بعينه ، ولقد كان في عصر الجاهلية رجال عرفوا بالعقل ، وحسن التدبير ، مما جعلهم يقدرون الأناه والرويّة ، في الأمور المدلهمة التي تعرض لهم . هذا عامر بن الظرب ، حاكم العرب ، يقول :

«دعوا الرأي يغبّ حتى يختمر ، وإياكم والرأي الفطير . يريد الأناة في الرأي ، والتثبت فيه» .

وكل من تقدمت به السن ، وتجمعت له حصيلة من التجارب ، يدرك صحة هذا القول ، ومدى صدقه ؛ فهناك أمور يكون الرأي فيها واضحاً ، لا يحتاج إلى تأخير ؛ لأنه ليس من التعقيد بمكان . ولكنْ هناك أمور تعرض للمرء يحتار كيف يعالجها ، فيتركها يوماً أو يومين ؛ فيفتح الله له من الأبواب ما كان مغلقاً ، وييسر له من الرأي ما كان عسيراً . وقد يعجب المرء من نفسه كيف لم يفكر أولا فيما تبين له تالياً .

أخطاء في اللغة(*)

يتسلل الخطأ في اللغة بهدوء تسلل النوم إلى عين المجهد، أو اللص في هدأة الليل، وغفلة الناس، ولكل زمن خطأ أو أخطاء تضاف إلى ما سبقها من أخطاء في زمن مضى، حتى تمتلىء اللغة بالأخطاء، ولا يعلم عنها إلا قليل من الناس؛ فأول ما يبدأ الخطأ أو التحريف يجد من يلاحظه، وقد ينبه إليه، ويحذر منه. وفي الغالب لا يجد هذا الصوت من يسمعه، أو يأبه له إن سمعه، ثم يتغلغل الخطأ تدريجيا، ويخفت تدريجيا الصوت المحذر. ثم يأتي جيل قد لا يدري أن هناك خطأ. وهذه الأخطاء تقع إما في تصريف الكلمة أو في تركيبها في الجملة، أو في صرف معنى غيرها إليها، أو معناها إلى غيرها. وتأتي هذه الأخطاء عادة من المتعلقين بالأدب، أو بإحدى وسائل التعبير كالراديو

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٣٠٣) في ١٤١٢/٧/٧هـ الموافق ١٩٩٢/١/١١م.

والتلفـزيـون ؛ والصحـافة في زمننا إحدى وسائل تسرب الأخطاء ، ومن أقرب الكلمات التي دخلت منذ سنوات قليلة ، ونراها تتوغل كما يتوغل الخنجر في الصدر قولهم : «التقى فلان فلانا» ، بدلا من «التقى به» . وقــد بدأت أولا في بعض الصحف العـربية ، ولعلها دخلت نتيجة ترجمة سقيمة ، ثم بدأت تنتشر . وقبـل هذه الكلمة بعشرات السنين أسقطت «لا» من «لا سيما» ، فأصبحت : «سيما» ، وتخفف النـاس بهذه الصورة الخاطئة عن الصورة الأصلية الصحيحة . وأصبح بعض المتأدبين يظنها أفصح من «لا سيما» . ترى هل وصل بنا الكسل العقلي إلى أن نجد في نطق «لا» تعباً وعناءً ، يجعلنا نرتكب من أجله هذا الخطأ .

وتأتي كلمات تائهة عن أماكنها ، وتقع في أماكن غيرها ، فتوجب التقزز والاشمئزاز ، مثل قولهم : «الأدب الـذي أفـرزه العصر الإسلامي» . وكلمة «أفرز» لم تكن تلصق بالمعاني الجميلة ، وإنما كانت

لصيقة للعرق، وأمثاله من الأشياء التي يخرج منها سائل أو ريحة .

ومثلها كلمة : «زخم» ، فالزخم ، فيما كنا نعرفه ، الرائحة الكريهة ، والطعام المزخم الذي فسدت رائحته ، وبدأ ينتن . وكتاب : «لسان العرب» يشهد بذلك . يقول مؤلفه : «زخم : الزخمة : الرائحة الكريهة ، أي رائحة كريهة . وقد زخم زخما ، وفيه زخمة ، والزخماء المنتنة الرائحة» .

أما الآن فكلمة : «زخم» في الصحف ، وفي الكتب الحديثة تعني : «الكثير» ، فيقولون : تتالى زخم الكلمات المعبرة عن كذا ، أو هذا الزخم من الآراء والأفكار (وإن كان يصدق بعض ما يقال في هذا الصدد على المعنى الأصلي إن كانت المعاني فعلا منتنة وإن كان القائل لا يدري) . فيقول : وكان هناك زخم من الكتب التي تبحث في كذا ، يقصد أنها كثيرة العدد . والحقيقة تقول : إنها منتنة الرائحة .

فإن قيل إن هذه جاءت على سبيل الاستعارة ،

فقد جاءت من فساد ذوق ؛ لأن الاستعارة جميلة ، والمفروض أن تعطي ما استعيرت له جمالا ، لا أن تنقل له معنى مقززاً ، تشمئز الآذان من سماعه .

الخوف أن يأتي يوم تكون اللغة بغفلة أهلها ، وتهاونهم ، غريبة في أهلها ، وهم لا يعلمون ، وتصبح كلها «قطع غيار» ليست أصيلة ، ومغشوشة ، ومدسوسة . ويأتي يوم يصبح القول الصحيح هو الغريب . وقد كثرت الكتب والمقالات التي تصدت للأخطاء ، قديماً وحديثاً ، وبينت الخطأ ودرجته ومدرجه ومأتاه ، وبينت الصحيح والفصيح . ولكن السيل جارف فيما يأتي من خطأ .

إن بعض ما قبلناه ، ولم نشك في صحته ، كان مجال تصحيح ممن سبق . من يصدق أن لفظ «أجوبة» خطأ ، وجاءت خلافاً لما عليه الفصيح . ولا تظن أن الخطأ دخل عن طريق طلاب المدارس ، أو أساتذتهم اليوم . إن الأمر موغل في القدم . وقارن بين أخطاء ذلك الزمن وأخطاء زمننا :

قال قاضي البصرة محمد بن عبد الله الأنصاري :

سألت سيبويه : كيف تجمع الجواب ، قال : لا يجمع .

قال أبو عثمان المازني - راوي الخبر - «الجواب مصدر ، والمصادر لا تجمع ، ألا ترى أن «جواب» على مثال «فساد» و «صلاح» فكما لا يجمع الفساد والصلاح ، فكذلك لا يجمع الجواب مثله . وقد جمعت من المصادر احْرف قليلة ، وليس يطرد عليه الباب ، إلا إنه قد قيل «أمراض» و «أشعار» و «عقول» و «ألباب» و «أوجاع» و «آلام» . فلا يحملنّك هذا على أن تقيس ، فتجمع المصادر فتقول : ضربته ضرباً كثيراً ، ولا تقول : ضروبا كثيرة ، ولو قلت ذلك لصارت أصنافاً من الضرب» .

قال : وقولهم : «كتاب الجوابات» خطأ ، وهو مولّد ، وكذلك : «أجوبة كتبي» ، وإنما يقال : «كتبت إليك ، فلم تجبني جواب كتبي» .[1]

---

(١) مجالس العلماء ١٧٥ .

كيف لو سمع سيبويه ما نقدم عليه بجرأة متناهية من قولنا : «أنشطة» و «نشاطات» . بدلا من التعبير الصحيح : «أنواع النشاط» أو «مختلف النشاط» .

أو كيف لو سمعها أبو زيد البلخي ، وهو أحد الدقيقين في مقاييسهم للغة ، والغيورين اليقظين عليها ولها ، فلم يفته عندما أخطأ أميره في اللغة أن يرده بأدب ولباقة متناهية إلى الصواب ، ويضعه على الجادة المستقيمة في أصول اللغة :

لقي أبو زيد البلخي أحمد بن سهل ، الأمير ، في طريق ، وقد أجهد البلخي في السير ، فقال له (الأمير) : «عييت أيها الشيخ !» فقال أبو زيد : «نعم أعييت أيها الأمير» ، فنبه أنه لحن في قوله : «أعييت» إذ «العي» في الكلام ، والإعياء في المشي .[1]

وكان هؤلاء القوم حريصين على الدقة في اللغة

---

(١) معجم الأدباء ٣/٨١ .

عنـدمـا يتكلمون ، وكانوا يقدرون هذه الدقة في غيرهم أيضا ، ويلحظونها في الكلام إذا مرّ بهم :

دخل الحسين بن أحمد بن خالويه يوما على سيف الـدولة ، فلما مثل بين يديه قال له : «أقعد» ، ولم يقـل : «إجلس» . قال ابن خالـويـه : «فعلمت بذلك اعتلاقه (تعلقه) بأهداب الأدب ، واطلاعه على أسرار كلام العرب» ، قلت : قال ابن خالويه : «هذا لأنـه يقال للقائم : أقعد ، وللنائم والساجد إجلس» . (١)

(١) معجـم الأدبـاء ٩/٢٠٢ .

في الوساطة(*)

يبدو أن الوساطة - عند القائمين على الأعمال الوظيفية - ليست مقصورة على أهل هذا القرن، وليسوا وحدهم الذين يعانون منها، أو يلجؤون إليها، وإنما لها جذور عريقة في التاريخ، وأسباب ممتدة في المجتمعات المتعاقبة، وتعود على الأقل إلى عصور الإسلام الأولى. وهذا لأن طبيعة الناس واحدة، ويأتي منهم في زمن حاضر ما جاء منهم في من ماض، إذا تماثلت الظروف، وتشابهت المناسبات. وهناك مايدل على أن الوساطة حينئذ مثلها اليوم لا تخلو من احراج، وفيها ثقل على نفوس بعض الناس، وفيها ملجأ وملاذ ومعتمد لأناس آخرين، بصرف النظر عما تحدثه من مضايقة وثقل.

والوسيط قد يكون محرجا مثل الموسَّط إليه، ويمشي

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٣١٠) في ١٤/٧/١٤١٢هـ الموافق ١٨/١/١٩٩٢م.

بالوساطة وهو يتعثر ، ويقطر عرقا ، ويتلمس لين الأرض التي سوف يسير عليها للموسَّط إليه ، ويختار المداخل للحديث ، وقد يحتار بينها ، ويقدم مرة ، ويحجم أخــرى ، ولكنــه يدفـع إلى الأمـام بمن لا يرحم ، وقد تكون الحاجة هي ما يدفع الاثنين . ولكلٍّ من الثلاثة : الموسِّط والموسَّط والمتوسَّط إليه موقف يتصف به . ومن القصــة الآتيـة وهي من التراث يتبين دور المتوسَّط إليه ، في حالة معينة على الأقل ، وكيف كشف عما يعتقده في الوساطة ، وما تجر إليه ، وما يراه لازماً أمامها حتى يحصل النفع ، ويـرتفـع الضرر ، وهـو رجل له مقامه ومكانه في مجتمعه ، وما وصل إلى ما وصل إليه إلا بما حباه الله من عقل وإدراك وبصيرة ، يكشف عن هذا الجانب فيه ما نطق به في هذا الموضوع مما وفاه حقه وأحسن :

روى صاحب المصون فقال :

أخبرنا أبو بكر محمد بن يحيى قال : سمعت أبا

العيناء يحدِّث أن رجلا كلّم يحيى بن خالد البرمكي في رجل أن يوليه، فقال يحيى :

«إنا لا نشرك في أماناتنا، ولا ينسب إلى عقولنا، أفعال غيرنا، ولا نسترعي رعية أمير المؤمنين إلا المستحقين، الذين توجب لهم المعرفةُ المنزلةَ، ولست أعرف هذا الرجل بالكفاية، فأشفّعك في أمره بالاجابة، ولا بغيرها فأردّك عن مسألتك، فإن أحب ما عندنا حضر لننظر ما عنده، فإن كان مضطلعاً بالولاية، ناهضا بثقلها، زينة للسلطان، وعذراً بينه وبين الرعية ولّيته قدر ما يستحق، وإن كان مقصِّراً عن ذلك قضيت حقّه عنك بصلة تكون كفاءً لما أمّلته له». [1]

ومن زاوية ثانية تحظى توصية بتدبيج جميل من أمير الكتابة عبد الحميد الكاتب، يوصي فيها بشخص فيقول :

«حقّ موصِّل كتابي إليك حقه عليّ، إذ جعلك

---

(١) المصـــون ١١١ .

موضعاً لأمله، ورآني أهلا لحاجته، وقد أنجزتُ حاجتهَ، فصدِّق أمله» .[1]

ولو كانت كل التوصيات تكتب بهذا البيان، وتصاغ بهذه البلاغة، ويلتمس لها مثل هذا المنطق، وتوشى بهذه الحلية، وتقدم بهذه الحجة، ويدخل إليها من هذا المدخل، وتخرج من هذا المخرج، لم يتوقع لتوصية أن ترفض، أو يوصد باب الاستجابة لها.

ولكن التوصيات التي ترد في التراث ليست كلها من هذا النوع، وليست كلها تسير على هذا النسق، وليست كلها تأمل في الاستجابة، أو ترجو النجاح، بل قد تهدف إلى خلاف المرجو، وضد المتوقع؛ فعلى هذا فبينها وبين ما قبلها بون شاسع، وفرق كبير. تمعن في التوصية الآتية:

سأل شخص الجاحظ كتابا إلى بعض أصحابه بالوصية، فكتب له رقعة وختمها. فلما خرج

(١) سرح العيون ٢٤٠ .

الرجل من عنده فضها ، فإذا فيها :

كتابي إليك مع من لا أعرف ، ولا أوجِب حقّه فإن قضيت حاجته لم أحمدك ، وإن رددته لم أذمّك » .

فرجع إليه الرجل ، فقال الجاحظ : «كأنك فضضت الرقعة !» قال : «نعم !» قال : «لا يضيرك ما فيها ؛ فإنه علامة لي إذا أردت العناية بشخص» ، فقال الرجل «قطع الله يديك ورجليك ولعنك» . فقال : ما هذا ؟ قال : «علامة لي إذا أردت أن أشكر شخصاً» .[1]

كما نرى ، هنا وصيتان ، إحداهما متجهة شرقاً ، والأخرى غرباً ، واحدة تعطي ، والثانية تحرم . واحدة يرجى أن تكون انتهت إلى ما أمله الموصى به ، أما الثانية فاجهضت في بدء الحمل . أما الاتفاق بين الوصيتين فهو قوة البلاغة ، وسلامة البيان .

---

(١) سرح العيون ٢٥٢ .

أورد صاحب معجم الأدباء[1] في ترجمة أحمد المقرئ وكان له جاه عريض عند السلطان ، وسأله بعض أصحابه كتاباً إلى هلال بن بدر في حاجة له ، فكتب إليه كتابا وختمه ، ولم يقف عليه ، فلما صار إلى هلال ، وسلم إليه الكتاب ، قضى حوائجه ، وبلغ له فوق ما أراد ، فلما أراد أن ينصرف ، قال له : تدري ما في كتابك ؟ قال : فأخرجه وفيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . . حامل كتابي إليك حامل كتاب الله عني والسلام وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين .

(١) ص ٥/٧٣ .

صفاء ذهن الأعراب(*)

للأعراب صفاء ذهن ، وقدرة على تصوير الأفكار ، وابرازها بجلاء ، بعبارات مختصرة ، وألفاظ دقيقة ؛ مما يدل على وضوح الفكرة في أذهانهم ، ووجود ملكة ناضجة عندهم لرسم مايريدون نقله إلى الآخرين ، سواء كان قولهم إجابة على استفسار ، أو نصيحة لعزيز عليهم ، أو كان القول دعاء يتوجهون به إلى الله .

ولعل لأجواء البادية ومجتمعها تأثير عليهم في تكوين هذا الصفاء ؛ فمجتمعهم بسيط لا تعقيد فيه ، ومحدود في عطائه وطلبه ، والتزامهم نحو بعضهم بعضا معين ومحصور . وهذا يجعل عندهم وقتاً للتأمل والتفكر ، خاصة إذا كانوا في وقت خلوة وتفرد ، كأن يكون الواحد منهم في سفر ، أو راعياً مع قطيع ، أو من كبار السن الذين يجلسون في

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٥٩١) في ١٤١٢/٧/٢١هـ الموافق ١٩٩٢/١/٢٥م .

الخيام بعد أن يسرح القوم إلى أعمالهم، رجالاً ونساءًا .

إذا نطقوا بالقول حكمة أو مثلا لا تجد فيه ثغرة، ولا تلمس في تركيبه خللا، فلا تستطيع أن تضيف إليه، أو تنقص منه، ولو فعلت لاهتز بناؤه، وتشوهت معالمه . وصفاء ذهن الاعراب، وإتيانهم بما لا يخطر على البال، وبما هو، في الوقت نفسه، عين الحقيقة، يتضح في النص الآتي :

«قيل لأعرابية ما الذلّ؟ قالت : وقوف الشريف بباب الدنىء، ثم لا يؤذن له، قيل : وما الشرف؟ قالت : عقد المِنَنْ في أعناق الرجال» .[1]

إنّه قول صادق، لا يجد الناظر فيه مدخلا للخلل . هو عصارة تجربة، وزبدة استقصاء، ودراسة للحياة ملحفة، جاءت نتيجة كل ذلك، في هذه الكلمات الدقيقة .

ولا يقتصر صفاء الذهن، وجودة التعبير على

(١) الكشكول ١/ ٣٣٩ .

جانب واحد من جوانب القول ، فقد يأتي كما رأينا في تقـريـر حقيقة ، وقد يأتي رداً مفاجئاً على سؤال طارق ، فينال الجواب الإعجاب ، الداعي للرواية والتبني والتـدوين . وفي المثـل الآتي نظرة طبيعيـة للأمـور ، واعتبار بسيط ، فيفاجأ المتخصص به ، ويندهش . ولعل السر يكمن في صفاء النية أيضاً التي حكمت صاحبه عند القول :

«خفف أعرابي صلاته ، فلاموه على ذلك ، فقال : إن الغريم كريم» .[1]

عبّر عما في نفسه دون تحفظ في حدود ما أملاه عليه فكره ، وما زاد عن نقل جملة اعتاد أن يمدح بها البشر إلى خالقه ، ولم يفكر فيما قد يأتي من اعتراض على كلمة «غريم» . وإنما اقتنص البيان وصاده . ولم يَعْنِ إلا أن من يعنيه الأمر كريمٌ .

والأدعيـة مجال لانطلاقهم في أقوالهم المبدعة ، فهم أصحـاب الكلمـة ، فلما جاء الإسلام أخذوا

(١) الكشكول ٢ / ٣٣٤ .

المعاني لكلماتهم ، فلم يعوزهم القول ، فجاء منهم حاملا المعنى الذي يجول في أفكارهم . وقد لا يسير على النسق المعتاد الوارد في الدين ، لبعدهم عن المدن ، ولكن المرمى واحد ، ويشفع لهم في طرافة تعبيرهم أحيانا النية التي تكمن خلفه صافية مثل عين الطير ، أو ماء الغدير .

استمع إلى أعرابي يخاطب ربه بثقة واطمئنان إلى أنه السامع الكريم المجيب :

حج أعرابي ، فقال : «اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله ، وإن كان في الأرض فأخرجه ، وإن كان نائيا فقربه ، وإن كان قريباً فيسره» . (١)

وهذه أعرابية تنفث رغبتها ، وتطلب من ربها خيره ، بكلمات صافية في رأيها ، فتقول عندما حجت ، ووقفت في عرفات :

«أسألك الصحبة ياكريم الصحبة ، وأسألك سترك الذي لا تزيله الرياح ، ولا تخرقه الرماح» . (٢)

---

(١) البيان ٣/ ٢٧٥ .

(٢) البيان والتبيين ٣/ ٢٧٤ .

والمشاعر يدعو فيها الحاج أو المعتمر بما يحب، والمشاعر توحي لهؤلاء الأعراب، أصحاب المنطق والكلمة الرصينة، بالابداع والتجلي. هذا أعرابي يرفع يديه إلى خالقه في تجرد واستسلام فيقول:

«اللهم إن لك علي حقوقا فتصدق بها علي، وللناس قبلي تبعات فتحملها عني. وقد أوجبت لكل ضيف قِرى، وأنا ضيفك، فاجعل قراي في هذه الليلة الجنة». [1]

أرأيت كيف نقل صورة الضيافة التي يعزها ويقدرها إلى دعائه، فكسى دعاءه رداء من بيئته مقبولا، وصاغها صياغة مرضية، رأى أنها تليق به أن يتوجه بها إلى ربه، واثقاً بأن رجاءه لا يخيب.

والأعرابي عندما يخاطب ربه يكون واضحا، لا يخفي عن ربه هدفه، ولا يواري في دعائه، يطلب الطلب ويردفه بالسبب، فهو في المثل الآتي لا يكتفي بطلب الرزق والولد، ولكن يردف ذلك

---

(١) البيان والتبيين ٢/٩٦.

بالسبب لطلبها، ولو أن في شرح السبب ما قد يؤخذ عليه مما يخل بصلة الرحم. استمع إليه يطلب ربه:

يروي الأصمعي أنه سمع أعرابياً يدعو ويقول:

«اللهم ارزقني مالا أكبت به الاعداء، وبنين أصول بهم على الأقرباء». [1]

وإذا انتقلنا من الدعاء وعباراته، إلى عبارات تلمس جوانب أخرى من حياته، نجد فيه جملا تدل على صفاء الذهن، ووضوح الفكرة، نجد اختصاراً غير مخل، وشرحاً غير ممل، وبيانا ناصعا، وقولا صادقا. نجد جملا تتوالى وتتتابع كأنها عقد من اللؤلؤ، في غير تكلف أو تصيد. استمع إلى أحدهم يتكلم فيوجز فيعجز ويُغْني:

ذمّ أعرابي رجلا فقال:

«كان سمين المال، مهزول المعروف». [2]

---

(١) البيان والتبيين ٤/٧٧.

(٢) بهجة المجالس ١/١٠٧.

وقال آخر مختصراً مثل سابقه، وبلهجة العارف بأحـواله، وبلا تردد في الإجابة، عندما سئل عن اسم المرق عند الأعراب؟ قال: «السخين» فقيل له: فإذا برد؟ قال: لا ندعه يبرد.[1]

لا بد أن هذا الجـواب قد فاجـأ السـائـل كما فاجأنا. وعلى نمط هذا الجواب الوافي الكافي الشافي المختصر يأتي حديث مماثل مع أعرابي آخر:

«باع نخاس من أعرابي غلاما، فأراد أن يتبرأ من عيبه. قال: إعلم أنه يبول في الفراش. قال: إن وجد فراشاً فليبل فيه».[2]

وتبـدع إحـدى الأمّهات الأعرابيات في قولها، وهي تخاصم ابنهـا إلى عامـل الماء، بجمل رصينة مترادفـة، ومعـانٍ متتـابعـة، مما دعا ابنها في نهاية حديثهـا أن يبدي ملاحظة على ما قالت بأنه كلام خطباء، والخطباء عادة هم الذين يريدون من قولهم

(١) البيان والتبيين ٤/ ٩.

(٢) البيـــان ٤/ ٩.

التأثير، مثل المحامي في زماننا، وكانت في موقفها وقولها خير من كثير من المحامين، قالت :

«أما كان بطني لك وعاء؟ أما كان حجري لك فناء؟ أما كان ثديي لك سقاءً؟» .[1]

قال ابنها : لقد أصبحت خطيبة - رضي الله عنك - ولعل تكرار كلمتي «أما كان» مع تناسق الجمل، وقوة المعنى هو سبب ملاحظة ابنها .

واسمع المنطق، وقوة الحجة، في عبارة رصينة، وحجة قوية، ومعنى صادق :

قيل لأعرابي : «ما لك لا تضع العمامة عن رأسك؟ قال : إن شيئاً فيه السمع والبصر لحقيق بالصون» .[2]

وحجة أخرى في بيان بديع يأتي بها أعرابي آخر عندما قال :

«اللهم أحفظني من الصديق! فقيل : كيف؟

(١) البيان ١/٤٠٨ .

(٢) البيان ٢/٨٨ .

قال : لأني متحرز من العدو» .[1]

والذكاء الفطري يكمن خلف الكلمات الرصينة في قول أعرابي سئل : كيف غلبت الناس؟ فقال : كنت أبهت بالكذب ، واستشهد بالموتى .[2]

والاستعارة في قول أعرابي آخر تعطي قوله من الالتفات والتسجيل ما يستحقه . وتشبيهه الدين بالثوب ، والاخلال به بالتمزيق ، والندم والعودة والاستغفار بالرقع ، يضفي على الجمل ثوباً لا يشبهه التعبير الخالي من البيان . لقد جسم الذنب وكبّره بتعبيره هذا :

«قيل لأعرابي : كيف حالك؟ فقال : بخير ، أمزق ديني بالذنوب ، وأرقعه بالاستغفار» .[3]

وقد لاحظ عمر بن عبدالعزيز الميزات التي يفوق بها الأعراب غيرهم ، فمدحها ، وكان منصفاً فيما قال : ولم يأخذ عليهم إلا الجفاء الذي يكون

(١) محاضرات الأدباء ٢٥٠ .
(٢) الكشكول ٢/ ٢٢٩ .
(٣) الكشكول ٢/ ٢٣٨ .

فيهم ؛ ولعل للبيئة الخشنة القاسية التي يعيشون فيها دخل في هذا ؛ ففيها لم يتعودوا على التزويق والتلميع والتمليس ، يأتون بالشيء على طبيعته :

قال عمر بن عبد العزيز : «ما قوم أشبه بالسلف من الأعراب لولا جفاء فيهم» .(١)

وختام القول في الأعراب ، وصفاء ذهنهم ، وقدرتهم على التعبير السديد ، وصراحتهم المتناهية ، وعزة نفوسهم ، وتمسكهم بتقاليدهم ، وعاداتهم ، أنها تتمثل في القصة الآتية . وهي قصة قد تكون مختلقة ، ولا أصل لها من الصحة ؛ فالاختلاق على القبائل العربية ، وخاصة باهلة ، متوقع ؛ وقد يكون سببه أن منهم قتيبة ابن مسلم الباهلي ، وهو حاكم حازم ، وقائد ناجح ، مما جعله عرضة للطعن بالأقوال ، ولسيرته بالتلفيق والاختراع والاختلاق ؛ إذ لا قدرة لأعدائه عليه - وهو القائد المظفر - إلا بالكلام ولسعه ، والاقاصيص ووخز

---

(١) البيان ٢ / ١٦٤ .

إبرها ، وحكام العراق من ولاة الأمويين كانوا هدفاً جاهـزاً لذلـك ؛ لأن حزمهم مع من يخرج على الخليفـة جعـل التشفي منهم بالهجـاء ، وتـزييف القصص متنفساً لأولئك المبغضين لهم ، الناقمين عليهم ، المتربصين بهم . ولكن القصة قد اتقنت - إذا كانت ملفقـة - إتقاناً متكاملاً ، وأجيد تأليفها وسبكها ، فجاءت تحمل روح الأعراب ، ومنطقهم ، وتصرفهم . وهي تُري كيف حُصر الأعرابي في ركن ظُنّ أن لا مخرج منه ، فأصبح يتنازعه أمران : أمر دنيا وأمـر أخرى . وقد خرج من المأزق بما لم يرَ فيه حرجاً . والقاص متفضل في أنه لم يَروِ عنه ما يجرح دينه جرحاً بالغاً ، باختياره ألا يدخل الجنة !

وقتيبـة بن مسلم البـاهـلي أمـير قائـد مشهور منصور . كان شجاعاً جواداً فطناً ، دمث الأخلاق ، ولم يكن يعاب عليه - كما تروي القصص - إلا أنه من باهلة :

«يُروَى أنه مازح أعرابياً جافياً ؛ فقال : أيسرك

أن تكون مثلي باهلياً أميراً؟ فقال: لا والله. قال: فتكون باهليا خليفة؟ فقال: لا والله، ولو أن لي ما طلعت عليه الشمس! قال: فيسرك أن تكون باهليا وتكون في الجنة؟ فأطرق، ثم قال: بشرط ألا يعلم أهل الجنة أني باهلي، فضحك قتيبة من قوله» .[1]

وترجح أحيانا عندهم الناحية العلمية، ولا يكون للعاطفة والخيال ما كان، خاصة إذا كان الأمر يخص الأكل والمعيشة:

«دفعوا إلى أعرابية علكا لتمضغه، فلم تفعل، فقيل لها في ذلك، فقالت: (ما فيه إلا تعب الاضراس، وخيبة الحنجرة)» .[2]

هل جاوزت الواقع في قولها هذا؟! وألم تقل هذا عن صفاء ذهن؟!

ومما يدخل في صفاء ذهن الاعراب القصة التالية، إن صحت، وهذا الاحتياط يأتي من أن

(١) سرح العيون ١٨٧.
(٢) البيان والتبيين ٢/ ٩٥.

بعض القصص لطرافتها وغرابتها تثير الشك فيها :

«صلى أعرابي صلاة مختصرة ، فقام إليه عليّ - عليه السلام -بالدرة ، وقال : «أعدها» ، فلما فرغ قال : «أهـذه خير أم الأولى ؟» فقـال : «بل الأولى» ، فقـال : «لم ؟» قال : «لأن الأولى لله ، وهذه للدرة» .[1]

ومدخل الشك فيها أنه لم يكن هناك داعٍ للدرة ، لأن القصة لا تقول إن الأعرابي أبى أن يعيدَ صلاته عنـد إرشاده إلى الأفضل ، هذه واحدة والثانية أن رده ليس الرد الذي يتوقع أن يجاب به عليّ - رضي الله عنه - ولكن قيمة القصة في أن مثل هذا التفكير يمكن أن يأتي من الأعرابي ، بصفائه وعفويته هذه .

---

(١) الكشـكول ٢ /١٤٠٢ .

إن من البيان لسحرا(*)

الجملة الجامعة الصادقة البليغة التي قالها الرسول - ﷺ - عندما وفد عليه عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر، وسأل عليه السلام عمرو عن الزبرقان، فقال: «إنه لمانع لحوزته، مطاع في أدنيه». قال الزبرقان: «إنه، يا رسول الله، ليعلم مني أكثر مما قال، ولكنه حسدني شرفي، فقصر بي». قال عمرو: «هو والله زمر المروءة، ضيق العطن، لئيم الخال». فنظر النبي - ﷺ - في عيني عمرو، فقال عمرو: يا رسول الله، رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت، فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الآخرة». فقال الرسول - ﷺ - كلمته التي لا تجد الشفاهُ لها إلا حلاوة وطلاوة، والعقول والأذهان إلا صدًقا وحقاً: «إن من البيان لسحرا». [1]

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٣٢٤) في ١٤١٢/٧/٢٨هـ الموافق ١٩٩٢/٢/١م.

(١) البيان والتبيين ١/٣٤٩، زهر الآداب ١/٣٨.

لقد لفت نظر الرسول - ﷺ - قول عمرو بن الاهتم الذي قد يوحي للسامع لأول وهلة بأن فيه تناقضا، وإن كان لم يخف عليه - ﷺ - القصد، ولكنه نظر نظرة لها معنى، تغلغلت في داخل كيان عمرو، فزلزلته، وعرف قصد الرسول - ﷺ - منها، فبادر يجلو ما قد يكون غامضا للحاضرين، أو متناقضا في نظر السامعين، ويعيد احترامهم له، وثقتهم في رئاسته، فلا يفقد منزلته الشريفة بين قومه في ذهن مضيفيه، ويريهم أنه يستحق المنزلة التي أحله إياها قومه. فكان عند حسن ظن الرسول - ﷺ - ففسر بكفاية ومقدرة - كما هو الظن فيه - ما قد يكون تبادر إلى ذهن بعض السامعين من تنافر وتضاد في قوليه، وقال قولا يقطر فصاحة، ويصرخ إبداعاً، فكافأه الرسول - ﷺ - وهو من لا يضيع عنده حق، بأن وصف كلامه بأنه يدخل، في إعجازه وقبوله، مدخل السحر في النفوس. وهذا القول أبقى ذكر عمرو والزبرقان في تاريخ أدبنا

العربي أكثر مما أبقته رئاستهما، وما قد يكون لهما من أمجاد.

والمواقف التي على هذا النسق تتوالى على الناس في حياتهم على مرّ العصور والأيام، ولا يملك السامع لها، أو القارئ عنها إلا أن يقول: إن من البيان لسحرا. فهناك مواقف تمر بالإنسان في حياته، كيفما امتدت، لا يسعه أمامها إلا أن يستحضر موقفه - ﷺ -. والمواقف هذه فيما تبديه من شبهة تناقض ظاهر، لا يُفتأ عند تبطنه، وسبر غوره، والغوص على كنهه ومراميه، إلا أن يُقرّ أنه من السحر الحلال. وهذه المواقف قد تأتي لدفع ضرر أو صد إحراج، أو مجاملة لا تؤذي إن لم تنفع. وهي لا تأتي إلا من أناس أعطوا مقاليد القول، وبراعة اللسان، وصفاء الذهن ورجاحة العقل.

والطريق أو الأسلوب في هذا أن تقول بعض الحقيقة، وتسكت عن بعضها، وتأتي ببعضها الثاني في موقف آخر، وتغضى عن بعضها الأول، ولا

تلام على ذكر شيء والسكوت عن شيء. والشرط أن تتقن هذا، ويأتي منه مايكسبك مخرجاً، أو يبعد عنـك حرجـا. والقصة التالية فيها شيء من هذا النمط، لأن قائلهـا بدا منه التناقض، وقد يلحقه عتب من بعض من رأى هذا منه، أو سمع عنه، ولكن الأمر عند التبصر مقبول.

«بينما غيلان بن خرشة يسير مع ابن عامر، إذ وردا على نهر أم عبدالله، فقال ابن عامر: ما أنفع هذا النهر لأهل هذا المصر! قال غيلان: أجل أيها الأمير، والله إنهم ليستعذبون منه، وتفيض مياههم إليه، ويتعلم صبيانهم فيه العوم، وتأتيهم ميرتهم فيه.

فلما أن كان بعد ذلك ساير - ذات يوم - زياداً - وكان زياد عدواً لابن عامر - فقال زياد: ما أضرّ هذا النّهر بأهل هذا المصر! فقال غيلان: أجل والله أيهـا الأمـير، تنز منه دورهم، ويغرق صبيانهم، ويبعضون، ويبرغثون» .[1]

---

(١) الحيـوان ٥/١٩٨ .

إن غيلان لم يكذب في الأولى، وقد صدق في الأخرى، وإن كان الرسم النهائي للصورة اختلف فهذا جانب منها، وهذا جانب. إن في حياتنا كثيراً من أمثال هذه، إلا أن صياغتنا لها تختلف. إن التقارير الرسمية التي تقدم عن أي مشروع تعدد فوائده ومضاره، وتحدد ايجابه وسلبه، وتبين ما هو في جانبه، وما هو مجانب له، وتري ما هو معه، وما هو ضده. ولم يختلف ما هو في التقارير، وما هو في أقوال الأولين إلا في الأسلوب؛ فأسلوب القصة الماضية مثلاً أعطى الجانب الايجاب، وبيّن النفع في موقف معين، وسكت عن الضرر، وفي موقف آخر بيّن الجانب السلب، وأوضح الضرر، وسكت عن النفع. بينما التقرير الرسمي يبعد عن البيان وعن السحر، لأنه يهتم باعطاء الحقائق كلها، ولا يكتفي بشيء منها، أو يسكت عن شيء. يعطيها كلها متكاملة وافية، في وقت واحد، وقد تكون في ورقة واحدة.

حضور الذهن(*)

يعجب المرء من حضور الذهن عند بعض الناس عند الوفاة، فالوقت وقت شدة، والمحتضر ينفض يده من الدنيا، ويولي ظهره ما فيها، وما بقي في ذهنه من فكر أصبح مركزاً على ما يؤمله من خالقه من عفو وغفران، فهو في شغل شاغل عن الدنيا وما فيها ومن فيها، ومع هذا لا تعدم واحداً من الناس، تجده رابط الجأش، ثابت الجنان، حاضر الذهن، يستطيع أن يسترجع في هذه اللحظات الحرجة عصارة تجربة حياة مديدة، ويعطيها لمحبيه من أبنائه، أو أبناء قومه، نصيحة جامعة مانعة. ولا يأتي هذا إلا ممن هو أهل للرئاسة والقيادة، وعلى القمّة في مجتمعه، لا يذهله شيء عن حرصه على مصلحة مجتمعه. لا ينسيه إياها ما هو فيه من شدة المرض، وعناء الاحتضار، وكأنه

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٣٣١) في ١٤١٢/٨/٥هـ الموافق ١٩٩٢/٢/٨م.

يريـد أن يتمم معـروفه الذي أسداه لمن حوله في حيـاته ، وفي وقت صحته وعافيته ، وفضله الذي أغدقه عليهم دون حساب أو منّ . وهو الآن يسعى أن يبقي على حسن ظنهم به ، ولا يريد أن تنقطع هذه العناية ، أو أن تقل عنهم بعد وفاته . ورجل مثل هذا لا بد أنه كان يعيش في مجتمع بناؤه قوي ، وذي خلق متين ، وله جذور في الحضارة عريقة .

قال حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري لبني بدر لما حضرته الوفاة :

«اسمعوا منّي ما أوصيكم به : لا يتكل آخركم على أوّلكم ؛ فإنما يدرك الآخِرُ ما أدرك به الأول ، . وأنكحوا الكفِيّ الغريب ، فإنه عزّ حادث . وأصحبوا قومكم بأجمل أخلاقكم . ولا تخالفوا فيما اجتمعتم عليـه ، فإن الخلاف يزري بالرئيس المطاع ، وإذا حضركم أمـران فخذوا بخيرهما صدراً ، وإن كان مورده معروفاً . وإذا حاربتم فأوقعوا بحدّ وجَدّ . ثم قولـوا الحق ؛ فإنه لا خير في الكذب . واغزوا

بالكثِير ؛ فإني بذلك كنت أغلب النّاس . وعجّلوا بالقِرى ؛ فإن خيره أعجله . ولا تجترئوا على الملوك ؛ فإنّهم أطول أيادي منكم . ولا تغزوا إلا بالعيون . ولا تسرحوا حتى تأمنوا الصباح . وإياكم وفضحات البغي ، وغلبات المزاح » . (١)

هذه النصيحة الجامعة ، مملوءة بالحكم ، مفعمة طافحة بعصارة التجربة . إنها نصيحة لا تقف عند زمنها ، وأقوال لا تنحصر في محيطها ، ولا تخص من قيلت لهم ، ولا تقف عند من وجهت لهم . وإنما هي نصيحة تخترق سجف الزمن ، وتنفذ من أستار حواجزه . إنها تتعدى إلى المجتمعات الأخرى ، وتتتالى الفائدة منها مع الزمن . إنه ليس فيها جملة ناقصة ، ولا عبارة مهتزة أو نابية أو زائدة ، أو خارجة عن حدودها . يعجز عن الاتيان بها كثير ممن عركهم الزمن ، وعصرتهم الأحداث ، حتى لو جلسوا - وهم بصحة وعافية - ليحبروها .

---

(١) المصون ١٤٤ .

هكـذا كان الرجال الذين يفخر بهم التراث ، وبما أثر عنهم . ولنا أن نطاول بهم ونفاخر .

ولعل التصور والخيال لا يكاد ، لو حلق ، أن يصل إلى ضياء الحقيقة التي تمثلت مضيئة في القصة الآتية :

«قال الفقيه عليّ أبي الحسن عليّ بن عيسى الولواجي :

دخلت على أبي الـريحـان (محمـد بن أحمـد البـيرونى) ، وهو يجود بنفسه ، قد حشرج نفسه ، وضاق به صدره ، فقال لي في تلك الحال : «كيف قلتَ لي يوما حسابَ الجدات الفاسدة ؟» فقلت له إشفاقاً عليه : «أفي هذه الحالة ؟» قال لي : «يا هذا ، أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ، ألا يكون خيراً من أن أخلّيها وأنا جاهل بها» ، فأعدت ذلك عليه وحفظه ، وعلّمني ما وعد ، وخرجت من عنده ، وأنا في الطريق فسمعت الصراخ .»[1]

---

(١) معجم الأدباء ١٧/١٨٢ .

إن شاء الله أنه إلى خير ما دامت هذه نيته ، وهذا سعيه لإكمال علمه في الدين ، وتحرير الحقوق .

أفكار للاهمال(*)

أفكار هي بقايا خرافات وخزعبلات ، لا بد أنها بقيت لنا من عصر من عصور الجاهلية ، فهي بعيدة عن العقل ، والدين بريء منها . وهي مضحكة إلى درجة الإغماء ، ومخزية إلى حد وجوب الاستتار . ومع هذا فقد سيطرت هذه الأفكار ، فترة من الفترات ، وازدهرت في المجتمع إلى وقت قريب ، ولعلها حتى اليوم تعرف ولكن على أنها تاريخ ، وشيء كان ولم يعد ، إن شاء الله :

شخص ممدد على الأرض، نائم على بطنه ، أو جنبه ، أو ظهره ، يضطر أحد المارين ، لضيق المكان في الغرفة ، أن يمر من فوقه ، فيراه ثالث ، ويقول له : إرجع من حيث أتيت ، وتخطّ عائداً جسم هذا الممدد ، فإن لم تفعل فسوف يصبح عرضة للموت حالا .

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٣٣٨) في ١٢/٨/١٤١٢هـ الموافق ١٥/١/١٩٩٢م .

وترشح عرقاً في فصل الصيف ، قبل أن يفد إلينا المكيف ، وقبـل أن تستضاف الكهرباء في بيوتنا . ويقف نَفَسك من شدة الحر ، والقيلولة تصرخ أن قد حان وقتها ، فتلتمس طراوة الهواء في أن تنام في مجراه بين بابين ، في طريق من يمر ، فترى الاهتمام والخـوف يعصران وجه محبيـك ، فيقـولـون بجـد وصرامــة : لا تنم في الــطريق ، فالجن يذهبـون ويأتون ، وقد يضرونك إذا ما وجدوك في طريقهم . وقد يأتي في ذهنك منطق صائب ، فتجد في داخل نفسـك أنـه إذا كان الجن يسـتـطيعـون أن يمروا ويــعــبروا دون أن يُروا ، فلن يعــجــزهـم أن «يسـاوسـوا» ويجـانبـوا ويمـروا بسلام بين النائم والجـدار ، أو يطيروا من فوقـه . ولكنك تئد هذه الأفكار ، لئلا تكون هدفا للنقد ، ومصدراً لازعاج من يحبونك ، لأن قولك عن الجن في نظر محبيك قد يزعـج الجن ، فيأتي منهم ما لا تحمد عقباه . وإن أبحت بأفكـارك ، وأصررت عليها بعثت القلق ، وجعلته ينهش قلوبهم .

ويسقط أحد أسنانك ، وأنت صغير ، فيقول لك صغير مثلك ، أحذفه في الهواء ، تجاه الشمس ، وقل لها : «خذي سن الحمار ، واعطني سن الغزال» . فتفعل ذلك ، دون أن تدرك أنك ، طوال المدة التي مرت بك كنت حماراً ، لأن من له سن حمار فهو حمار ! ولا يخفف عنك أنك سوف تصبح غزالا ؛ لأن الشمس سوف لا تعطيك سن غزال ، بل لن تعطيك شيئاً . ولعل هذه الخرافة قد جاءتنا من زمن الفراعنة ، أو من أمثالهم ممن كانوا يعبدون الشمس . ولعلها تسللت عبر القرون إلى أن وصلت إلينا باهتة «ماصِخَةً» . وقد اختفت هذه الخرافة من المدن أو كادت . ولا أظن أطباء الأسنان يحبذون نشرها لصلتها بالحمار أولا ، ولصعوبة التعويض بسن الغزال ثانياً[1] .

والثؤلول والثآليل لها حكاية أخرى ، في بعض

---

(١) قال ابن شبرمة : سألت الشعبي عن هذا البيت :

بدلته الشمس من منبته ... برداً أبيض مصقول الأسر

فلم يدر ما رد ، وما رد عليه . فقال : كان الصبي في الجاهلية ، إذا أثغر أقبل بسنه على الشمس فحذفها ، ثم قال : «أبدليني خيراً منه» ، وكيع ٣/١٦ .

مناطق المملكة ، فهي تشغل أذهان الناس ، لأنها أحيانا تشوه أيدي الفتيات ، فهي كلف غير مرحب به ، ينتشر بسرعة ، وعدواه - بإذن الله - تسري من جزء من اليد إلى جزء ، ومن يد إلى يد ، ومن إنسان إلى إنسان ، وإذا رؤي شخص مبتلى بها قيل له لا بد أنك عددت النجوم ، في الليل . وأهل الجزيرة كلها ، في الماضي ، مضطرون للنظر إلى النجوم في الليل ، عندما يتهيؤون للنوم في سطوح المنازل ، والطفل لا بد له من مراقبة النجوم وعدّها . ولم أعرف ما صلة عدّ النجوم بالثآليل .

ويبدو أن صلة النجوم بالثآليل ، أو الثآليل بالنجوم ، لم تقتصر على هذا الجزء من الجزيرة أو ذاك ، أو على زمننا ، وإنما جاءتنا من أزمان سابقة عندما كانت الخرافة مزدهرة ، والخزعبلات مسيطرة . وتسللت عبر العصور ، حتى بدأت الآن تضعف . وقبل أن تصلنا ، وفي عصر إسلامي سابق كانت صورتها كالآتي :

قال عليّ بن زبن في الثآليل :

«من كان في يده ثؤلول ، فليرتصد انقضاضة من الكوكب ، وينظر إليه ، ويُمرّ اصبعته السبّابة من يده اليمنى على الثؤلول ، وهو شاخص إلى الانقضاض ، لا يطرف ؛ فإنه ينتثر بعد يوم» . (١)

لا أدري ماذا لو كان الثؤلول في اليد اليمنى ، هل تنوب عنها اليسرى ؟! ما أبعد النجم عن الأرض التي فيها صاحب الثؤلول ، وهو إن انقض إلى الأرض فربما وقع في أرض أخرى بعيدة .

على أي حال هذه هي أقرب صلة وجدناها بين النجوم والثآليل في التراث .

(١) كتاب الدلائل ٣٢٤ .

العقل زينه(*)

العقل زينة، تحلّي جيد صاحبها، لا يسع المرء حين يرى أثرها إلا أن يلتفت إليها باعجاب وإكبار. يبرز العقل ورزانته أحيانا عندما تجلس مع رجل، فتتحدث إليه، فيشدك تصرفه، وحسن حديثه ومنطقه، مما يدل على عقل وتميز في الخلق. والأدب العربي، والتاريخ العربي مليءٌ بالقصص التي تسجل مثل هذه الصفات، حرص مسجلوها عليها؛ لأنهم رأوا فيها ما يميزها، وظنوا بها على الضياع. ولعلهم رأوا فيها درساً وعبرة، قد تفيد قارئاً، أو تنفع سامعاً.

وفي القصة الآتية مظاهر تتصف بهذه الصفة:

أشخص المنصور من الكوفة رجلا سعي به على أن عنده شيئاً من ودائع بني أمية. فقال الرجل للخليفة: أوارث القوم أنت، أو وصيهم يا أمير

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٣٤٥) في ١٤١٢/٨/١٩هـ الموافق ١٩٩٢/١/٢٢م.

المؤمنين ؟ فقال : إنهم خانوا المسلمين ، وأنا القائم بأمـورهم ، فقال الرجل : عليك بيّنة أن هذا من تلك الجنـايـات ، فقـد كان لهم مال . فأطـرق المنصور . ثم قال : خلوا سبيله . فقال : والله ليس لهم عندي مال ، ولكن رأيت الاحتجاج أقرب إلى الخـلاص . وهذا الساعي عبد آبق مني . فأشهده المنصـور ، فاعترف . فقال الرجل : أما إذ اعترف فهو في حلّ مما اقترف» . (١)

لايمكن للمتـدبّر إلا أن يعجب بهذا الرجل ، فقد أدرك من الوهلة الأولى أنه لو أنكر وجود المال فقد لا يصدق ، وقد يُؤذى ويُعذب . فإن لم يعترف ، واقتنع الخليفة بما قال بعد اليأس من تعذيبه ، يكون قد لحقه من الأذى ما كان في غنى عنه . والمنصور حسب بعض الصـور التي ترسم له ليس بالرجل الهيّن أو المتساهل . وقد لجأ الرجل إلى العقل فحاج به المنصور ، خطوة خطوة ، بطريق توحي بأنه فقيه فيـما عالجه ، عارف بما تصدى له . وكان المنصور

(١) الكشـكول ٢ / ٣٧٣ .

حازماً، ولكنه كان عادلاً، كما ظهر من المجادلة. وما فتىء أن سلم للمنطق، وطأطأ رأسه للحجة الناصعة. وقد كشف الرجل للمنصور منهجه في مقابلته هذا الأمر، وأبان الخطة لأسباب جداله؛ فقال إنه رأى أن الاحتجاج أقرب إلى الخلاص.

ومما يؤكد عظمة الرجل، ورجاحة عقله ورزانته، وأنه من نوع فريد، قليل أمثاله، أنه عندما برأ الله ساحته لم ينتقم من عبده الآبق، بل شكر الله على تبرئة ساحته، وإبعاد الأذى عنه، وشكر الله لا بالقول، ولكن بالفعل الذي لا يقدر عليه إلا ذوو العزم من الرجال. فعفا عن عبده الآبق، المسيء إليه. وأحسب أنه لو لم يفعل ذلك مع العبد لبطش المنصور بالعبد.

إن هيبة الحكام، خاصة من عرف عنه منهم القوة والشدة، في بدء تأسيس حكم، تزلزل جأش أعنف الرجال، وأرسى المتزنين، وتهز أثقل العقول. وهذا الرجل أحضر من بلدة أخرى،

مرجفاً به ، إلى مقر المنصور . ولعله لم يكن يعرف ذنبه ، ولكن الإيجاف به دلّه على أن الأمر جلل . ولا بدّ أنــه - طوال الـرحلة - أجـترّ الهم ، حتى وصل ، وتبين له الأمر . وإن كان يدري ما هو مقبل عليه من تهمة ، فالهمّ أكبر ، لأنه يعرف المنصور ، وبغضه لآل أمية ، وحنقه على أوليائهم .

بمثـل هذا الـرجل تبنى المجتمعات السليمة ، وبمثل هذا العنصر الفاخر تبارك الأمم .

صبر وشكر(*)

يقرأ أحدنا الخبر أو القصة، ويحتار هل يصدقها أو يكذبها؛ لأن هناك ما يدعو إلى هذا، أو يدل على ذاك. فمن بين ما يغري بالتصديق حبك القصة، وطرافتها، وما فيها من معان مضيئة، استطاع ساردها أن يجعلها مؤثرة التأثير الذي أراده. ولكن عند التمحيص، وتدبر طبيعة الأشياء، قد يشعر المدقق أنه لا يتم قبول هذا إلا بتجاوز أمور من الصعب إهمالها، أو التغاضي عنها، أو عدم الاحتفاء بها؛ لأن قبولها كاملة يوقع في التناقض بين ما اتصف به أشخاصها من خلق وما يبدو مما هو مناقض له. ولأبراز ما قصدته أضرب مثلا بالقصة الطريفة الآتية:

«نظرت امرأة من أهل البادية في المرآة، وكانت حسنة الصورة، وكان زوجها رديء الصورة جدّاً.

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٣٣٦) في ١١/٩/١٤١٢هـ الموافق ١٤/٣/١٩٩٢م.

فقالت له، والمرآة في يدها: إني لأرجو أن ندخل الجنّة أنا وأنت. فقال: وكيف ذلك؟ فقالت: أما أنا فلأني ابتليت بك فصبرت، وأما أنت فلأن الله قد أنعم علیك بي فشكرت، والصابر والشاكر في الجنة». [1]

لا شك أن ما تنطوي عليه القصة هدف نبيل، وقصد شريف، يقوم على عمودين من أعمدة الفضيلة: الصبر والشكر، وقد أتي بهما هنا في وسيلة إيضاح محكمة. وقد يقول قائل: إن اعتزاز المرأة بجمالها يدفعها أحيانا إلى الحديث عنه، والمفاخرة به، وأن هذه الحالة مظهر من مظاهر المفاخرة التي تتناسب مع طبيعة المرأة في الاعتداد بجمالها، وهو ثروة عظمى في نظرها، فجاءت المرأة بالمفاخرة، بهذه الطريقة الذكية، التي لا يستطيع زوجها أن ينكرها، أو يعترض عليها، أو ينقضها، وهو يعرف الحقيقة وصدقها في هذه الواقعة.

---

(١) الكشكول ٢ / ٤٣١٥.

ولكن المرأة الصابرة التي تؤمل في ثواب الله على صبرها على بلواها، لا تبطل الثواب بجرح أقرب النـاس إليها، وأعزهم عليها، خاصة وأنها ترجو الجنـة مع من ابتليت به، فهـو شريك في الدنيا، والمؤمل أن يكون كذلك في الآخرة. وجرحه بهذه الصورة الصريحة يتنافى مع الصبر، ورجاء الثواب، ومع العاطفة الدينية، والطاعة التي جاءت القصة لتؤكدها.

ومع هذا لم نسمع ما قال الرجل، ولعل القصة وقفت عند هذا الحد، فالقاص - بعد أن وصل إلى الهـدف الـذي أراده، وأفرغ ما في ذهنه من فكرة طريفة، عنّت له، فركبها على هاتين الشخصيتين - نسي أن يكمل القصة بما قد يزيل ما يوجب حيرة السامع، أو القارئ مثلي، أو لعله قصد ذلك بعد أن أدت القصـة الهـدف. فهل رضي الزوج بهذا القول المؤلم! أورده بما قد يكون عدل الكفة، وردّ الصاع صاعين، وثأر لكرامته.

ولـو أن القول جاء على لسان الرجل بدلا من المرأة ، ومدح الزوج جمال زوجته ، وشكر الله أمامها على إنعامه بها عليه ، ومدح صبرها واحتسابها ، لما وجـد معـترضٌ طريقـاً للاعـتراض، ولا مدخـلا للنقد ، ولجاء الأمر متقنا وافيا بالغرض من جميع جوانبه .

لا طـــيرة(*)[1]

نهي الدين عن التطير والطيرة، وفرق بين هذا والفأل الحسن. ولكن الناس - في كثير من الأحيان - يتطيرون ويعتقدون في بعض الأمور نتيجة ضعف في إيمانهم، وانهيارهم أمام أحداث الزمان؛ فيقعون في المحذور، من حيث يدرون أو لا يدرون. ولهذا يقدر الإنسان قوة إيمان بعض من كانوا في القرن الأول الإسلامي أو الثاني ممن لم يقع فيما كان مترسبا من عادات الجاهلية، التي قضى عليها الإسلام، وممن يتكل على الله، ويعزم على ما هو مقدم عليه، إيمانا بالله، وثقة بقضائه.

ولعل أشد العصور في مقاومة عادات الجاهلية المتصلة بالتطير والطيرة، ومجاهدتها، هي العصور الأولى للإسلام، لأن العادات والتقاليد كانت متمكّنة من النّاس، ويحتاج إلى زمن حتى تبهت

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٣٧٣) في ١٨/٩/١٤١٢هـ الموافق ٢١/٣/١٩٩٢م.

(١) في كتاب الحيوان للجاحظ [٣/٤٤٧] بعض ما يفيد في هذا المجال.

صورتهـا ، وتنمحي آثارها ، ويُبنَى مكانها عادات أخرى مستقيمة ، تحل محل المعوج ، وتسير في حدود الدين الإسلامي وتعاليمه .

وقد مرّ بي بعض نصوص من التراث توضح مثل هذا الأمر ، وتُري قوة الإيمان التي لا تهتز ، وعمق العقيدة التي لا تتضعضع ، يتصرف المؤمن فيها بما يؤكـد إيمانه ، وعزمه على إزالة أي شبهة طيرة قد تلوح ، ليحول دون وقوع آخرين في شبكة الضلال :

روى صاحب العقد الفريد ، قال : قال الشيباني :

«لما قدم قتيبة بن مسلم واليا على خراسان ، قام خطيبـا ، فسقـطت المخصرة من يده ، فتطير أهل خراسـان ، فقال : أيها النّاس ، ليس كما ظننتم ، ولكنه كما قال الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النّوى
كما قـر عينا بالإياب المسافر[1]

---

(١) العقد الفريد ٢/٣٠٣ ، انظر أيضاً تمام المنون ص ٣٦٧ حيث تنسب الحادثة إلى أبي العباس بن السفاح ، ورجل ناوله القضيب بعد ما وقع . والبيت للمعقّر بن أوس بن حمار البارقي ، حليف بني نمير ، وقبل هذا البيت :

وحلت سليمى في هضاب وأيكة فليس عليـها يـوم ذلـك قـادر

فقتيبة بن مسلم - وقد تغلغل الإيمان في قلبه - لأنه أخذ الإسلام من منبعه، سارع يزيل ما قد يعلق بأذهان بعض من قد لا يزال متأثراً بمعتقدات الجاهلية، وأوهامها. وسرعة بديهة قتيبة في هذا الموقف الخطر تدعو إلى الإعجاب.

ويروى عن الحجاج في هذا المجال أمر يقرب من هذا في حسن التعليل، وصرف النظر عن التطير:

«بنى عبد الملك بن مروان باباً للمسجد الأقصى، وبنى الحجاج باباً آخر بإزائه، فجاءت صاعقة، فأحرقت باب عبد الملك، وسلم باب الحجاج، فشق ذلك على عبد الملك، فكتب إليه الحجاج: ما مثلي ومثل مولاي إلا كمثل ابني آدم إذ قربا قربانا فتُقبّل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، فسرى ذلك عنه، وأذهب حزنه.»[1]

فهؤلاء استطاعوا بقوة الحجة، وحسن التخلص،

---

(١) الكشكول ٢/٤١.

وعمـق الإيمـان أن يرفضوا الخرافات ، وأن يخرجوا من المـأزق الـذي كان بالإمكـان أن يعـود عليهم بالضرر من جراء الطيرة .

والطيرة ، بجانب تعاليم الدين ، رفضها العقلاء بالتدبر والتفكّر . يقول صاحب كتاب أنيس العقلاء :

«لا شيء أضرّ بالـرأي ، ولا أفسـد للتدبير من اعتقاد الطيرة ، فمن اعتقد أن خوار بقرة ، أو نعيب غراب ، يردان قضاءً ، ويدفعان مقدوراً فقد جهل» . (١)

ويستمر في هذا البيان ، فيقول :

«واعلم أنه قلما يخلو من الطيرة أحد ، لا سيما من عارضتـه المقـاديـر في إرادته ، وصده القضاء عن طلبتـه ، فهـو يرجـو واليأس عليه أغلب ، ويأمل والخوف إليه أقرب . وإذا عاقه القضاء ، أو خانه الرجاء ، جعل الطيرة عذر خيبته ، وغفل عن قدرة

(١) الكشـكول ٢ / ١٩٣ .

الله ومشيئتـه ، فهـو إذا تطيّر من بعـدُ أحجم عن الاقدام، ويئس من الظفر ، وظنّ أن القياس فيه مطرد، وأن العبرة فيه مستمرة . ثـم يصير ذلك له عادة، فلا ينجح له سعي ، ولا يتم له قصد .

وأما من ساعدته المقادير ، ووافقه القضاء ، فهو قليـل الـطيرة لإقـدامـه ثقة باقباله ، وتعويلا على سعـادتـه ، فلا يصـدّه خوف ، ولا يكفّـه خور ، ولا يؤوب إلا ظافـراً ، ولا يعـود إلا منجحا ، لأن الغنم بالاقدام ، والخيبة بالاحجام ، فصارت الطيرة من سمات الإدبار ، واطراحها من أمارات الاقبال . فينبغي لمن مني بها وبـلي ، أن يصرف عن نفسـه وسـاوس النـوكى ، ودواعي الخيبـة ، وذرائـع الحـرمـان . ولا يجعـل للشيـطان سلطاناً في نقض عزائمـه ، ومعـارضة خالقه ، ويعلم أن قضاء الله تعـالى غالب ، وأن رزق العبـد له طالب ، وأن الحـركة سبب ، فليمض في عزائمه ، واثقاً بالله إن أَعطَى ، وراضيا به إن منع ، وليقل إن عارضه في

الـطيرة ريب ، أو خامره فيها وهم ، ما روي عن رسول الله - ﷺ - : «من تطيّر فليقل : اللهم لا يأتي بالخـيرات إلا أنت ، ولا يدفـع السيئـات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله» .

وقال ﷺ : «لا عدوى ، ولا طيرة» .

أقبلتم حين أقبلت(*)

جاء وقت أصبحت العلاقة بين الدكتور طه حسين وعدد من أساتذة كلية الآداب بجامعة الملك فؤاد حينئذ، على غير مايرام، أدى إليها اختلاف في الرأي في بعض الجوانب العلمية والإدارية. وهذا أمر معروف، وكتب عنه فيما بعد شيء كثير.

والدكتور طه حسين عرف بقوة شكيمته وعناده، وطول نفسه في الملاحاة والمعاسرة، ولقى من بعض أساتذة الجامعة ومفكريها من هو في مثل صلابة عريكته، فوقفوا أمامه، وحادوه، وواقفهم وحادهم. وكان هناك مناطحات تكسرت لها القرون، ودميت لها الرؤوس، وخدشت لها النفوس، وتغلثت لها القلوب. وأخذ ذلك فترة، تلذذ المتابعون وهم يرون شظاياها، تتطاير ذات اليمين وذات الشمال، يغذي ذلك شباب زاهٍ،

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٣٣٨) في ١٤١٢/١١/٩هـ الموافق ١٩٩٢/٤/١١م.

وعنفوان صبا . ولم تكن الأحزاب السياسية بعيدة عن دفع حطب جزل على النار المشتعلة .

وجاء وقت عُيّن الدكتور طه حسين وزيراً للمعارف ، وبحكم منصبه أصبح رئيساً أعلى للجامعتين : فؤاد في القاهرة ، وفاروق في الاسكندرية ، ويقال إن أساتذة جامعة الملك فؤاد في القاهرة وجدوا أن واجبهم أن يذهبوا لتهنئته بالمنصب الجديد ، وربما وجد بعضهم أن هذا قد يخفف مما قد يلجأ إليه من قرارات مجلس الجامعة ، وهو من هو في انفراده في بعض نظرياته عن مستقبل الثقافة في مصر ، خاصة في الجامعة ومناهجها ، وسياسة التعليم فيها . يكفي أن يؤخر التصديق على القرارات مما قد يؤخر الترقيات ، ورصد المبالغ للبحوث وغيرها .

فذهبوا إليه في مبنى وزارة المعارف ، وأعربوا عن فرحتهم لتعيينه ، وهو رجل علم مثلهم ، واعتبروا أن هذا مكسباً للتعليم عامة ، وللتعليم العالي

خاصة ، لأنه مؤهل ، وهو ابن الجامعة ، وأقرب الناس إلى معرفة آمالهم وآلامهم ، مع ثقتهم بأن قلبه لا يزال في الجامعة ، وروحه لا تبارحها .

ويقال - والله أعلم - أن الدكتور طه حسين ، استمع بإنصات إلى ما رأوا أن من اللائق في مثل هذا الموقف أن يقال ، وأنه قال بعد أن انتهوا من الاطناب في التهنئة ، والاشادة بجهوده وآرائه ، وما تقتضيه فضيلة التصافي والتسامح : «أقبلتم حين أقبلت» .

وكنا ونحن طلاب في الجامعة في مصر نسمع هذا ، ولم يكن بامكاننا التأكد من صحته حينئذ . وإذا كان قد قاله حقيقة ، فهل قاله لهم في وجوههم ، أم قاله فيما بعد ، بعد أن خرجوا ، وعلق به على ما قالوه ، أمام موظفيه الذين تناقلوه حتى وصل للناس .

تذكرت هذا وقد أصبح من التراث الذي لم يحقق بعد ، على حد علمي ، وذكرنيه بيت شعر مررت به

مر الكرام، أول الأمر ، وأوقفني عنده المقارنة بينه وبين ما قاله الدكتور طه في الموقف الذي مر به ، إن كان قد قاله .

يقول الشاعر :

إذا أعرضَتْ فالأهل مني أجانب
وإن أقبلَتْ فالأجنبي نسيب[1]

ترى هل كان هذا البيت في ذهن الدكتور طه حسين عندما قال كلمته !

(١) رحلة الشتاء والصيف ٢٢ .

الـدم يصـرخ(*)

تعلمنـا منذ نعومة أظفارنا، ومنذ أن كنا ننقل خطونا في المدارس الابتدائية أن الظلم شين قبيح، وأن عاقبته وخيمة. وأن صرخة المظلوم لا تضيع، وصـوتـه لا يتلاشى، وأن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب. وأن القتل ظلما من أبشع الجرائم ويمهل الله القاتل الظالم، ولا يهمله، مهما ظن أن جرمـه قد نسي، وعفيت آثـاره. وبشر الله القاتل بالقتل ولو بعد حين.

والقصص في إطالة الحبل للقاتل ظلما، ثم أخذه أخـذ عزيـز مقتدر، كثيرة ومتنوعة، ولا يخلو منها مجتمع، أو زمن من الأزمان، أو جيل من الأجيال. وهي سريعة الانتشار بين الناس؛ لمساس مثل هذا الأمر بأمنهم، وهو أغلى ما لديهم، لأن فيه سلامة دينهم وأرواحهم وأعراضهم وأموالهم. ولهذا يأخذ

(*) نشرت في صحيفـة عكـاظ بالعـدد (٩٢٩٥) في ١٦/١٠/١٤١٢هـ الموافق ٨/٤/١٩٩٢م.

الحـــديث والتسجيـل في هذا ، وعن هذا ، حيـزاً كبـيراً ، مما يروى ، أو يقال ، أو يكتب . وبعضه واقـع مرير ، وبعضه متخيل مفزع ، كأنه واقع ؛ يُؤتَى به للعظة والاعتبار والحماية والوقاية .

أعجبتني قصة في هذا المجال تُري كيف أن الله - سبحـانه وتعالى - لا ينسى عبده المظلوم ، وكيف يمهـل المجرم ولا يهمله ، وكيف يجعله يقود نفسه للمقصلة ، ويجرها للقصاص ، وكيف يجعله هو من يكشف عن جريمتـه ، ويشهـد على فعله القبيـح بلسانه ، بل يكون هو الكاشف والشاهد الوحيد . وهي سخرية لا تعدلها سخرية ، ليس لهذا فقط ، ولكن لأن طرف الخيط الذي أطاح بالمعتدي الآثم طير أعجم ، لا حول له ولا قوة ، ولا لساناً ينطق به . وهو حيوان لا يبين ، بل طير مذكًّى ومشوي ، ومعـــد للأكـل ، جعله الله سببـا لاحقـاق الحق ، والقصاص من الظالم . جاء القصاص بعد سنوات ، وبعد أن ترقى القاتل من قاطع طريق إلى مجالس

للحـاكم العـادل . يروي صاحب الكشكول عن ذكر من ذكور طير الحجل فيقول :

«إن بعض مقدمي الأكراد حضر على سماط بعض الأمـراء ، وكـان على السـماط حجلتان مشويتان ، فنـظر الكردي إليهما وضحك . فسأله الحاكم عن أسباب ضحكه ، فقال : قطعت الطريق في عنفوان شبابي على تاجر ، فلما أردت قتله تضرع ، فما أفاد تضرعـــه ؛ فلما رأى أني قاتله لا محالـــة التفت إلى حجلتين كانتا في الجبل ، فقال : «أشهدا عليه أنه قاتـلي» . فلما رأيت هاتين الحجلتين الآن تذكرت حمقه ، وقلة عقله ، فقال الحاكم : «قد شهدتا» ثم أمر بضرب عنقه ، فضربت .»[1]

إنه حقا هو الأحمق ، فلم يكفه فعله القبيح ، بل حمل ذكـراه الظالمة معه ، يكمل بها لذة الأكل من مائـدة شهية ، ويتوجها بالضحك . كم من كلمة قالت لصـــاحبهـا دعني ، لقـد شهـد عليـه ، مع

(١) الكشـكول ١/ ٤٠ ، انظر أيضاً معجم الأدباء ٩/ ١٤٣ وفيه تفصيل أكثر .

الحجلتين ، لسان ابن أمه وأبيه ، ويا له من شاهد لا يكـذّب ! وإن الله لبالمرصاد ، لكل متعد لحدوده ، وإن طال المدى .

باب في السلوك الحسن(*)

أجل إنه باب في حسن السلوك والخلق والأدب ، ويليق بقادة الأمم ورؤوسها ، وهم عرضة لأن يمرّ بهم ما يوجب هذا الترتيب ، فوقتهم محدود بحدود لا بد من مراعاتها ، ولكنهم مثل كثير من رعيتهم يُحرجون في بعض الأوقات ، فيأتي موقف لا يستطيعون معالجة الميل والخلل فيه إلا بإحراج المتسبب ، وهم يحاولون أن يتجنبوا هذا .

كل منا مرّ به موقف مماثل لمواقفهم : يأتيك زائر أو أكثر ، ويأتي أوان انتهاء الزيارة ، لأنك مرتبط بموعد آخر ، أو لأن هذا وقت راحتك ونومك ، أو وقت أداء عمل أعتدت أن تعطيه حقه في هذا الوقت ، ولكن الزائر لا يدري عن هذا ، ويظن أنه لا يزال في الوقت متسع ، وأنك - لما تظهره من بشاشة - سعيد ببقائه معك وقتا أطول ، فهو يريد أن يسرك بهذا أو أنه فذم غليظ ، يظن أن وقتك

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٤٠٢) في ١٤١٢/١٠/٢٣هـ الموافق ١٩٩٢/٤/٢٥م .

رخيص مثل وقته . ولكنك لا تخرج عما ارتضيته لنفسك من عدم مصارحته بأنك تريده أن يخفف وطأة زيارته .

وقد تلجأ - عندما تشعر أنه آن الأوان لمغادرته - إلى الصمت ، وعدم المجاراة في الحديث ، أو قد تجد أنّ التثاؤب ربما ينبهه إلى أنك في حاجة إلى الراحة . وقد تجد بعض الوسائل المناسبة لكل ظرف تمرّ به من هذه المواقف . وقد وجد بعض الخلفاء والحكام في الزمن القديم طرقاً - عرفوا بها - يعرف بها المجالس أنه آن وقت انصراف الزائرين . وحياة الناس في الماضي في كثير من جوانبها الإنسانية لم تتغيّر ، وما يقابلنا اليوم قابلهم قبل ذلك . وإليك ما قيل أنهم كانوا يعمدون إليه :

يقول صاحب «محاضرات الأدباء» :

«كان لكل ملك أمارة يستدل بها أصحابه إذا أرادوا أن يقوموا عنه ؛ فكان أردشير إذا تمطّى قام سمّاره ، وكان كيشاسف يدلك عينيه . وسابور

يقـول : حسبـك يا إنسان . وأبرويز يمدّ رجليه . وقبـاذ يرفع رأسه إلى السماء . وأنوشروان يقول : قرّت أعينكم . وكان عمر يقول : قامت الصلاة . وعثمان بن عفان يقول : العزة لله . ومعاوية يقول : ذهب الليل . وعبد الملك يقول : إذا شئتم . والوليد يلقي المخصرة . والـرشيـد يقـول : سبحان الله . والواثق يمسّ عارضيه » .[1]

أما صاحب « سرح العيون » فيروي أن : كسرى أول من جعـل لنـدمـائـه أمـارة ينصرفون بها من مجلسـه ، إذا أراد انصرافهم ، وذلك أنه كان يمد رجله ، فيعـرفـون أنه يريد قيامهم ، فينصرفون ، وتبعـه الملوك . وكان فيروز الأصغر كذلك يدلك عينيه ، وكان بهرام يرفع رأسه إلى السماء . وكان في الإسلام معاوية يقول : العزّة لله . وعبد الملك بن مروان يلقي المخصرة من يده . وعمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - يدعو .[2]

---

(١) محاضرات الأدباء ٨٣ .

(٢) سـرح العيـون ٦٠ .

وهكذا نرى أن كل واحد احتال بحيلة تتناسب مع وضعه ؛ فالتمطي ، ودلك العينين ، ومدّ الرجلين ، ورفع الرأس إلى السماء ، وإلقاء المخصرة ، ومس العارضين ، إشارات باهتة قد لا يلحظها كل إنسان ، ولكن يكفي أن يلحظها واحد ، فينهض ، فيتنبه الآخرون . أما قول : حسبك يا إنسان ، وذهب الليل ، وإذا شئتم ، وسبحان الله ، وقامت الصلاة ، فإشارات صريحة .

وللمسلم عبارة يقولها الضيف إذا أراد أن يغادر أو المضيف إذا أراد أن يُغادَر ، وهي : سبحان الله وبحمده . ولهذا كان هارون الرشيد الخليفة أقرب من عددنا إلى ما اختير للمسلم . يقول صاحب «بهجة المجالس» : «روي عن جماعة من أهل العلم ، منهم مجاهد ، في تأويل قوله تعالى : ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ .[1] قالوا : حين تقوم من كل مجلس ، تقول فيه : سبحانك اللهم

(١) القرآن الكريم ، سورة الطور ٤٨ .

وبحمدك، استغفرك، وأتوب إليك. قال: ومن قالها غُفِر له ما كان منه في المجلس». [1]

ولم يرد البخلاء إلا أن يكون لهم علامة، وقد سئل أحدهم: ما أمارتك لقيامنا؟ قال: قولي: يا غلام هات الطعام. [2]

---

(١) بهجة المجالس ١/٥٣.

(٢) سرح العيون ٦٠.

هـذا وهـذا وذا(*)

كنت صغيراً ، ولعلي كنت في المرحلة الثانوية ، في أولها ، وكنت مقيما في مكة مع بعض أهلي ، وكان والدي في تلك الفترة - بحكم عمله - في الرياض ، ولم يكن البريد يسير في فترات متقاربة ، ولم يكن كل النـاس يرسلون رسائلهم بالبريد . وأغلب الناس يتصيـدون المسافرين ، فيبعثون خطاباتهم معهم . وكان والدنا - رحمه الله - يود أن يسمع منا أخبارنا ، ولكننا لم نكن نكتب له كثيراً ، لهيبتنا له أولا ، ولأنه ليس لدينا جديد يوجب الكتابة ، أو يملأ صفحة رسالة . وإعادة التحيات القصيرة ، المعتاد البدء بها في الخطاب ، أو ختامها به ، لم تكن في نظرنا تبرر إنشـاء خطاب كامـل ، يكتب ويبحث عن مسـافر ليرسل معه .

وعـاتبنـا والـدنـا - رحمه الله - على عدم توالي

(*) نشرت في صحيفـة عكـاظ بالعـدد (٩٤٠٩) في ١٤١٢/١٠/٣٠هـ الموافق ١٩٩٢/٥/٢م .

الخطابات كما كان يود ، وكانت حجتنا أنه ليس لدينا جديد نقوله ، ولم نكن حينئذ نعرف القول الانجليزي : الخبر الطيب في ألا يكون هناك خبر. أو من طيب الأخبار ألا يكون هناك أخبار ، أو ألا خبر خير خبر. فرد علينا - رحمه الله - بحجة ألجمتنا ، ودلتنا على طريق بها نستطيع أن نملأ صفحة وصفحة. قال ما معناه ومؤداه : إذا بدأتما - يعنيني أنا وأخي حمد - فاعمدا بعد التحية المعتادة فاذكرا أنه ليس لديكما شيء تقولانه ، لأنه لم يجد جديد بعد خطابكم السابق ، فالأمر الفلاني على ما هو عليه ، وفلان - قريبنا - لا يزال في مكة المكرمة ، لم يبرحها بعد. والدراسة لم يجد عليها جديد إلا ما قطعناه في هذه المرحلة من شوط بمرور الوقت. ونحن على ما نحن عليه في وقت خروجنا للمدرسة ، ومجيئنا منها ، وكذلك أمر نومنا وأكلنا ، وأوقات خروجنا للنزهة والفسحة على ما هي عليه كالمعتاد بعد صلاة العصر ، إلى السقاف في المعابدة ، ثم عن طريق ريع الحجون وريع الكحل إلى أبواب

جدة ، ونعـــود عن طريق حارة البـــاب والســوق الصغير لنصلي المغرب في الحرم . وبهذا تجدان أنكما قلتما شيئاً كثيراً .

ويبـدو - رحمـه الله - وهـذا ما لم نكن ندركه حينئذ ، وعرفناه الآن ، بعد أن صرنا والدين ، أنه كان يريـد أن يرانا في كل حرف نخطه ، ليس في صورنـا فقط ، ولكن أيضا في تعبيرنا لغويا ، وفي عقولنا معنى ، وفي دراستِنَا مستوى . وقد طبقنا ما ارتـآه - رحمـه الله - فكان في ذلك راحة لنا وله . وعودنا على شيء لم نكره أننا عرفناه ، وتعودنا عليه .

دخلت المستشفى في القاهرة ، عندما كنت طالب بعثـة هناك ، في حدود عام ١٣٦٦هـ ، لِيُجرَى لي عملية صغيرة ، لفتق في السّرّة ، لم تحسن المولّدة التي ولدتني - رحمها الله - إتقان قطع السرة وربطها ؛ فاحتاج الأمر إلى تدخل الجراح النطاسي الدكتور عمـر أسعـد في الأمر ، وهو طبيب البعثة حينئذ ، وجراحها . وأجريت العملية في مستشفى الدكتور

عمر أسعد والبحيري في الروضة، وهي «فلة» استؤجرت وحولت إلى مستشفى صغير.

جلوسي في المستشفى جلب لي الملل، خاصة عندما ينقطع الزوار، وأبقى وحدي. ولي صديق حميم هو «الدكتور» مصطفى عبد الغفور مير، يدرس الطب ضمن أعضاء البعثة السعودية في الاسكندرية، فرأيت أن أكتب له خطابا، أصف فيه دخول المستشفى، وخطوات العملية، إلى اللحظة التي كتبت فيها الخطاب. وطلبت «بوكا» من الورق جديداً، فأحضر لي، وهو من القطع المتوسط، فأخذت أكتب وأكتب وأكتب، وأصف وأعلق، دون انقطاع أو توقف، فما لبثت أن ملأت جميع ورقات الدفتر. وكانت صفحاته مئة صفحة.

لا أظنني كتبت خطابا في حياتي إلى اليوم بطول ذاك الخطاب، وقد استفدت من توجيه الوالد - رحمه الله - ذاك. ولا أذكر الآن ماذا قلت، إلا الصفحة الأخيرة، التي أذكر أني عندما وصلتها

كنت كالسيارة التي غرزت عجلاتها في الرمل، لا أدري ما أقول، ولكني تغلبت على مشكلة ملء آخر صفحة بأن لخصت ما مرّ في الصفحات، فأصبحت الصفحة، وكأنها فهرس لكتاب. ولا تسل عن الاجهاد والتعب الجسمي الذي تلاشى بجانب الراحة النفسية الطاغية بسبب هذا الانجاز الكبير، في هذا الوقت القصير المتواصل.

لشد ما أود أن الدكتور مصطفى احتفظ بهذا الخطاب. لو كان فعل لكان هذا الخطاب بالنسبة لي لا يقدر بثمن، ففيه ما يدلني على عقليتي حينئذ، ومبلغ تفكيري، ونظرتي للأمور، وحكمي عليها، وتفسيري لها. ولكنه - حفظه الله - لم يحتفظ به، وضاع من جملة ما ضاع من أشيائه الثمينة، في إحدى مرات تنقله بين البلدان المختلفة التي تنقل بينها، والمساكن المتعددة التي سكنها.

تذكرت هذا كله عندما قرأت ما ورد في كتاب «رحلة الشتاء والصيف» والتي يقول فيها مؤلفها:[1]

(١) رحلة الشتاء والصيف ١٤ .

«وبالجملة فإن الحديث ذو شجون، والجنون فنون».

والأمر كما قال في تأليف القيل والقال:

لـو لـم أقــل هـذا وهـذا وذا
بـأي شيء كنـت أمـلأ الكـتبا

أحمد بن علي المبارك(*)

إذا اتصلت بالعالم استفدت من علمه ، وإذا اتصلت بالمثقف أفادك من واسع اطلاعه ، وإذا اجتمعت بالأديب ملأ سمعك وقلبك بالبهجة ، فأنت معه في روض يانع من أزاهير الأدب وأفنانه : يملأ كل واحد من هؤلاء وقتك بما يبهج ، ويشبع نفسك بغذاء نافع ؛ يهديك ما يفيد ، ويمتعك بما يحسن ويجمل . لا تعدم ، في كل مقابلة مع صاحب العقل والفكر ، أن تخرج بقول صائب ، أو رأي سديد ، تضيفه إلى ما قد يكون عندك من حصيلة ، أو تبدأ به حصيلة جديدة .

أشعر بهذا كلما تذكرت جلساتي مع الزميل الأخ الأستاذ أبي مازن ، أحمد بن علي المبارك ، عندما كنا طلابا في مصر . كان هو متقدما في سنوات الدراسة في كلية اللغة العربية في الأزهر ، وكنت مبتدئاً

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٤١٦) في ١٤١٢/١١/٧هـ الموافق ١٩٩٢/٥/٩م .

دراستي في كليــة دار العلوم بجـامعـة الملك فؤاد حينئذ . وكان بيننا ود مشترك - ولا يزال - ناتج عن تقدير مني لفضله وعلمه ، ولا غرابة في هذا ، فهو من بيت علم ، ومن أسرة كريمة كل رجالها علماء أدباء . وأبو مازن أضاف إلى ما غرفه من بحر علم آبائه ، واكتنزه من مخزون فضائلهم ، ما حصّله في دراسته في الأزهر ، وما توافر له من مطالعاته الحرّة خارج المنهج القوي المتميز ، الذي كانت تشتهر به كليات الأزهر حينئذ .

كنت استـمتع بالانصـات والاصغـاء لأحـاديثه الأدبية التي يرويها لغيره أو لنَفسه ، سواء كان ذلك نثراً أو شعراً ، قصةً أو حكمة ، مثلا أو طريفة من الطرائف ، أو شاهداً من شواهد النحو أو البلاغة ، مجلسه في ذلك لا يمل ، فطريقتهُ مشوقة ، وما يأتي به مختارٌ منتقى ، وكان - حفظه الله - فارساً مبرزاً سابقاً في المناظرات والمسابقات في المسامرات التي كانت تعقد . وكنت دائما أجد الطريق ، في مجالسنا الخـاصـة ، إلى مفاتيح صناديق أدبه التي امتلأ به

صدره . وكـان يروق لي أحيانا أن أجلس تلميذا مصغيـاً إلى إنشـاده لإحدى قصائده ، فأجد متعة كاملة ، وفائدة قصوى من الاستماع مثلا إلى قصيدته التي يرثي بها والـده ، وهي من عيـون الشعـر ، وتكشف - بحق - عمق الأبـوّة والبنـوة ، وقـوة الاحساس بالفقد ، مع نصاعة في العبارة ، وتسلسل في الأفكار ، بأسلوب أخاذ ، تزيد إطلالة العاطفة منهـا إشعـاعـا إذا ألقـاها بصوته المؤثر ، وأشبعها بنبرات حزينة ، تظهر حرارة الحرقة التي أملتها .

أتذكر الأستاذ أحمد دائماً عندما أرى الاجادة في بعض النصوص من التُّراث ، وكنت قد سمعتها منه قبـل أن أقرأها في كتاب . وكان ينفعل بحادثة ما فيستشهـد لها بقـولٍ أو مثـلٍ أو بيت ، فيـأتي الاستشهاد في محله ، وكأنه قيل عن هذه الحادثة ، وأنشىء أصلا لها ، ولهذا المشهد بعينه . وهذا دليل على نضج متكامل في ملكة الأدب ، واحساسه فيه ، وعلى مقدرته الفائقة على استدعاء المخزون عنده ، والرفّ الذي وضع عليه .

وكانت «دفعتنا» من البعثة جاءت إلى مصر عام ١٩٦٥هـ، بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، فكانت المساكن شحيحة، وكان مدير البعثة حريصا على أن يكون محل سكنانا قريباً من مبنى مقر البعثة الأساسي في الروضة، فلم يجد إلا شقة «حرب»، ألحقت في زمن الحرب فوق عمارة قائمة من قبل، فجاء سقفها مبنيا على بعض «دوامر» الخشب، فكانت الصيانة لهذا مستمرة فيه، ولم يكن يستغني عنها أبداً؛ فالسباكة ملازم لها الخلل، والكهرباء دائمة الانقطاع. وأذكر أني لاحظت يوما أن «الساكف» «الجسر» الحامل لجزء السقف الذي فوق سريري قد انهصر، و «انشطب»، وأصبح له ثغر كالح وهو يطل عليّ، وينذر بالخطر، فلفتّ لهذا نظر الرجل النبيل الأستاذ عمر رفيع - رحمه الله - وكان حينئذ يقوم بجولة، ويتفقد الشقة، وكان مساعداً لمدير البعثة إذ ذاك.

وكان يحاول - رحمه الله - أن يهون من بعض الأمور التي كنا نحاول نحن تجسيمها وتهويلها

وتضخيمها ، أملاً في أن نحصل على مرادنا تجاهها ، فقال : «لا تخف إذا سقط السقف فعليّ» فقلت له : «ولكني - يا أستاذ - أنا الذي أنام تحته» فضحكت جوقة الطلاب التي ترافق الجولة ، فالتفت - رحمه الله - وشارك في الضحك .

وفي جولتنا مع الأستاذ عمر - رحمه الله - وابراز مظاهر شكوانا ، والسير عليها واحدة واحدة ، دخل أبو مازن شقتنا زائراً ، فانضم إلينا ، ومشى معنا ، فوصلنا في التفقد إلى حوض غسيل الأيدي ، فإذا هو قد طفح ، وسال منه الماء إلى الأرض، نتيجة انسداد لم يكن يفارقه إلا ليعود بشوق إليه ، فعلق الأستاذ أحمد على هذا المنظر بقوله :

أمتلأ الحوض وقال قطني
مهلا رويداً قد ملأت بطني

فظننا - لصدق الوصف ، ومطابقته للواقع - أن الأستاذ أحمد قد نظمه في تلك اللحظة ، وأنه ابن الساعة ، ومن وحي المنظر . ولكنه أخبرنا أن هذا

بيت قديم من شواهد النحويين . ولم تمض إلا مدة يسيرة حتى صافحت عيوننا - نحن دارسي النحو في دار العلوم - هذا الشاهد في كتاب الأشموني . وهذا مثل من أمثلة سرعة استدعاء أبي مازن لمخزونه من الشعر ، وحسن اختيار المناسب منه ، المطابق لما جيء به من أجله ، كأنه مفصل لهذا المنظر ، أو تلك الحادثة .

أجل أتذكر أبا مازن كلمّا مرّ بيت سبق أن سمعته منه ، أو حكمة سمعته يتمثل بها ، أو نثر اختاره بمناسبة ما . وأذكره كثيراً عندما يستدعي الأمر أن استنجد بكلمة «لكل داخل دهشة» ، فقد دخل أبو مازن يوما مجلسا مليئاً باخوانه وزملائه الطلاب ، وكنت معه ، ثم تبين له أنه لم يتنبه لأحدهم مع أهميته له وتقديره ، فاعتذر له ، وقال : «إن للداخل دهشة» . وقد رسخت هذه الكلمة في ذهني . وقد صدق في هذا القول ، فالداخل أحيانا لا يرى إلا بعض من في الداخل ، لأن عينه تروغ في العدد الموجود ، وقد تخطىء من لا يجب أن تخطئه في النظرة

والاعتبار. وهذه الكلمة قد يشترك فيها الداخل، والمدخول إليه: هذا يعتذر بها، وهذا يسبقه أحيانا، فيقولها، إقراراً منه بصدقها. ولطالما سمعتها بعد ذلك، لأن الموقف لها يتكرر.

وقد تذكرت الأستاذ أحمد هذا الأسبوع عندما رأيت هذه الجملة مكتوبة في ترجمة الجاحظ في معجم الأدباء، وقد جاءت في قصة طويلة طريفة، اجتزىء منها هنا ما يخص استشهادنا:

... قال أبو خلف سلّام بن يزيد (عن رحلته من الأندلس لطلب ما عند الجاحظ من الأدب):

«... فخرجت لا أعرّج على شيء، حتى قصدت بغداد، فسألت عنه، فقيل: هو بسرّ من رأى، فأصعدت إليها، فقيل لي: قد انحدر إلى البصرة، فانحدرتُ إليه، وسألت عن منزله، فأرشدت، ودخلتَ إليه، فإذا هو جالس وحواليه عشرون صبياً، ليس فيهم ذو لحية غيرُه، فدهشت، فقلت: أيّكم أبو عثمان؟ فرفع يده

وحـرِّكهـا في وجهي ، وقال : من أين ؟ فقلت من الأندلس . فقال : طينة حمقاء ، فما الاسم ؟ قلت : سلّام ، قال : اسم كلب القَرَّاد . ابن من ؟ قلت : ابن يزيد . قال : بحقٍّ ما صرت ، أبو مَنْ ؟ قلت : أبو خلف . قال : كنية قرد زبيدة . ما جئت تطلب ؟ قلت : العلم . قال : ارجع بوقت ، فإنك لا تفلح . قلت له : ما أنصفتني ، فقد اشتملت على خصال أربع : جفاءِ البلديةِ ، وبعد الشقّة ، وغرّة الحداثة ، ودهشة الداخل . قال : فترى حولي عشرين صبياً ليس فيهم ذو لحية غيري ، ما كان يجب أن تعرفني بهم ؟ قال : فأقمت عليه عشرين سنة» . [1]

ونص آخر وردت فيه كلمة : «للداخل دهشة» وهي في ترجمة المبرد (محمد بن يزيد الثمالي) في معجم الأدباء : [2]

قال المبرد : « . . صرت يوما إليهم (المجانين) ، فمررت على شيخ منهم ، وهو جالس على حصير

(١) معجم الأدباء ١٦/ ١٠٥ .
(٢) ص ١٩/ ١١٥ .

قصب، فجاوزته إلى غيره، فقال: سبحان الله تعالى أين السلام؟ من المجنون أنا أو أنت؟ فاستحييت منه، وقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال: لو كنت ابتدأت لأوجبتَ علينا حسن الردّ، على أنا نصرف سوءَ أدبك إلى أحسن جهاته من العذر، لأنه كان يقال: (إن للداخل على القوم دهشة، إجلس - أعزّك الله تعالى - عندنا)».

ويروى عن ابن عباس عن طريقين قولان عن الداخل ودهشته:

قال أبو صالح عن ابن عباس:

«ما من داخل إلا وله حيرة فابدؤوه بالسلام، وما من مدعو إلا وله حشمة فابدؤوه باليمين». (١)

وقال ابن عباس أيضاً:

«إن لكل داخل دهشة فآنسوه بالتحية». (٢)

وورد في حديث للمبرد رواه عن المازني في مثل

(١) الأمتاع والمؤانسة ٣/٧٧.

(٢) البيان والتبيين ٢/٩١.

هذا : « . . . لأنه كان يقال : إن للداخل على القوم دهشة » .[1]

هذا قليل من كثير يجعل أبا مازن في الذهن إذا غاب ، وفي العين إذا حضر ، وفي القلب غاب أو حضر .

(١) نزهة الألباء ١٤٧ .

ذكاء وذكاء(*)

مظهر الذكاء يعجب كل عاقل ؛ لأنه دليل على اكتمال العقل ، وتميز صاحبه . والعقل زينة الإنسان ، والبضاعة الرابحة في هذه الدنيا ، والعوض عن كل ما قد لا يحوزه الإنسان في هذه الدنيا ، وهو في مقدمة عناصر السعادة . وإذا استعمل الذكاء في أمر بناء ، وكان أداة لما يجلب فائدة ، وعدة لما يدفع ضرراً ، ووسيلة للخير ضد الشر ، وللبر ضد الإثم ، زاد إعجاب المعجبين بصاحبه ، وشغف المتابعين للمتصف به . والأدب العربي مليء بالأخبار التي تروى عن الأذكياء ، والقصص التي تتحدث عنهم ، وما بدا منهم مما يلفت النظر ، ويوجب الانبهار ، خاصة عندما يكون الذكيّ شخصا ذكاؤه لازم لمقامه ، وزائن لمركزه ، وشرط لمنصبه ، كأن يكون رئيس قبيلة أو حاكما أو قاضيا .

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٤٢٣) في ١٤/١١/١٤١٢هـ الموافق ١٦/٥/١٩٩٢م .

والإعجاب بالذكاء والأذكياء دعا إلى الاهتمام بأخبارهم وتتبع آثارهم، في أفعالهم وأقوالهم، في أسئلتهم وأجوبتهم، فألفت عنهم وعن ذكائهم كتب كاملة، صارت من أكثر الكتب قبولا ورواجا، وأقبل الكتاب على الاقتباس منها، والاستشهاد بما فيها. ودبجت أبواب في كتب، وفصول في مجلدات، ومقالات خصصت لما يروى عن ذكائهم وسيرهم، والقاضي إياس أحد نجوم الذكاء البارزين. وأمل كاتبوا هذه الكتب، ورجا مؤلفوا الفصول والأبواب والمقالات أن يكون فيها فائدة لقارئها، وكسب للمتمعن فيها، والمتدبر لها، لأنها تعلم النهج السديد، وتدرب على مقابلة المواقف الصعبة والأمور المعضلة، مما يستعصي حلّهُ على جملة الناس. بعض الذكاء يدهش حقاً، لما بدا من المتصف به من سرعة بديهة، وحسن تصرف، وما أتى به من مفاجأة غير متوقعة، وما بادر به من خدعة خاتلة، وأبانت لغيره ما عرفه هو، وخفي على غيره، وما لجأ إليه من حيلة كشفت مخبأً، أو

بينت غامضاً، أو أزالت لبساً، أو جلبت اعترافاً، أو استدرجت إلى إقرار بعد إنكار، وتسليم بعد تمنع.

وحتى إذا كان الـذكاء استعمل في أمر منتقد، يبقى مدهشاً للسامع أو القارئ، ومن هذه القصص ما قرأته منذ زمن - ولا أذكر أين قرأته - عن أحد حكام القرامطة، ويبدو أن القرامطة كانوا يؤمنون بشيء من الغيبة، اتخذوه مبدأ يكمل منهجهم ومذهبهم.

يقال إن أحد حكامهم، عندما حضرته الوفاة، وأراد ألا ينفـرط عقـد دولتـه، أخبر كبار قادته، وأنصـاره، أنـه سوف يغيب زمناً، ويعود إليهم. ولأنه يدرك أن هذا سوف يكون مجالا للمدعين - الذين سوف يتقمصون شخصيته، ويدعون أنهم هو، وأنه قد عاد إليهم، كما وعد - احتاط، وقال لأتبـاعه: «إذا عدت إليكم فاهبروني بالسيوف، فإن نفـذت فيّ، ومضت من جسمي، وقـطعت

لحمي ، ثبت لكم أن من فعلتم به ذلك ليس أنا ، وإنـــما هو مدع ، استحق ما نالـــه . وإن لم تمض السيـوف منه ، وتكسرت فهـو أنـا ، وقـد عدت إليكم ، كما وعدتكم » .

لقد قفل بهذه الحيلة الذكيّة الباب على أي مدّع ، وأوصده في وجه أي متلبّس أو مدلّس . ولا شك أنها فكرة ذكية ، وحيلة بارعة ، أدت الهدف على أحسن وجه ، وأنجح صورة . وبقي من حكم بعده يحكم باسمـه ، وينـوب عنـه ، ويصـول باسمه وبسيفه وقوته ، دون خوف من منازع ، أو خشية من متطلع .

والــذكـاء قد يوحي بفكـرة عارضـة ، ولكنهـا تكـشـف عن حيـلة قد تغــرُّ كثـيراً من النـــاس وتخـدعهم ، حتى ولو لم يكونوا أغبياء . والشعوذة والدجل باسم الدين كان سلاحاً مزدهراً في عصور مرت ، ولا يزال كذلك في بعض المجتمعات العربية وغـيرهـا . وإليك حيلة من بعض هذه الحيل التي

لاقت حيلة أخرى كشفتها، فأبطلتها:

«سئل محمد بن بشير عن الرجل يُقرأ عليه القرآن فيصعق، ويبدو أن هذه عادة عند بعض المتظاهرين بالدين، المتكسبين به، ولو معنوياً، وابن سيرين يساوره الشك، وهو من عرف بحذقه وذكائه. فقال: ميعاد ما بيننا وبينه أن يجلس على حائط، ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره، فإن سقط فهو كما قال». [1]

بهذا سدّ ابن سيرين الباب على الادعاء، وأبطل التظاهر؛ لأنَّ ثمن المجازفة باهظ، وأحبط حيلة بارعة، قبلها السذّج، وصدقها الغافلون بيسر وسهولة، ولم يخطر على بالهم أن يخضعوها للتدبر المتفحص، والتفكير المتملّي. ولم يناقشوا في ذهنهم مداخل الفائدة لمدعيها، والكسب الذي سيجنيه من ورائها.

---

(١) الكشكول ١/٣٨.

العجلة من الشيطان(*)

جملة «العجلة من الشيطان» تدور على الألسن ليل نهار، يكاد يعرفها كل ناطق باللغة العربية، وتكاد تكون من الجمل التي يَستشهد بها الناس يومياً في أحاديثهم، ولا يكاد يشكك في مدلولها أحد، خاصة وأنها تعضد بجملة أخرى: «في التأني السلامة، وفي العجلة الندامة». ومع هذا فلا تعدم أن تجد من يأتي بأمثال تحمد المبادرة، وسرعة التصرف، وعدم التراخي؛ لأن في هذا التأني فرصة تضيع على المرء، إذا لم يُستعجل في اهتبالها واقتناصها.

ليس هذا هو ما أوجب الحديث هنا، وما أوجبه هو أسلوب التشويق الذي يلجأ إليه العرب في لفت النظر إلى ما يريدون تثبيته في الأذهان، مما يرون أنه علم ثمين، والإنسان في حاجة إليه، والتناصح

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٤٣٠) في ١٤١٢/١١/٢١هـ الموافق ١٩٩٢/٥/٢٣م.

يوجب إيصاله إلى أذهان الناس، بطريق تضمن قبوله، فيلجؤون أحيانا للتشويق إلى ما يشبه الألغاز، فمثلا يقول حاتم الأصم:

«العجلة من الشيطان» فتأتي هذه الحقيقة مقررة مقبولة، ولكنه يردفها بقوله: «إلا في خمسة أشياء»، وهنا يتطلع السامع إلى ما عسى أن تكون هذه خمسة الأشياء؟ وقبل أن يشد ذهنه لهذا الاستثناء، ويركز حواسه عليه، يستعجل فينتقد في ذهنه قائل هذا الاستثناء الثابت، ويشك في مقدرة أي أحد في زعزعته، ولكنه ما يلبث، عند سماع أول جملة منه، أن يؤمن على كل جملة من هذه الجمل الخمس المتوالية، ويقبل خروجها من القاعدة، لصدقها، وانطباقها على الواقع. ثم لا يكتفي حاتم بما قال عن استثنائها، وخروجها عن القاعدة العريضة، وإنما يردف بأنها من السنة، فيزيد الشوق إلى معرفتها لبعد طرفي القول، فالعجلة إرضاء للشيطان، والتأني فيه رضى

الرحمن ، وشتان بين الطرفين . وهذه الأمور الخمسة المستثناه :

«إطعام الضيف إذا حل ، وتجهيز الميت ، وتزويج البكر ، وقضاء الدين ، والتوبة من الذنب» .[1]

ولا يسع السامع إلا أن يُؤمِّن ، وحسنا فعل حاتم ، فلو لم يستثن فقد يأتي مفكر ، ويعترض بهذه الأمور الخمسة منفصلة ، مبتدئاً بها ، فتصير حقيقة تعارض القاعدة . أما وقد أتت معها ، فقد أعطت القاعدة قوة ، وهكذا هم في كثير من أساليبهم .

وعلى هذا النهج ، وعلى هذا المنطق ، وبهذا الأسلوب ، تسير الأفكار الآتية ، لأنها تأتي مغايرة لما ألفه الناس ، فالشريف يقام له ، ولا يقوم ، والضيف يُخدم ولا يَخدم ، والشريف أيضاً مثله يُخدم ولا يخدِم ، ويتوقع منه ألا يجهل شيئاً . ومع هذا فهناك ما يوجب خلاف ذلك ، ويأتي مباينا له ومضاداً ، ولكنه عند ذكر ذلك وتعداده يُقبل على أنه

(١) الامتاع والمؤانسة ٢/ ٩ .

صدق وحق ، ولا يتجادل فيه اثنان .

قال إبراهيم بن الجنيد :

«أربعٍ للشريف لا ينبغي أن يأنف منهن ، وإن كان أميراً : قيامه من مجلسه لأبيه ، وخدمته لضيفه ، وخدمته للعالم يتعلم منه ، وإن سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم» .[1]

من يجادل في هذا ؟ إنه عين الصواب .

ونضيف هنا ما يماثل المثل الأول ، ويحاذيه في سيره ، ويجاريه في هدفه :

«تقول العرب : أكرموا الإبل إلا في بيت يبنى ، أو دم يفدى ، أو عزب يتزوج ، أو حمل حمالة» .[2]

والأنواع التي مثل هذه ، وتلمس الحياة كثيرة ، وما هذه إلا نزر قليل ، من فيض عميم .

---

(١) الامتاع والمؤانسة ٢/٦٨ .

(٢) الامتاع والمؤانسة ٣/٦٠ .

الاسلام ودعوته(*)

الإسلام دين ارتضيناه لأنفسنا ، ونرضاه لغيرنا من البشرية ، سكان المعمورة ، وهو دين سمح ، عرضناه ، وشرحناه ، ودعونا إليه ، وحميناه ودافعنا عنه ، ووسائلنا في هذا كثيرة ومتعددة ومعروفة . واللين ، والقول بالمعروف ، والجدل بالتي هي أحسن ، وحسن القدوة كانت من تلك الوسائل المباركة ، التي أدخلت إلى الإسلام أناساً كثيرين ، فأصبحوا من خيرة المسلمين ، إيمانهم راسخ ، وعقيدتهم قوية ، وحملوا مشعل الدعوة عالياً وهاجاً ، فهدى الله بهم ، وبارك جهودهم .

فالقدوة الحسنة مشت مع تجار المسلمين في أفريقيا ، مثلا ، وفي آسيا ، فكان تصرفهم في البلاد التي دخلوها للتجارة حسنا : كانوا عفيفين ، غضيضي الطرف ، لا ينظرون إلى حرام ، ولا يعتدون على حق أحد ، ولا يجحدونه ، رأفتهم بالكبير واضحة ،

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٤٣٧) في ٢٨/١١/١٤١٢هـ الموافق ٣٠/٥/١٩٩٢م .

وعطفهم على المرأة والضعيف والطفل ملهج الألسنة، وكشف ذلك عما تنطوي عليه أنفسهم من خير زرعه الله في صدورهم عن طريق هذا الدين الحق، وأجراه في دمائهم مع تعاليمه، وأخرجه في أعمالهم بتوجيهه. كانوا صادقين في تعاملهم، لا يغشون في تجارتهم، ولا يخونون أماناتِهم، ولا يفحشون في أسعارهم وأثمان بضائعهم، ولا يدلسون فيما يعطون؛ لا يغالطون الزبون، ولا يخدعون المشتري. لهذا برق سعدهم، وصعد حظهم، وسعد من تعامل معهم. حمدهم الناس، وأقبلوا على دينهم، يعتنقون تعاليمه، ويرتشفون من معينه الصافي، دخلوا فيه زرافات ووحدانا.

وكان للأمر بالمعروف بالحسنى - بعد القدوة الحسنة - تأثيره على الناس، إذ كان التعبير الليّن تجاه الأعمال القبيحة، وبيان مضارها، والنهي عنها، والتحذير منها، وتوضيح الأعمال الحسنة، وبيان فوائدها والحث عليها، يجذب الناس إلى الاستماع والانصياع، ويجلبهم للامتثال والقبول.

ويدخل مع الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بالحسنى، ومع سن القدوة الحسنة عنصر ثالث هو التدرج في تبصير الناس، وعدم المشقة عليهم، فإذا كان من يطلب لهم الهداية قد توغلوا لقرون وقرون في الضلالة والجهل، وإذا كانوا قد ابتعدوا لأجيال وأجيال عن المدنية الحقّة وأسبابها، فلا يعقل أن يتوقع منهم أن ينبذوا ما هم فيه، وما تعودوا عليه، وما شبوا وترعرعوا في ظلاله دفعة واحدة، وبمجرد أن يدعوا إلى ذلك؛ ولا يعقل أن يقبلوا طائعين ما عرض عليهم جملة واحدة بين عشية وضحاها، ولا يعقل أن يقبلوا أو يأتوا طائعين راغبين إلا بالتدرج المدروس، وبأعطاء فرصة ووقت للهضم والاستيعاب لما يلقى إليهم، ويتفهمونه جيداً، ويقتنعون به.

والدعوة بالحسنى واللين لها مفعول السحر على الناس: الحصان وهو حيوان جموح، إذا جئته بهدوء، و «مسّدت» على ظهره، ومسحت بيدك على صفحة رقبته، وأطعمته بيدك، وأطمعته في

خيرك وعطفك وحنانك ، ودغدغت ما تحت أذنيه ، استسلم لك ، وسمح لك تدريجيا بركوبه . أما إذا أتيته بعنف ، وأقبلت عليه فجأة ، فأنه ينفر ، ويستشري أذاه ، ويركلك بقدميه ، ويولّي هارباً ، ويرفض أن تقترب منه ، ويأنف بهذا أن تضع السرج على ظهره . والإنسان ذو النفس المتميزة أولى أن يُقترب منه باللين ، وأن يخاطب بالحسنى ، وأن يؤخذ بالتدريج :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهمُ
فطالما استعبد الإنسان احسانُ

هذا قول قديم وصادق . والقصة التالية ، من التراث ، تريك كيف استعبد جار مسلم ، إسلاماً صادقاً ، قلب جارٍ غير مسلم ، وكيف جذبت معاملة هذا المسلم الحسنة جاره إلى الإسلام دون أن يدعوه إليه . وتَبَصَّر في المدة الطويلة التي تحمل فيها هذا المسلم ، العظيم ، الأذى لوجه الله ، وليبيض وجه الإسلام والمسلمين ، وينير صفحته . وكان ظنه

بالله صادقاً وجميلا ، فلم يخيب الله أمله فيه ، لقد أعطاه أجر إسلام جار، وهذا خير له من حمر النّعم :

يقول صاحب الامتاع والمؤانسة :[1]

«كان للحسن جار نصراني ، وكان له كنيف على السطح ، وقد نقب ذلك في بيته . وكان يتحلب منه البول في بيت الحسن . وكان الحسن أمر بإناء فوضع تحته ؛ فكان يُخرج ما يجتمع منه ليلا . ومضى على ذلك عشرون سنة ، فمرض الحسن ذات يوم ، فعاده النصراني ، فرأى ذلك . فقال : يا أبا سعيد ، مذ كم تحتملون مني هذا الأذى؟ فقال : منذ عشرين سنة . فقطع النصراني زنّاره وأسلم» .

رحمهم الله ؛ فقد كانوا شمعات منيرة في طريق الإسلام، وسرجا مضيئة في دروبه ، أدّوا ما عليهم ، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيراً .

---

(١) ص ٢/١٢٩ .

وليس لهم منا إلا هذا الدعاء ، وأجر ما قد يأتي منا من قدوة بهم حسنة ، لهم أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

أحقيقة أم تزييف؟(*)

الظن في الرعيل الأول يجب أن يكون حسنا، لقربهم من عهد الرسول ﷺ، ورؤيتهم له، أو لصحابته، أو للتابعين، ولتصورنا لتأثرهم بما جاء بالقرآن والسنة من تعاليم، جعلت الإسلام ينتشر وتقوى دولته، ولا يتأتى للإنسان أن يقبل بعض ما يأتي في كتب الأدب أو التاريخ مما ينسب إلى بعضهم، وعليه أن يتلمس الأسباب للشك فيما دوّن جارحاً لهم، فالقارئ يجد أحيانا أن هناك أصحاب عنصريات، وعنعنات، واتجاهات، يستترون؛ ولو أظهروا علناً أنفسهم، أو كشفوا علنا عما يّكنونه، ويُلمزون إليه لما قبلت دعواهم، ولحوربت، وقضي على ما يظهر منها في مهدها؛ لهذا يخفون أنفسهم، ويَلجؤون إلى تعليق أرائهم المرفوضة على أشخاص عرف عنهم الذكاء أو النبوغ أو السؤدد أو التدين، ويتخذونهم مشاجب يعلقون

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٤٥٨) في ١٤١٢/١٢/٢٩هـ الموافق ١٩٩٢/٦/٢٠م.

عليها كثيراً مما يَختلقونه خاصاً بآراء دينية ، أو قبلية ، أو سياسية ، أو آراء ترجح حق دولة على دولة أخرى ، أو عالم على عالم ، أو حاكم على حاكم ، أو جنس على جنس ، أو دين على دين .

ومن الأشخاص الذين وُجد أنه بالإمكان الاستفادة من تعليق الآراء عليهم ، ونحلها لهم ، وإلصاقها بهم ، بعض الصحابة مثل عبدالله بن عباس ، وعبدالله بن عمر ، ومعاوية ابن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، وغيرهم ؛ فعبدالله بن عباس مثلا يستفاد منه لقربه من رسول الله ﷺ ، فيعلق عليه ما يراد من الأمور التي فيها تعضيد للدولة العباسية ، ومحبيها ، أو تقليل أعدائها من شأنها . وعبدالله بن عمر تعلق عليه بعض الآراء الدينية تأييداً ورفضاً ، ومفاخرة أحيانا بين شعب قريش وأحسابها . ومعاوية يستفاد منه بما يتصل بالدهاء والحلم ، ونجاح السياسة ، وعمرو بن العاص فيما يتصل بالذكاء والتخطيط والحيل والحِجاج .

ويكاد أحدنا يلمح الهدف من سياق القصة ،

وأنها ليست على ظاهـرها ، وأن هناك أمراً خبيئاً ، يحتاج الواضع إلى إيصاله إلى الناس ، ونشره بينهم ، دون أن يُلحظ الكيد فيه . ويحرص ناحل القصة أن تكـون جذّابـة ، ومحبـوكة حتى يضمن انتشارها ، ويلتهي الناس بجاذبيتها ومتعتها عن التمعن فيها ، والبحث في صحتها ، أو إخضاعها لبوتقة النقد . وطرافتها تجعل الإنسان يغالط نفسه فيها لو عرض له ما يوجب الشك فيها ، ويقاوم فكرة التبصر فيها ، والتدبر حيالها ، حتى لا يصل إلى ما قد يقضي على اللذة التي يجنيها من طرافتها ، وما فيها من مرح ، ويجد المبرر لقبولها كما هي ، دون فحص أو نقد .

وقد دخل التاريخ ، وتاريخ الأدب ، والأدب ، كثير من القصص المركبة ، التي أنشئت ، إما للتسلية أو من أجل الاستعراض لمقدرة المنشىء الأدبية ، أو الكفـاءة العلميـة ، أو لترويـج فكـرة دينيـة ، أو سياسية ، كما قلنا . وسوف يكون من غير السهل معرفة الحقيقي من المفتعل[1] .

(١) نقل صاحب معجم الأدباء ، [١٨ / ٢٨٩] ، فقال : سمعت أبا العيناء يقول : =

وبعض هذا الملفق لا يعدو أن يكون من نوع القصص الذي نراه اليوم يؤلف، وأصبح فنّا قائماً بذاته، إلا أن الفرق بين الأمرين أن كاتب القصة اليوم يقول إنها قصة خيالية، وأحياناً يدعي أنها تمثل حالة حقيقية حدثت، ولكنه يمسك عن كشف الأسماء. أما مؤرخ العصور الأولى، ومختلق القصص فيه، فهو يسرد القول على أنه أمر مسلم به، وأنه جزء من التاريخ وقعت حوادثه فعلا كما ذكر، وقد يخف هذا العيب إذا لم يركبه على أحد، وتركه مرسلا، مما يجعله قابلا للفحص والنقاش. أما العيب الفاضح فهو أن يبتدعه، ويعلقه على شخص له مقامه، ليقبله الناس باحترام، ويكون له من الوزن ما يحميه من كثير ممن يتحرجون من مناقشته حينئذ، فيقوى بهذا خبر ضعيف، ويضعف خبر قوي، وتزلزل حقائق جوهرية ثابتة، وتصبح الأفكار بهذا مبلبلة، والثوابت مزعزعة.

= أنا والحافظ وضعنا حديث فدك، وأدخلناه على الشيوخ في بغداد، فقبلوه، إلا أبي شيبة العلوي قال: «لا يشبه آخر الحديث أوّله»، فأبى أن يقبله، وكان أبو العيناء يحدث بهذا بعد ما كان.

يقف المرء أمام النص الآتي حائراً متردداً :

«لما ورد محمد بن مسلمة على عمرو بن العاص من جهة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - صنع عمرو له طعاماً، ودعاه إليه ؛ فأبى محمد، فقال عمرو : أتحرم طعامي؟ قال : لا ، ولكني لم أؤمر به . فقال عمرو : لعن الله زماناً عملنا فيه لابن الخطاب ، لقد رأيته وأباه وإنهما لفي شملة ما تواري أرساغهما ، وإن العاصي بن وائل لفي مقطعات الديباج ، مزررة بالذهب . فقال محمد : أما أبوك وأبو عمر ففي النار ، وأما أنت فلولا ما وليت لعمر لألفيتك معتقلا عنزاً ، يسرك غزرها (كثرة لبنها) ، ويسوؤك بَكؤها (قلة لبنها) ، فقال عمرو : المجالس أمانة . فقال محمد : أما مادام عمر حيا فنعم» . [1]

أن السّبك هنا متقن ، وسير الجدل معقول ، وظاهر القول طبيعي ، والخطو فيه منتظم ، وإن

(١) الامتاع والمؤانسة ٢/٩٥ .

قراءته لتشد، وتمّليه يلذّ. ولكنه عند الفحص الدقيق يهتزّ، ويتأرجح ويهوي. قد يكون عمرو عمل طعاما لمحمد بن مسلمة، وقد يكون محمد امتنع عن الاستجابة للدعوة لهذا الطعام، تحرجا منه، لعدم تأكده من حرمته أو حلّه، أو لأنه لم يستأذن عمر في مثل ذلك، وعمر يعرف أن مَن أكرم المعدة ملك اللسان والعين والوجه. هذا أمر لا يستبعد من صحابي متطهر، وقد يكون هذا هو أصل القصة الحقيقي، ومنتهى ما وصل إليه الأمر. والشك الحقيقي يأتي بعد ذلك:

القول بأن عمرواً قال: لعن الله زمانا عملنا فيه لابن الخطاب غير مقبول البتة؛ فطالب الابتدائي في بلادنا يعرف أن لعن الزمان لا يجوز، وقد حفظ الحديث الذي يقول: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»[1]. وعمرو أقرب منا إلى عصر النور الذي سطع فيه مثل هذا الحديث. هذا من الناحية

(١) انظر باب «من سب الدهر..» مجموعة التوحيد النجدية ص ٥٣.

الدينية ، أما من الناحية الدنيوية فكيف يقول عمرو مثل هذا القول أمام رجل أرسله عمر ليأتيَه بأخبار مصر ، وحالِ عاملها وأهلها ، فهو عين عمر التي سوف تبصر في مصر ما لا يبصره عمر في المدينة . وهل عمرو يجازف - إن جال في خاطره ما قيل أنه قاله - فيقوله أمام محمد بن مسلم ؟ وليس في الأمر ما يوجبه . وهل يمكن محمد أن يخبىء عن عمر أمراً مثل هذا ، مما يمس الولاء والامانة ؟ وهل يكفي أن يقول عمرو لمحمد «المجالس أمانة» فيسكت محمد على هذا الخطأ ؟ ويخفي الأمين الأمانة عمن ائتمنه ؟

الأمر يحتاج إلى بحث دقيق يعرف منه هل عمر وأبوه كانا في فقر مدقع أيام الجاهلية ، وهل العاصي ابن وائل كان حينئذ يرفـل بالديبـاج . ما أذكـره عن عمر أنه كان له هيبة أعز الله بها الإسلام ، ولا هيبة في مجتمع مثل مجتمع قريش للفقر والادقاع . وهذا ما يجعل الأمر يرجّح في أن عمرواً الصحابي لم يقل ما قيل أنه قاله ، ولم يحم حول حماه .

ولتقوى القصة ، وتكون في مستوى الأدب وكتبه يأتي الـرد المنـطقي المفحم من محمـد بن سلمـة ، فمحمـد هذا لم يقـترب من مفـاخـرة الجـاهلية ، والراوي يريد أن يؤكد دعوى عمرو ، وقبول محمد ابن سـلمة لهـا ، فيجعـل محمـداً يَـزْوَرّ عـن خـط المناقشة ، ويلجأ إلى حظيرة الدين ، ويجعل الأبوين اللذين ماتـا في الجـاهليـة في النار . ولكن واضع القصة يعجز عن المحافظة على الحصن الذي أقامه لعمرو ، فيضطر أن يقوي جانب محمد ويتغلب على عمرو ، فيذل عمرو ، ويطلب أن يستر عليه ما قاله .

تمجيد عمرو بن العاص في الأدب وفي التاريخ كثير ، خاصة في المجادلات التي تظهره ذكيا ألمعيا ، فقد ادُّعي أنه غلب أبو موسى الأشعري في حادثة التحكيم عن طريق حيلة ، وقيل إنه جادل معاوية في بعض المجـالس وغلبـه ، ويبـدو أن هنـاك من أصحـاب القصص من يريـد أن يظهـره بمـظهر المنتصر ، ليجعل من عائلته ، ثم قبيلته ، ما لم يكن

لهم، فعلق على عمـرو ما لا يعلم عنه عمرو ولم يقله، هذا إذا لم تكن التسلية هي الهدف.

وهناك من يريد أن ينال من عمرو، فيجعل نهاية جدلـه، الـذي يبدأ قوياً، يرجع إليه في النهاية، ومعاوية من الوسائل في ذلك. فمعه يبدأ الجدل ثم يجعل القاص معاوية يغلبه. والمتتبع يجد أن السجال بين قاصين، وليس بين معاوية وعمرو.

وفي القصة التي أمامنا الآن لا يتصور عمرو أن محمـداً بهذا المستـوى الـذي رسمه القاص، فهما صحـابيـان بارزان، بدليل منصبهما - هذا عامل الخليفة، وهذا رسوله، ولا يتصور أن يكون هذا ما يجري بينهما. ومع هذا فلا يعلم الحقيقة اليوم إلا الله - سبحانه وتعالى -.

شيشة بلا لي (*)

نار الغضب إذا اتّقـدت في الصـدر تختار هي المخرج لتتنفس ، وإذا تأجّجت تفرض هي الطريق الذي تسلكه ، لتخفف من اضطرامها . وقليل من النـاس يستطيع أن يُبقي الصمام الذي يتنفس منه الغضب مقفـلا ، أو يقـدر أن يخفف من جائشـهِ وغليـانهِ . ولا بد من التنفيس ، وأقرب الوسائل ، أحياناً ، المتاحة : اللسان ، وهو أحد الجوارح التي يركبهـا الغضب ، ويمسك بلجامها ليصب جامه على المغضوب عليه . واللسان قد يكون أداة حادة وقـاطعـة ، وقـد تكـون هينة لينة . والحدة واللين يحكمها عدة عوامل منها : طبيعة الشخص وجبلته ، وتـربيتـه وثقافته ، وسنه وتجربته ، وما عليه محيطه ومجتمعه وعاداته ، وقد يحكم ذلك سبب الغضب ونوعه .

(*) نشرت في صحيفـة عكـاظ بالعـدد (٩٤٧٢) في ٤/١/١٤١٣هـ المـوافق ٤/٧/١٩٩٢م .

تذكـرت كيفـ كان يتصرفـ ابن الحـارة عندما يغضب من أحد، ويحتد عليه، وعندما لا يستوجب الأمر عند الغضب، استعمال اليد، والبطش، أو كان في استعمالها خطورة عليه. وتذكرت الكلمات التي يتلفظ بها، والعبارات التي تخرج منتظمة متتالية من فمه، كأنها رصاصات مدفع رشاش، وما يقابله به الشخص الآخر أحيانا من استسلام أو رد مماثل مجزٍ. وشـد انتباهي النهج الفكري الذي يتبعه في هذا، ومـا فيـه من ابتكـار، أملتـه عليـه بيئتـه، ومستوى ثقافته، وما آختاره من أسلوب مجازي، استعـــارهُ ليضمن التـــأثـير العميق الـذي أراده، والإيلام البليغ الذي قصد إنزاله بالمغضوب عليه. وهـو لم يذهـل عن هذا الجـانب من التعبير رغم ضحالة علمه وثقافته، وجهله بما يأتي به المجاز من بلاغة وتأثير. ولكنها السليقة السليمة التي لم تخنه عنـد ما لجأ إليهـا، واستنجـد بها، فأسعفته عند الحاجة، ووقفت بجانبه وقت الشدة.

تسمع أحدهم وقد طفح الكيل عنده، فأرعد،

وأبرق ، وأزبد ، يقول : «ياشيشة بلا ليّ ، ياقدر بلا غطا ، يادلة مخروقة» . فتتبصر فيما قال ، فتجد أن مؤدى كل ذلـــك أنّ المغضـوب عليـه شخص لا فائـدة منـه ، ولا خير فيه ، وأنه جسم خال من الاستفـادة منه ، لفقد العنصر المكمل والمهم فيه ؛ فالشيشة لا تفيد بلا ليّ ، والقدر ناقصة إذا لم يكن لها غطاء ، والدلة لا تمسك ما فيها إذا كانت مخروقة .

لقـد غرف تعبيره من أشياء مألوفة في مجتمعه ، متفق على استعمالها ، ومعروفة أجزاؤها الرئيسية . إذن سلاحه وطني إلى أضيق حدود الوطنية ، فتعبيره من بيته أو دكانه ، وله أن يستمر ما شاء في تعداد الأشياء التي يمكن أن يستفيد منها على هذا المنط ، فيحرم شيئاً مما هو جزء مكمل له ؛ فالزنبيل الذي لا عروة له ، والهوند «النجر ، الهاون» الذي لا يد له ، والباب الذي لا مقبض له ، والفرس التي لا لجام لها ، والبعـير الـذي لا شداد له أَوْ رسن ، والقلم الذي لا حبر فيه ، أو ريشة له ، والرأس الذي لا

مخ به ، والفم الذي لا أسنان له ، واليد التي أناملها مبتورة ، أو الساق التي قدمها مقطوعة ، كلها أمور تصلح للاستعارة للسباب على هذا النهج ، وكلها مع كل كلمة منها تُنفِّس عنه شيئاً مما امتلأ به صدره ، وطفح به كيله .

وكنت أظن أن هذا طرح زمننا ، ووحي بيئتنا ، ولكن تبين لي أننا مسبوقون إليه ، وأن هناك في زمن العباسيين - كما يبدو - من وقع على هذه الجادة التي طرقناها ، ووقع حافره على حافرها ، واستفاد من هذا النهج الطريف الذي وصفناه . وبجانب فضل السبق لهم في تأليف هذا القول ، فلهم الفضل في تدوينه ، والمحافظة عليه . ولعل طرافته أوجبت هذا : يقول صاحب الامتاع والمؤانسة :(١)

يقول دجاجة - وهو شخص معروف في كتب الأدب - لآخر :

«إنما أنت بيت بلا باب ، وقدم بلا ساق ،

---

(١) ص ٢/٥٩ .

وأعمى بلا عصا ، ونار بلا حطب ، ونهر بلا معبر ، وحائط بلا سقف» .

وملخص هذا كله أنه رجل بلا نفع أو فائدة ، لأن وسيلتا النفع والفائدة مفقودتان لديه .

ويأخذ التنفيس أحياناً مجرًى آخر ، فيقول معاصرنا :

«يا رأس القوباة» أو «يا رأس المشاكل» أو «يا أصل البلاوي» .

ويقول معاصر العباسيين :

«يا رأس الأفعى ، ويا عصا المكاري ، ويا برنس الجاثليق ، ويا كودن (بغل) القصار ، يا بيرم (العتلة) النجار ، يا ناقوس النصارىَ ، يا ذرور العين ، يا تخت (دولاب) الثياب ، يا طعن الرمح في الترس ، يا مغرفة القدور ، ومكنسة الدور ؛ لا نبالي أين وضعت ، ولا أي جحر دخلت ، ولا في أي خان نزلت ، ولا في أي حمّام عملت . إن لم[1] تكن في

(١) لعلها : «إن تكن» .

الكوة مترساً فتح اللصوص الباب .

يا رحىً على رحى ، ووعاء في وعاء ، وغطاء على غطاء ، وداءً بلا دواء ، وعمى على عمى ، ويا جهد البلاء ؛ ويا سطحا بلا ميزاب ، ويا عوداً بلا مضراب ، ويا فماً بلا ناب ، ويا سكينا بلا نصاب ، ويا رعداً بلا سحاب ، ويا كوة بلا باب ؛ ويا قميصا بلا مئزر ، ويا جسراً بلا نهر ، ويا قرًّا على قر ، ويا شط الصراة (نهر بالعراق) ، ويا قصراً بلا مسناه : (مرقاة) ، ويا ورق الكماة (الكماة لا ورق لها) ، يا مطبخا بلا أفواه (توابل) ، يا ذنب الفار ، يا قدراً بلا إبزار ، يا رأس الطومار ، يا رسولا بلا أخبار ، يا خيط البواري (الحصر) يا رحىً في صحاري ، ويا طاقات بلا سواري» .(1)

أظن في تعداد كل هذا ، أو بعضه ، ما يكفي لأن يطفيء ثورة الغضب عند المتخاصمين معاً ، هذا بالمجهود الذي يبذله في البحث عن تلك الأدوات ، وما يمكن أن ينقصها ، فيعدمها الفائدة ، وهذا

(1) الامتاع ٢/٥٩ .

بالمجهود الذي يبذله ليتابع ما يقال ، ويتفهم معناه ، ومرماه ؛ ولا أدري إن كان بامكان معاصرينا إطالة نفسهم إلى هذا الحد ، ومنافسة معاصري العصر العباسي في هذا !

إن في تعداد ذلك فائدة اجتماعية ، فمن تعداد كل ذلك نعرف بعض ما يحتوي عليه البيت العباسي ، أو ما هو قريب من أذهانهم ، وفي متناولهم ، للاستفادة منه للفهم والافهام .

ونردف هذا بما يسير على هذا النمط مما يمتع من هذا الأسلوب ، ولكنه في هذه المرّة ليس من فائظ غضب ، وإنما من باب المعاتبة :

يقول عبد الصمد بن بابك معاتباً صديقاً له :

« . . . وأنا أشكو إليه الشيخ أبا الحسن (أحمد بن فارس اللغوي) فإنه صيرني فصلا لا وصلا ، وزجا لا نصلا ، ووضعني موضع الحَلاَوَى من الموائد و (تَمَّت) من أواخر القصائد ، وسحب اسمي منها مسحب الذيل ، وأوقعه موقع الذنب

المحذوف من الخيل ، وجعل مكاني مكان القفل من الباب ، وفذلك (فرغ) من الحساب» .[1]

وهذا الأديب غرف من بحر يجيد السباحة فيه ، فأخذ من محيط فكره وعلمه وثقافته ، لا ما حوله من أماكن وأوانٍ ، فارتقى بالعتب ، ولم يسفل ، لأن المجال ليس مجال سباب . ولكن النهج بقي هو النهج لمن اقتبسنا حديثهم والجادّة هي الجادة ، وإن اختلف المركوب والدابة .

ولا نريد أن يكون هذا النص الأدبي يتيماً ، وسنردفه بآخر مغترف أيضاً من الأدب ، وفيه ميزة مضافة ، فهو شعر ، حتى لا يبقى ركن من أركان الأدب الرئيسية خارج الاعتبار :

لأحمد بن محمد الصخري في الهجاء :

أيا ذا الفضائل واللام حاء
ويا ذا المكارم والميم هاء

---

(١) معجم الأدباء ٤/ ٩٦ .

ويا أنجب الناس والباء سين
ويا ذا الصيانة والصاد خاء
ويا أكتب الناس والتاء ذال
ويا أعلم الناس والعين ظاء
تجود على الكل والدال راء
فأنت السخي ويتلوه فاء[1]

ولو تتبعنا ما جاء في هذا المجال لطال الحديث، والمجال لا يتسع، ونختم القول بهذا النص من قول صاحب معجم الأدباء:[2]

«سمعت في المفاوضة ممن لا أحصي: أن الميداني لما صنف كتاب الجامع في الأمثال، وقف عليه أبو القاسم الزمخشري، فحسده على جودة تصنيفه، وأخذ القلم، وزاد في لفظة الميداني نونا، فصار النميداني، ومعناه بالفارسية: الذي لا يعرف شيئاً، فلما وقف الميداني على ذلك، أخذ بعض تصانيف الزمخشري، فصير ميم نسبته نونا، فصار الزنخشري، ومعناه: مشتري زوجته.

(١) معجم الأدباء ٥/٢٧.
(٢) ص ٥/٤٧.

الفهـــارس

* الفهـــارس ٣٨٥
* فهـرس المواضيـع ٣٨٦
* فهـرس الاعــلام ٣٨٨
* فهـرس المـراجـع ٣٩٤

(١)
فهرس المواضيع

* المقدمة ٣
* جمال وفطنة أم دمامه وغباء ١٥
* ينسى كنيته ١٨
* المادة الرئيسية ٢٢
* خلف النقد ٢٥
* تراث و إرث نعتزّ به ٢٧
* ماتطاول إلا لوهن ٣٣
* المخبر عن ضوء النهار ٣٨
* عمر وشروط الوظيفة ٤٠
* ديوان العرب ٤٣
* الحاسة الزائدة ٤٦
* الثقة بالنفس ٥٠
* قولا له قولًا ليّنًا ٥٤
* نتيجة الإختبار ٥٩
* عمق الحضارة ٦١
* من أمور النفس ٦٦
* فضل الفتى ٦٩
* عاقل أم مجنون ٧٢
* رجولة ٧٥
* أقعد أو إجلس ٧٨
* السليقة السليمة ٨١
* شروط الوفادة ٨٣
* عشر سنين ٨٧
* الابتسامة ٩٠
* حمى الزوجية ٩٣
* ورد الحارس الكرة ٩٨
* الرنين والريح ثمن ١٠٤
* علي والخلافة ١٠٧
* مشاجب للفكر ١١٠
* اللذة الحقيقية ١١٤
* ومضة ذكاء ١١٨
* الفكر والعدد ١٢٣
* حفظ القليل يأتي بالكثير ١٣٢
* تجارة رابحة ١٣٦
* مجلسك ما لا تقام منه ١٣٩
* حجج دامغة ١٤٩
* هيبة الكتابة ١٦٠
* هل الحجاج ظالم أم مظلوم ١٦٧
* مع الحجاج مرة أخرى ١٧٧
* كذب عن كذب ١٨٤
* نصف الحق أوفى للحق ١٨٩
* دهاء ودهاء ١٩٣
* الحسد سوء أدب ١٩٩
* الجاحظ وسبقه ٢٠٨
* ويل للتاريخ من بعض أهله ٢٢٥
* ألاعيب إبليس ٢٣٧
* السهم يصيب راميه ٢٤٢
* إهدار الذكاء ٢٤٦
* كلية جامعية في كتاب ٢٥٠
* مكامن الشبه ٢٥٥
* العقل جُنَّة ٢٥٨
* أخطاء في اللغة ٢٦٨
* في الوساطة ٢٧٥
* صفاء ذهن الأعراب ٢٨١
* إن من البيان لسحرا ٢٩٤
* حضور الذهن ٢٩٩

* أفكار للاهمال ٣٠٤
* صبر وشكر ٣١٣
* لا طيرة ٣١٧
* أقبلتم حين أقبلت ٣٢٣
* الدم يصرخ ٣٢٧
* باب في السلوك الحسن ٣٣١
* هذا وهذا وذا ٣٣٦
* أحمد بن علي المبارك ٣٤٢
* ذكاء وذكاء ٣٥٢
* العجلة من الشيطان ٣٥٧
* الإسلام ودعوته ٣٦١
* أحقيقة أم تزييف ٣٦٧
* شيشة بلا ليّ ٣٧٦

****

(٢)
فهرس الأعلام

(ا)

إبراهيم الجنيد : ٣٦٠
إبراهيم زيدان : ٢٣ هـ، ٢٦ هـ، ٤٩ هـ، ٥٦ هـ
الدكتور إبراهيم السامرائي : ١٦ هـ، ١٨ هـ
إبراهيم بن عبد الله السويل : ٢٦٤، ٢٦٥
أبرويز : ٣٣٣
أحمد بن سهل : ٢٧٣
أبو الحسن أحمد بن فارس اللغوي : ٣٨٢
أحمد بن عبد السلام البقالي : ٣٨٢
أحمد بن عبيد : ١٤٧، ١٤٨
أحمد بن علي المبارك (أبو مازن) ٢٤٣، ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨
أحمد بن محمد الصخري : ٣٨٣
الأحمر : ١٤٧
الأحنف بن قيس : ٣٦، ٣٧، ١٤٠، ١٩٢
الأخطل : ٥٢
أردشير : ٣١، ٣٢، ٣٣٢
أسامة بن زيد : ٢٥٦
أسماء بنت أبي بكر : ٢٢٨
اسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة : ٢٥٩
الأشبح الصيدلاني : ١٣٧
الأصمعي : ٦٠، ٨١، ٢٨٦، ٢٠٠
أمية : ٢٢٩
أنوشروان : ٣٣٣
إياس بن معاوية : ٩٨، ١٠٩، ١١٢، ١٥١
إيتاخ : ١٤٧

(ب)

البحتري : ٣٣٩
برناردشو : ١٥، ١٦
بسمارك : ٢٢، ٢٣
بشار العقيلي : ٢٠٣
البعيث بن حريث : ١٤٦
أبو بكر الهجري : ٦٠
أبو بكر الصديق : ١٠٧، ١٠٩
أبو بكر العمري : ١٨
بهرام : ٣٣٣
البيهقي : ٣٩ هـ، ٤١، ٤٤، ١٠٨

(ت)

التتار : ١١٨
الترمذي : ١٨٦
أبو تمام : ٢٠٠
تميم : ٧٧
تهامه (شركة) : ١٠٢

(ث)

ثمامة بن أشرس : ٧٣، ٧٤

(ج)

أبو عثمان الجاحظ: ١٨، ١٩، ٢٠،

١٦٣هـ، ١٦٣، ٢٠٢، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢٤٣، ٢٤٩، ٢٧٨، ٢٧٩، ٣٤٨، ٣٧٠هـ
الجبرتي : ٩٥، ٩٧
جحا : ٩٩
جرهم : ٨٩
جعفر بن يحيى بن خالد : ٢٦٣
جمال الدين بن نباته المصري : ٢٥٤

(ح)

حاتم الطائي : ٩٩
القاضي الحجاج بن أرطأة : ٢٤
الحجاج بن يوسف : ٩٩، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ٣١٩
الحجاج بن علاط السلكي : ١٨٥
ابن حجة الحموي : ٨٨
حرقة بنت النعمان بن المنذر : ٤٤
الحسن البصري : ١١٦، ١٥٨، ٣٦٥
أبو الحسن : ٢٤٣، ٢٤٩
حسن الزيلعي الجبرتي : ٩٥
الحسن بن سهل : ١١٤، ١١٥، ١١٧،
الحسن بن علي : ٢٦٠
حسن بن عبد الله آل الشيخ : ٣، ٤
الحسين بن أحمد بن خالوية : ٢٧٤
الحسين بن علي : ٢٦٠
حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري : ٣٠٠
حمد الخويطر : ٣٣٧
حمد القاضي : ٣، ٥
أبو حنيفة : ١٥٢، ١٥٣
حميد بن عبد الرحمن : ١٨٦

(خ)

خديجة : ٢٢٨
خزيمة بن بشر : ٨٨
الخليل بن أحمد : ١٨
خويلد : ٢٢٩

(د)

دجاجة : ٣٧٩
أبو دلف : ٨٨

(ر)

الراغب الاصبهاني : ٢٣، ٢٦، ٤٩، ٥٥
الربيع بن زياد الحارثي : ٤١
رجاء بن خيوه : ٢٢٢

(ز)

الزبرقان بن بدر : ٢٩٤، ٢٩٥
أبو زعيزع (صاحب شرطة عبد الملك) : ٦٣
أبو القاسم الزمخشري : ٣٨٤
زياد بن أبيه : ٤٤، ١٤٢، ٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٦٧، ١٩٢، ٩٧
أبو زيد البلخي : ٣٧٢، ١٦٣ هـ
زيد بن علي : ١٢٧
ابن زيدون : ٢٥٤

(س)

سابور : ٣٣٢
أبو العباس السفاح : ٣١٨هـ
سعيد بن جبير : ١٧٥
أبو خلف سلام بن زيد : ٣٤٨

سليك بن سلكه : ١٧٩ ، ١٨٢
سليمى : ٣١٨هـ
سـوار : ١٨٨
سـيبويه : ٢٧٢ ، ٢٧٣
ابن سـيرين : ٣٥٦
سيف الدولة : ٧٩ ، ٢٧٤

(ش)

القاضي ابن شبرمة : ١١٩
شبيب بن شيبة : ٢٦٣
القاضي شريك : ٩٨ ، ١٠١
الشيباني : ٣١٨
أبو شيبة العلوي : ٣٧٠هـ

(ص)

صـادر : ٤١ هـ
أبو صالح : ١٥١ ، ٣٥٠
صفـية : ٩٤
صفية بنت حيي : ٢٥٦ ، ٢٥٧
صفية بنت عبد المطلب : ٢٢٨

(ض)

الضحاك : ١٥٢ ، ١٥٣
الضحاك بن سفيان الكلابي : ٩٥

(ط)

طلحة بن عبيد الله : ١٠٨ ، ١٣٥
الطـوال : ١٤٧
طه حسين : ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥

(ظ)

الظاهر بيبرس : ١١٨

(ع)

عائشة : ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٢٢٩
ابن عائشة : ٢٠٦
عـامـر الشـــعبي : ٥١ ، ٥٣ ، ٦٤ ، ١٣٠ ، ١٤١
عامر بن الظرب : ٢٦٧
عبـــاده : ٩٢
عباس بن بكار : ٢٦٣
العباس بن عبد المطلب : ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤
عبد الحميد الكاتب : ٢٧٧
عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي : ٢٢٣
عبد الرحمن بن عوف : ١٣٨
عبد الرحمن بن القاسم بن أبي بكر الصديق : ١٠٨
عبد الرحمن بن قيس الرقيات : ١٢١
عبد الصمد بن بابك : ٣٨٢
عبد العزى : ٢٢٩
عبد العزيز الخويطر : ٦٦
الملك عبد العـزيز آل سـعود : ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢
عبد الله بن الحارث بن عبد المطلب : ٢٢٧
عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد : ١٠٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥
عبد الله بن عامر بن كريز : ٢٩٧
عبـد الله بن عبـاس : ٩١ ، ١٥٧ ، ٢٢٧ ،

٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٣٥٠ ، ٣٦٨
عبد الله بن عمر : ٣٦٨
عبد القادر الجيلاني : ٢٤٠ ، ٢٤١
عبد الله بن مسعود : ١٤٥ ، ١٤٦
عبد الله بن معاوية بن جعفر : ١٠٨
عبد الله بن المقفع : ٢٠٥
عبد المطلب : ٢٢٩
عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز : ٢٦٦
عبد الملك بن مروان : ٥٢ ، ٥٨ ، ٣١٩ ، ٣٣٣
عبد مناف : ٢٢٩
عبيد بن شربة : ٨٩
أبو عبيد الله بن يحيى : ٣٩
العتبي : ١٧٩
ابن أبي عتيق : ٩١
عثمان : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ٣٣٣
أبو عثمان : ٢٦٤
أبو عثمان المازني : ٢٧٢ ، ٣٥٠
الشيخ عز الدين : ٦٦ ، ٦٧
عكرمة الفياض : ٨٨
الفقيه علي أبي الحسن ابن عيسى الولواحي : ٣٠٢
علي بن زبن : ٣٠٨
علي بن أبي طالب : ٩٩ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٣٨ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٦٠
العماد الاصفهاني : ١٦٤
عمارة : ٧٦ ، ٧٧
عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير : ١٦ ، ١٧
الدكتور عمر أسعد : ٣٣٨ ، ٣٣٩
عمرو الأهتم : ٢٩٤ ، ٢٩٥
عمر بن الخطاب : ٣٦ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٩ ، ٣٣٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣
عمر رفيع : ٣٤٥ ، ٣٤٦
عمرو بن العاص : ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥
عمر بن عبد العزيز : ٩٩ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ٢٦٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٣٣
عمير (غلام الأحنف) : ٢٦٣
ابن عنقاء الفزاري : ١٤٧
عيسى بن موسى : ٩٨
أبو العنياء : ٢٧٧ ، ٣٦٩هـ ، ٣٧٠

(غ)

غيلاذ بن خرشه : ٢٩٧ ، ٢٩٨

(ف)

فؤاد سزكين : ٢١٣
الفرزدق : ٨١هـ
قبيلة فزاره : ٢٢٧
فيروز الأصغر : ٣٣٣

(ق)

ابن قادم : ١٤٧
قباذ : ٣٣٣
قتيبة بن مسلم الباهلي : ٢٩١ ، ٣١٨ ، ٣١٩
قراقوش : ١٧٦
قرامطة : ٣٥٤

قريش : ٣٦٨
قيس بن عاصم : ٦٤
قيس بن عبادة : ١٣٣ ، ١٣٤

(ك)

كسرى : ٣٣٣
كعب بن جعيل : ١٥٥
كعب الأحبار : ١٥٥
أم كلثوم بنت عقبة : ١٨٦
كيشاسف : ٣٣٢

(ل)

لقمان الحكيم : ١٤٤
ابن أبي ليلى محمد بن عبد الرحمن ابن يسار : ٢٣٩ ، ٢٤٠

(م)

مالك بن دينار : ٢٠١
المـأمـون : ٣٤، ٣٥، ٥٦، ٥٧، ١١٤، ١١٥، ١١٧، ١٢٠، ١٢٠، ١٥٧
المبرد : ٣٤٩، ٣٥٠
المتوكل : ١٤٧
محمد بن اسحاق النديم : ١٤٧
محمد بن الأشعث : ٣٦
محمد بن بشير : ٣٥٦
محمد بن الحنفية : ٢٦٠ ، ٢٦١
محمد بن عبد الرحمن بن يسار (ابن أبي ليلى) : ٢٣٩ ، ٢٤٠
محمد بن عبد الله الأنصاري (قاضي البصرة) : ٢٧٢
محمد أبو الفضل إبراهيم : ٢٥٤
محمـد بن مسـلم : ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥
محمد بن يزيد الثمالي : ٢٤٩
محمود الوراق : ٢٠٤
أبو مريم : ٢٤٣
أبو مسلم الأشعري : ٣٧٤
الدكتور مصطفى مير : ٣٣٩، ٣٤٠
معاوية بن أبي سفيان : ٣٦، ٣٧، ٦٤، ٨٩، ٩٩، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٥، ٣٣٣، ٣٦٨، ٣٧٥
معن بن زائدة : ٩٩، ١٥٣
المغـفر بـن أوس بـن حمـاد البـارقـي : ٣١٨هـ
المنصور : ٦٠، ١٥٣، ٢٢٣، ٣٠٩
المنصور الفقيه : ١٩٩
الميداني : ٣٨٤
ميمون بن مهران : ١٨٨

(ن)

نصر بن أحمد : ١٥١، ٢٠٣، ٢٠٤
نبو نمير : ٣١٨هـ
النيسابوري : ٩٢

(هـ)

هارون الرشيد : ٥٤، ٥٦، ٧٦، ٧٧، ٩٩، ٢٢٢، ٣٣٣، ٣٣٤
هـاشـم : ٢٢٢٩
بنو هاشم : ١٠٩، ٢٢٧، ٢٣٣
الدكتور هاشم عبده هاشم : ٥

هشام بن عبد الملك : ١٥ ، ١٥٠
الهيثم بن عدي : ٦٤

(و)

الواثق : ٩٢ ، ٣٣
الوليد بن عبد الملك : ١٧٧ ، ١٧٩ ، ٣٣٣
وهب الهمداني : ٢٣

(ي)

يحيى بن خالد البرمكي : ٤٩ ، ١٣٠ ، ٢٧٧
يحيى بن سعيد : ١٧٣
يزيد بن أبي مسلم : ١٨
يونس النحوي : ١٢٧

* * * * * * * * * * *

(٣)
فهرس المراجع

١ - *أخبار القضاة*
لـوكيـع
عالم الكتب - بـيروت

٢ - *أدب الدين والدين*
أبو الحسن الماوردي
شرح وتعليق : محمد كريم راجح
دار إقرأ - بيروت

٣ - *كتاب الأذكياء*
لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي
لجنة إحياء التراث العربي
دار الآفاق الجديدة
«ذخائر التراث العربي»
منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت
الطبعة الرابعة : ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م

٤ - *كتاب الامتاع والمؤانسة*
لأبي حيان التوحيدي
تحقيق : أحمد أمين وأحمد الزين
منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - لبنان

٥ - *أي بُني (مقارنة بين ماضينا وحاضرنا)*
لعبد العزيز بن عبد الله الخويطر
الجـزء الثـالث
الطبعة الأولى : ١٤١١هـ/ ١٩٩١م - الرياض

٦ - *كتاب البخلاء*
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق : أحمد العوامري بك وعلي الجارم بك
مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة - ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٨م

٧ - *البرصان والعرجان والعميان والحولان*
لأبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ
تحقيق : محمد مرسي الخولي
دار الاعتصام للطبع والنشر
القاهرة - بيروت - ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م

٨ - *بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس*
للامام أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي
تحقيق : محمد مرسي الخولي
دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان

٩ - *البيـان والتبـيين*
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق : عبد السلام محمد هارون
الطبعة الأولى - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٠ - *تأديب الناشئين بأدب الدنيا والدين*
أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
تحقيق : محمد إبراهيم سليم
مكتبة القرآن

١١ - *تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون*
لخليل بن أيبك الصفدي
تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم
المكتبة العصرية - صيدا - بيروت

١٢ - *ثمـــرات الأوراق*
لتقي الدين أبي بكر بن علي محمد بن حجة الحموي
صححه وعلق عليه : محمد أبو الفضل إبراهيم
الطبعة الأولى - مكتبة الخانجي بمصر ١٩٧١م

١٣ - *كتـاب الحيـــوان*
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق : عبد السلام هارون
دار إحياء التراث

١٤ - *الذهب المسبوك في وعظ الملوك*
أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي (٤٨٨هـ)
تحقيق : أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري
والدكتور عبد الحليم عويس
عالم الكتب - الطبعة الأولى - ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م

١٥ - *رجـــال مـن التـاريخ*
علي الطنطاوي
دار الفكر - الطبعة الأولى - ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م

١٦ - *رحلة الشتاء والصيف*
لمحمد بن عبد الله الحسيني الموسوي ، الشهير بكبريت ١٠١٢-١٠٧٠
تحقيق : محمد سعيد الطنطاوي
الطبعة الثانية - بيروت - ١٣٨٥هـ

١٧ - *روضة المحبين ونزهة المشتاقين*
لشمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية
دار الكتاب العربي ، الطبعة الثانية - ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م

١٨ - *زهر الآداب وثمر الألباب*
لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني
تحقيق : الدكتور زكي مبارك

دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة - بيروت - لبنان
الطبعة الرابعة ١٩٧٢مال

١٩ - *سـراج الملوك*
لمحمد بن الوليد الطرطوشي
تحقيق : جعفر البياتي
رياض الريّس للكتب والنشر ١٩٩٠م

٢٠ - *سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون*
لجمال الدين بن نباته المصري
تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم
المكتبة العصرية - صيدا - ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

٢١ - *كتاب العقد الفريد*
لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
تحقيق : أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم الأبياري
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة
١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م

٢٢ - *عقـلاء المجانين*
لأبي القاسم الحسن محمد بن الحسن بن حبيب النيسابوري
من كتب الملح والسامر (٢)
دار البصائر - الطبعة الثانية - ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م

٢٣ - *كتاب غذاء الألباء لشرح منظومة الآداب*
لمحمد السفاريني
مكتبة الرياض الحديثة

٢٤ - *الكشـكول*
لبهاء الدين العلوي
تحقيق : الطاهر أحمد الزاوي
طبع بدار إحياء الكتب العربية «عيسى البابي الحلبي وشركاه»

٢٥ - *مجالس العلماء*
لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي
تحقيق : عبد السلام هارون
«سلسلة التراث العربي» - الكويت - ١٩٦٢م

٢٦ - *مجموعة التوحيد النجدية*
للشيخ محمد بن عبد الوهاب
مطبعة المنار - مصر - الطبعة الأولى - ١٣٤٦هـ

٢٧ - *المحاسن والمساوىء*
لإبراهيم بن محمد البيهقي
دار صادر - بيروت - ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م

٢٨ - *محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء*
للراغب الأصبهاني
دار الآثار - بيروت
اختصار : إبراهيم زيدان

٢٩ - *المراح في المزاح*
لبدر الدين أبي البركات محمد الغزي
(ضمن مجموعة الرسائل الكمالية «٢»)
مكتبة المعارف - الطائف

٣٠ - *المصون في الأدب*
لأبي أحمد الحسن بن عبد الله العسكري
(التراث العربي)
إصدار وزارة الارشاد والأنباء في الكويت
تحقيق : عبد السلام محمد هارون ١٩٦٠م

٣١ - معجم *الأدباء*
لياقوت الحموي

دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

٣٢- *نزهة الألباء في طبقاء الأدباء*
لأبي بركات عبد الرحمن الأنباري
تحقيق : الدكتور إبراهيم السامرائي
مكتبة المنار - الأردن
الطبعة الثالثة - ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م

***

تم الجزء الأول بحمد الله

مطبعة سفير تلفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ ★ الرياض

نبذة عن المؤلف :

- ولد عام ١٣٤٦هـ في مدينة عنيزة بالقصيم بالمملكة العربية السعودية .
- جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة .
- حصل على الليسانس من دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٣٧١هـ .
- حصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ .
- عيِّن في العام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود .
- عيِّن وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ .
- درَّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب .
- انتقل منها رئيساً لديوان المراقبة العامة لمدة عامين ثم وزيراً للصحة ثم وزيراً للمعارف .

كتب صدرت للمؤلف :

- نشر عام ١٣٩٠هـ كتاب الشيخ أحمد المنقور في التاريخ .
- ألَّف عام ١٣٩٠هـ كتاب «عثمان بن بشر» .
- ألَّف عام ١٣٩٥هـ كتيب «في طريق البحث» .
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيبرس » باللغة العربية .
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيبرس » باللغة الانجليزية .
- حقق عام ١٣٩٦هـ كتاب « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر » ونشره .
- حقق كتاب : « حسن المناقب السرّية، المتفرعة من السيرة الظاهرية » لشافع بن علي، ونشره عام ١٣٩٦هـ .
- ألَّف عام ١٤٠٩هـ كتاب « أي بني » (مقارنة بين ماضينا وحاضرنا) الجزء الأول، وفي عام ١٤١٠هـ صدر الجزء الثاني، وفي عام ١٤١١هـ صدر الجزء الثالث، وفي عام ١٤١٢هـ صدر الجزء الرابع، وفي عام ١٤١٤هـ صدر الجزء الخامس .
- ألَّف عام ١٤١٤هـ كتاب « إطلالة على التراث » الجزء الأول .

التوزيع

يطلب هذا الجزء من كتاب « إطلالة على التراث » ، والأجزاء الخمسة من كتاب « أي بني »

من مؤسسة الجريسي للتوزيع

الرياض ١١٤٣١ ص . ب ١٤٠٥ - ت : ٤٠٢٢٥٦٤

جدة ت : ٦٨٢٦١٠٥ - الدمام ت : ٨٢٧١٨١١

القصيم ت : ٣٦٤٤٣٦٦ - خميس مشيط ت : ٢٢٢٠٧٥٨

ردمك : ١ - ٩٨ - ٧٣٨ - ٩٩٦٠

مطبعة سفير تلفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ ★ الرياض